قادة لا تنسى

telegram: @mbooks90

تأليف تامر بدر

تقديم د. راغب السرجاني

أقلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قادة لا تنسى

تأليف

تامر بدر

تقديم

أ. د. راغب السرجاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

إلى الإخوة الكرام في المكتبات والمطابع في مصر وغيرها وفقهم الله..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد..

أسأل الله لي ولكم التوفيق والسداد الدائم.. آمين..

لما كان كتابي: «**قادة لا تنسى..**» يحتوي على صور وخرائط وتوضيحات، وطباعته بهذه الصورة، وبجودة عالية، يضمن بقاء الفائدة والانتفاع به، بإذن الله..

فإني أُفيدكم بأن كتابي «**قادة لا تنسى..**» حقوق طباعته ونشره لدار (أقلام) فقط، أو مَنْ يُخوِّلونه هم بالطباعة والنشر في مصر أو غيرها، بشرط أن يُباع الكتاب بسعر مخفض؛ وذلك أني تنازلت عن حقوق المؤلف في سبيل بيعه بسعر لا يشقُّ على طلبة العلم ومَنْ يُريدون إهداءه وتوزيعه خيريًّا، وهذه الحقوق حصرية لهم لمدَّة ثلاث سنوات فقط من تاريخ هذه الورقة.

أسأل الله أن ينفع به، ولا يحرمنا جميعًا الأجر والثواب..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه / تامر بدر

القاهرة ٢٦ ذي الحجة ١٤٣٢هـ

٢٢ نوفمبر ٢٠١١م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إهداء

إلى: الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم؛ كي تقف هذه الأمة في مكانها الصحيح، وكي تؤدي دورها الصحيح..

إلى: الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم؛ كي يحرروا أراضي المسلمين المحتلة..

إلى: الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان..

إلى: كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا..

إلى: كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله كي يصل الإسلام إلينا..

إلى: كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته..

إلى: العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين..

إلى: صلاح الدين الذي وَحَّد المسلمين، وقاد الجيوش، ودَرَّب وسَلَّح، وحَرَّر الأقصى من الصليبيين..

إلى: كل من يُريد تحرير بيت المقدس من اليهود..

إليهم وحدهم أُهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم

فضيلة الدكتور راغب السرجاني

في تاريخ أُمَّة الإسلام رجال أضاءوا التاريخ لِمَنْ جاء بعدهم، رجال تميَّزوا في كل مجال، وربما لا تجد في تاريخ أُمَّة من الأمم هذا العدد من الرموز اللامعة؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»(١).

لذا فإن المميَّزِينَ من الرجال في التاريخ العام قِلَّة، ولكنَّ كثيرين من هؤلاء القلَّة ظهروا وأبدعوا في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية..

لقد كانت الدولة الإسلامية ولاَّدة بالأبطال الشجعان المجاهدين، وكم عرف التاريخ الإسلامي من قادة ظهروا وقادوا الجيوش الإسلامية لانتصارات كبيرة بفضل الله تعالى، ثم بعبقريتهم وشجاعتهم!

لم يكن السنُّ عاملًا من عوامل تحديد القادة في الإسلام، وإنما كانت الكفاءة والقدرة؛ فهذا رسول الله ﷺ يختار أسامة بن زيد وهو ابن الثامنة عشرة ليقود جيشًا يُحارب الروم، وتحت إمرته أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

كما لم يكن السبق إلى الإسلام عاملًا هو الآخر؛ فقد ولَّى الرسول ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه على كبار الصحابة في غزوة ذات السلاسل، ولم يكن قد دخل الإسلام إلَّا من أيام معدودات، كما قاد خالد بن الوليد رضي الله عنه كبار الصحابة في غزوة مؤتة، وهو حديث عهد بالإسلام.

لقد كانت معايير اختيار القادة في التاريخ الإسلامي موضوعية تتعلَّق بالكفاءة فقط؛ لذا فقد أفرزت الحضارة الإسلامية على امتداد تاريخها قادة أفذاذًا لا يُشَقُّ لهم غبار.

ومن بعد ذلك تعلَّم المسلمون أنهم لا بُدَّ لهم من إعداد قادة المستقبل؛ لذا وجدنا انتشار

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، (٦١٣٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قوله ﷺ: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة. (٢٥٤٧)، واللفظ له.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التدريب على الفروسية والجهاد والرمي.

إن تاريخ القيادة في الإسلام تاريخ ثريٌّ بالمعاني والمفاهيم العميقة والشخصيات الفذَّة؛ ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب.

لقد اهتمَّ المؤلف الأخ تامر بدر -حفظه الله- بتتبُّع سير القادة المسلمين، وعَرَضَهَا علينا في أسلوب سهل رشيق ومختصر، استخرج فيه أهمَّ النقاط التي تحتاجها الأُمَّة لكي تفهم كيف كان القادة يُعَدُّون، ولكي تستطيع أن تُخرج أجيالًا جديدة منهم.

وكما عَوَّدَنَا المؤلف في كتابه السابق (أيام لا تُنسى)، ستجد الكتاب جذَّاب الأسلوب، ما إن تبدأ في قراءته حتى تجد نفسك مدفوعًا إلى الاستمرار حتى النهاية.

أسأل الله ﷻ أن يتقبَّل جهد المؤلف في كتابه، وأن يرزق الكتاب القبول، وينفع به المسلمين؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أ. د. راغب السرجاني

القاهرة في نوفمبر ٢٠١١م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

والحمد لله مُعزّ مَنْ أطاعه واتَّقاه، ومذلّ مَنْ خالف أمره وعصاه، قاهر الجبابرة وكاسر الأكاسرة، لا يَذِلُّ مَنْ والاه ولا يعزُّ مَنْ عاداه، ينصر مَنْ نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، أحمده سبحانه وأشكره حمدًا وشكرًا يملآن أرضه وسماه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل مَنْ نصره ووالاه.

وبعد..

لم يحفل مجال تقدَّم فيه المسلمون مثلما حفل المجال العسكري؛ فالقادة المسلمون العسكريون النبلاء لا يُحصيهم عددٌ، ولا يحويهم إحصاءٌ؛ وقد يكون ذلك راجعًا إلى كثرة الحروب والمواجهات التي واجهها المسلمون أثناء نشر دعوتهم والدفاع عن أنفسهم وديارهم.

فلن ينسى العالم أعلام الأُمَّة الإسلامية من أمثال: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، والمثنى بن حارثة، والقعقاع بن عمرو، وعقبة بن نافع، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، ونور الدين محمود.. وغيرهم من عظماء العسكريين المسلمين الذين قادوا المعارك ببصيرة حربية مذهلة، واستطاعوا أن يجعلوا من الجهاد في سبيل الله تجارب عملية وتطبيقات فدائية يشيب لها قادة العدوّ.

وقد كان عمل القادة -في الغالب- لا يقتصر على العمليات العسكرية؛ بل يشمل القضايا الإدارية؛ لأنهم كانوا ولاةً يُمارسون الإدارة، وقادةً يُمارسون القيادة، وتاريخهم الإداري لا يقلُّ أهمية عن تاريخهم العسكري، وتاريخُهم الرسمي قادةً وإداريين جزء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تاريخهم الكامل، فينبغي دراسة تاريخهم بشرًا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويعملون عمل سائر البشر؛ زواجًا وإنجابًا، ولهم سماتهم البشرية بما فيها من مزايا ومآخذ؛ ليكون تاريخهم كاملاً جهد الإمكان؛ بحيث يستطيع الذي يدرس تاريخهم أن يتصوَّر أي نوع من البشر كانوا في حياتهم، بالإضافة إلى تصوُّرِهم أيَّ نوع من القادة والولاة كانوا، ولا ينبغي الاقتصار على سيرهم قادةً عسكريين، وإبراز سماتهم العسكرية فقط، والسكوت عن أية سمة لأي قائد إنسانًا؛ فذلك وحده يُكمل الصورة لتاريخ القادة العسكري وغير العسكري.

وللقادة العرب والمسلمين سماتهم ومزاياهم التي تُناسب عصرهم وعقيدتهم وتقاليدهم، فيجب الإبقاء على تلك السمات والمزايا كما هي، وكما كانت على أصحابها، دون أن نمسخ سيرتهم بإضافة سمات ومزايا جديدة إليهم، لم يكونوا يعرفونها ولم يسمعوا بها، ولا كانوا يحلُمون بها، ولو عادوا إلى الحياة لاشمأزُّوا منها ورفضوها.

إن الأعمال الباهرة التي قَدَّمها القادة العرب المسلمون لعقيدتهم وأُمَّتهم، ينبغي أن تُذكر لهم بكثير من العرفان، وتُسَجَّل في سيرة كل واحد منهم بالفخر والاعتزاز، في صفحات مشرقة بالنور من صفحات الرجال الأفذاذ.

أمَّا إذا تكلَّمنا عن أعظم القادة فإننا نقول بثقة وبدون أي شكٍّ: إنه النبي ﷺ؛ فهو خير النماذج العسكرية المسلمة على الإطلاق؛ فكان قائدًا محنَّكًا، وزعيمًا عسكريًّا فذًّا، يُشارك جنوده المعارك جنبًا إلى جنب، ويُشاورهم في أمور الحرب، ويكفينا ذكرًا هنا أن هؤلاء القادة من أصحابه ﷺ كانوا ثمرة تربيته وفكره وتوجيهه ومبادئه العسكرية الجهادية.

لقد استطاع النبي ﷺ أن يُحوِّل هزيمة المسلمين في أُحُدٍ إلى نصر سياسي وعسكري، ولو أن قائدًا مكانه ﷺ لَنَدَبَ حظَّه، أو لحاكَمَ الرماةَ مُحاكمة عسكرية قاسية، ولكنه لم يفعل ذلك فهو خير البشر، فقد خرج في اليوم التالي لغزوة أُحُدٍ واشترط ألَّا يخرج معه إلَّا مَنْ شَهِد أُحُدًا، فما كان من قريش إلَّا أن انسحبت؛ فحفظ ماء وجه المسلمين، ورُدَّتْ إلى المسلمين كرامتهم.

وموقفه ﷺ في غزوة حُنين بعد أن فَرَّ جيشه، ولم يَثْبُتْ إلَّا هو وقلَّة لا تتجاوز المائة -على أكثر التقديرات- فاستطاع بشجاعة القائد والفدائي أن يُعيد جنوده إلى مضمار المعركة؛ وذلك بعد أن غامر بحياته، ورفع صوته على مقربة من الأعداء مناديًا: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المُطَّلِب»[1]. ليلتفَّ حوله أصحابه وجنوده الكرام، ويعودوا بكل حماس وإصرار، ويُحوِّلُوا الهزيمة إلى نصر. وقد قاد النبي ﷺ ثماني وعشرين غزوةً مع جنده؛ كان النبي ﷺ فيها خير قدوة للمسلمين في فنون القيادة والسيطرة والحزم والتسامح.. وغيرها من الأمور الحربية والسياسية التي لم ولن تتواجد في إنسان غيره؛ سواء قديمًا أو حديثًا.

وإذا سألنا أنفسنا: ما الذي دفع مفكِّرًا أميركيًّا مثل «مايكل هارت» أن يُورد محمدًا ﷺ في صدارة كتابه «العظماء المائة»؟

سيكون جوابنا أن غير المسلمين من المنصفين لا يسعهم إلَّا أن يُقَدِّرُوا لنبي الإسلام قدره من باب الإنصاف لا أكثر.

وإذا صنَّفْنَا القادة العرب المسلمين -الذين تخرَّجوا من المدرسة العسكرية النبوية- فإننا نُقَسِّمهم إلى ثلاث طبقات:

أ- الطبقة الأولى: قادة الفتوح الإسلامية: وتشمل:

١- **قادة النبي ﷺ**: الذين قادوا سراياه، أو قادوا تشكيلاته التعبوية في غزواته؛ كقادة المقدمات والمؤخرات والمجنبات التي كان يتَّخذها لحماية جيشه في مرحلة مسير الاقتراب، وقادة المفارز[2] الاستطلاعية، وقادة أصحابه كالمهاجرين والأنصار والقبائل، وقادة أرتاله[3] المكلَّفة بواجب خاصٍّ، كالأرتال التي دخلت مكة المكرمة في غزوة الفتح.

٢- **قادة الفتح الإسلامي**: الذين بدءوا الفتح الإسلامي سنة (١١هـ= ١٣٢م)، وانتهى سنة (١٠٠هـ= ٧١٨م)، وكان مدُّ الفتح الإسلامي عاليًا في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وإلى سنة (٣١هـ= ٦٥١م) من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويمكن إضافة أسد بن الفرات فاتح صقلية، ومحمد الفاتح فاتح القسطنطينية إلى طبقة قادة الفتح، كما يمكن إضافة القادة الذين فتحوا أجزاء من أوربا أيام الخلافة العثمانية؛ فهم بلا شكٍّ من قادة الفتح.

٣-**قادة إعادة الفتح الإسلامي** بالنسبة للبلاد التي سبق فتحها ثم احتُلَّتْ؛ كالقادة الذين

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، (٢٧٠٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٦).

(٢) المفارز: الفِرَق أو المجموعات.

(٣) الأرتال: جماعة أو صفوف الجنود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استعادوا فتح بلادٍ إسلامية سبق احتلالها من قِبَل أعداء المسلمين في عهد الدولة العباسية وفي الحروب الصليبية خاصة؛ فهم -بلا مراء- من قادة استعادة الفتح؛ مثل القائد صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد فتح بيت المقدس.

ب- الطبقة الثانية: هم قادة الدفاع عن البلاد الإسلامية: وهم الذين استطاعوا صدَّ العدوان الخارجي؛ كالقادة الذين استطاعوا الدفاع بنجاح عن بلاد المسلمين في عهد العباسيين وملوك الطوائف في الأندلس، وفي أيام الحروب الصليبية، أو خلال العصور الإسلامية المختلفة؛ كالسلطان قطز الذي صدَّ التتار وانتصر عليهم في معركة عين جالوت.

ج- الطبقة الثالثة: قادة المقاومة المسلحة ضد الاستعمار الأجنبي: وهم القادة المسلمون الذين قاموا بجميع حركات التحرُّر التي أخذت الطابع العسكري ضد قوات الاحتلال الأجنبي للبلاد الإسلامية؛ كشيخ المجاهدين عمر المختار، الذي تزعَّم الثورة الليبية ضدَّ الاحتلال الإيطالي.

وسوف نتناول في هذا الكتاب أعظم وأشهر القادة المسلمين بشيء من التفصيل.

فأرجو أن يكون ما كتبتُه نموذجًا لما أصبو إليه وما يتطلع إليه الدارسون في دراسة أحداث تاريخنا العسكري.

ولست بمستغنٍ عن أي ملاحظة تسدُّ نقصًا هو من طبيعة عمل البشر، والشكر أُقدِّمه سلفًا لكلِّ مَنْ يُساهم بملاحظة مفيدة، أو لا يبخل عليَّ بدعوة بظهر الغيب صادقة، أصلح الله أحوال المسلمين ووقاهم الشرور والفتن وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ.

وأخيرًا: أرجو من الله تعالى أن يكون عملي عملًا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يُثيبَني على كل حرف كتبتُه، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يُثيب إخواني الذين أعانوني بكافَّة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

تامر بدر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

قادة الفتح

خالد بن الوليد

الاسم الكامل	خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي
اللقب	سيف الله المسلول
تاريخ الميلاد	٥٩٢ م
مكان الميلاد	مكة
تاريخ الوفاة	٢١هـ / ٦٤٢م
مكان الوفاة	حمص - سورية
الانتماء	العهد النبوي والخلافة الراشدة
أعداؤه	الكفار - أهل الردة - الفرس - البيزنطيون

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فارس وقائد إسلامي، لقَّبه الرسول ﷺ بسيف الله المسلول، حارب في بلاد فارس وبلاد الروم وفي الشام، وتُوُفِّيَ ودُفن بعدها في حمص.

نشأته

وُلد خالد بن الوليد سنة ٥٩٢م في مكة، وكان والده الوليد بن المغيرة سيِّدًا في بني مخزوم ومن سادات قريش، واسع الثراء ورفيع النسب والمكانة؛ حتى إنه كان يرفض أن تُوقد نارٌ غير ناره لإطعام الناس؛ خاصة في مواسم الحجِّ وسوق عكاظ، ولُقِّبَ بريحانة قريش؛ لأنه كان يكسو الكعبة عامًا وقريش أجمعها تكسوها عامًا، وأُمُّه هي لبابة بنت الحارث الهلالية.

كان له ستة إخوة وأختان، نشأ معهم نشأة مترفة، وتعلَّم الفروسية منذ صغره مُبديًا فيها براعة مميزة؛ حيث كان أحدَ الاثنين اللذين يُقاتلان بسيفين في آن واحد (هو والزبير بن العوام) ويقود الفرس برجليه؛ ولذلك جعلته فروسيَّتُه أحد قادة فرسان قريش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خالد قبل الإسلام

لم يُحارب خالد في بدر؛ لأنه كان في بلاد الشام وقت وقوع الغزوة الأولى بين المسلمين ومشركي قريش، وحارب المسلمين في غزوة أُحُد، وكان صاحب دور رئيسي في كسر انتصار المسلمين في غزوة أُحُد في نهاية الغزوة؛ وذلك بعد أن قتل مَنْ بقي من الرماة المسلمين على جبل الرماة، والتفَّ حول جيش المسلمين وطوَّقهم من الخلف، وقام بهجوم أدَّى إلى ارتباك صفوف جيش المسلمين في هذه الغزوة، وقَتَل من المسلمين عددًا كبيرًا.

وفي غزوة الأحزاب قاد كتيبة من فرسان المشركين محاولاً اقتحام الخندق، الذي حفره المسلمون حمايةً للمدينة، ولما أخفقت محاولاتُ المشركين وانصرفوا منسحبين؛ قام خالد مع عمرو بن العاص بحماية مؤخِّرتهم، ثم كان على رأس خيَّالة قريش الذين أرادوا أن يَحُولُوا بين المسلمين ومكة في غزوة الحُديبية.

إسلامه

كان خالد بن الوليد كثيرَ التردُّد في الانتماء للإسلام، غير أنه مال إلى الإسلام وأسلم متأخِّرًا في صفر للسنة الثامنة من الهجرة، قبل فتح مكة بستة أشهر، وقبل غزوة مؤتة بنحو شهرين، وتعود قصة إسلام خالد إلى ما بعد معاهدة الحديبية؛ حيث أسلم أخوه الوليد بن الوليد، ودخل الرسول ﷺ مكة في عمرة القضاء فسأل الوليد عن أخيه خالد، فقال: «**أَيْنَ خَالِدٌ؟**» فقال الوليد: يأتي به الله.

فقال النبي ﷺ: «**مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الْإِسْلَامَ، وَلَوْ كَانَ يَجْعَلَ نِكَايَتَهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ**». فخرج الوليد يبحث عن أخيه فلم يجده، فترك له رسالة قال فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ.. فإني لم أَرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وَعَقْلُهُ عَقْلُكَ، ومِثْلُ الإسلام يجهله أحدٌ؟! وقد سألني عنك رسول الله ﷺ، فقال: «**أَيْنَ خَالِدٌ؟**» -وذَكَرَ قولَ النبي ﷺ فيه- ثم قال له: فاستدركْ يا أخي ما فاتك فيه؛ فقد فاتتك مواطن صالحة». وقد كان خالد ﷺ يُفكِّر في الإسلام، فلمَّا قرأ رسالة أخيه سُرَّ بها سرورًا كبيرًا، وأعجبه مقالة النبي ﷺ فيه، فتشجَّع وأسلم[1].

---

(١) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥١، والبيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٣٥٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحلم

رأى خالدٌ في منامه كأنه في بلادٍ ضيِّقة جدبة، فخرج إلى بلد أخضر واسع، فقال في نفسه: «إن هذه لرؤيا». فلمَّا قَدِمَ المدينة ذكرها لأبي بكر الصديق ﷺ فقال له: «هو مخرجُكَ الذي هداك الله للإسلام، والضيقُ الذي كنتَ فيه من الشرك»[١].

إسلامه

يقول خالد عن رحلته من مكة إلى المدينة: (وددت لو أجد مَنْ أُصاحب، فلقيتُ عثمان بن طلحة، فذكرتُ له الذي أُريد فأسرع الإجابة، وخرجنا جميعًا فأدلجنا سرًّا، فلما كنا بالسهل إذا عمرو بن العاص، فقال: «مرحبًا بالقوم». قلنا: «وبك». قال: «أين مسيركم يا مجانين؟». فأخبرْنَاه، وأخبرَنَا -أيضًا- أنه يُريد النبي ﷺ ليُسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان).

فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلَاذِ كَبِدِهَا[٢]». يقول خالد: «ولما اطَّلعت على رسول الله ﷺ سَلَّمتُ عليه بالنبوة، فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طلقٍ، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقِّ». وحينها قال الرسول ﷺ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلًا رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ». وبايعتُ الرسول وقلتُ: «استغفر لي كل ما أوضعتُ فيه من صدٍّ عن سبيل الله». فقال: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ». فقلتُ: «يا رسول الله على ذلك». فقال: «اللهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ». وتقدَّم عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فأسلما وبايعا رسول الله[٣].

وقال الرسول ﷺ عن خالد: «نِعْمَ عَبْدُ الله خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله»[٤].

خالد بعد إسلامه

شارك خالد في أولى غزواته في غزوة مؤتة ضد الغساسنة والروم، وقد استشهد فيها قادتها الثلاثة: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، فسارع إلى

---

(١) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥١، والبيهقي: دلائل النبوة ٤/ ٣٥٠.
(٢) بأفلاذ كبدها أراد صميم قريش ولُبابَها وأشرافها.
(٣) انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ٣/ ٤٥٣، والبيهقي: دلائل النبوة، ٤/ ٣٥١.
(٤) الترمذي (٣٨٤٦)، وقال: هذا حديث حسن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الراية ثابت بن أرقم فحملها عاليًا، وتوجَّه مسرعًا إلى خالد قائلاً له: «خُذِ اللواء يا أبا سليمان». فلَمْ يجد خالدٌ أنَّ من حقِّه أخذها؛ فاعتذر قائلاً: «لا، لا آخذ اللواء أنت أحقُّ به، لك سنٌّ وقد شهدتَ بدرًا».

فأجابه ثابتٌ: «خذه فأنت أدرى بالقتال مني، ووالله! ما أخذتُه إلَّا لك». ثم نادى في المسلمين: «أترضون إمرة خالد؟» قالوا: «نعم».

فأخذ الراية خالدٌ وأنقذ الله به جيش المسلمين، يقول خالد: «قد انقطع في يدي يومَ مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلَّا صفيحة يمانية (وهي نوع من السيوف تكون عريضة النصل)».

وقال النبي ﷺ عندما أخبر الصحابة بتلك الغزوة: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ** -وعيناه ﷺ تذرفان-، **حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[1].

فسُمِّيَ خالد من ذلك اليوم سيف الله.

ولقد أَمَّره الرسول على إحدى الكتائب الإسلامية التي تحرَّكت لفتح مكة، واستعمله الرسول -أيضًا- في سريَّةٍ للقبض على أُكَيْدر ملك دومة الجندل أثناء غزوة تبوك.

وكان على مُقَدِّمة جيش المسلمين يوم حُنين في بني سليم، فجُرح خالد، فعاده رسول الله، ونفث في جرحه فبرأ، وأرسله رسول الله إلى أكيدر بن عبد الملك، صاحب دومة الجندل، فأسره خالد، وأحضره عند رسول الله فصالحه على الجزية، وردَّه إلى بلده.

وأُرْسِل من قِبَل ﷺ رسول الله سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بن مَذْحِج، فقَدِمَ معه رجال منهم فأسلموا، ورجعوا إلى قومهم بنجران.

دوره في حروب الردة

أَمَّره الخليفة أبو بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ على قتال المرتدين، فواجه خالد بن الوليد بجيشه المرأة سجاح مُدَّعِيَة النبوَّة، كما واجه مسيلمة الكذَّاب، الذي كان من أشدِّ

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، مناقب خالد بن الوليد ﷺ، (٣٥٤٧).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولئك المتنبِّئين خطرًا ومن أكثرهم أعوانًا وجندًا، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بهزيمة بني حنيفة ومقتل مسيلمة، كما قاتل مالك بن نُوَيْرَة الذي اتُّهِمَ بالردَّة، إلَّا أنَّ الناس اختلفوا في قتل مالك بن نُوَيْرَة، فقيل: إنه قُتِل مسلمًا لظنِّ ظنَّهُ خالد به، وكلامٍ سمعه منه، وأنكره عليه أبو قتادة وأقسم أنه لا يُقَاتِل تحت رايته، وأنكر عليه ذلك عمر بن الخطاب.

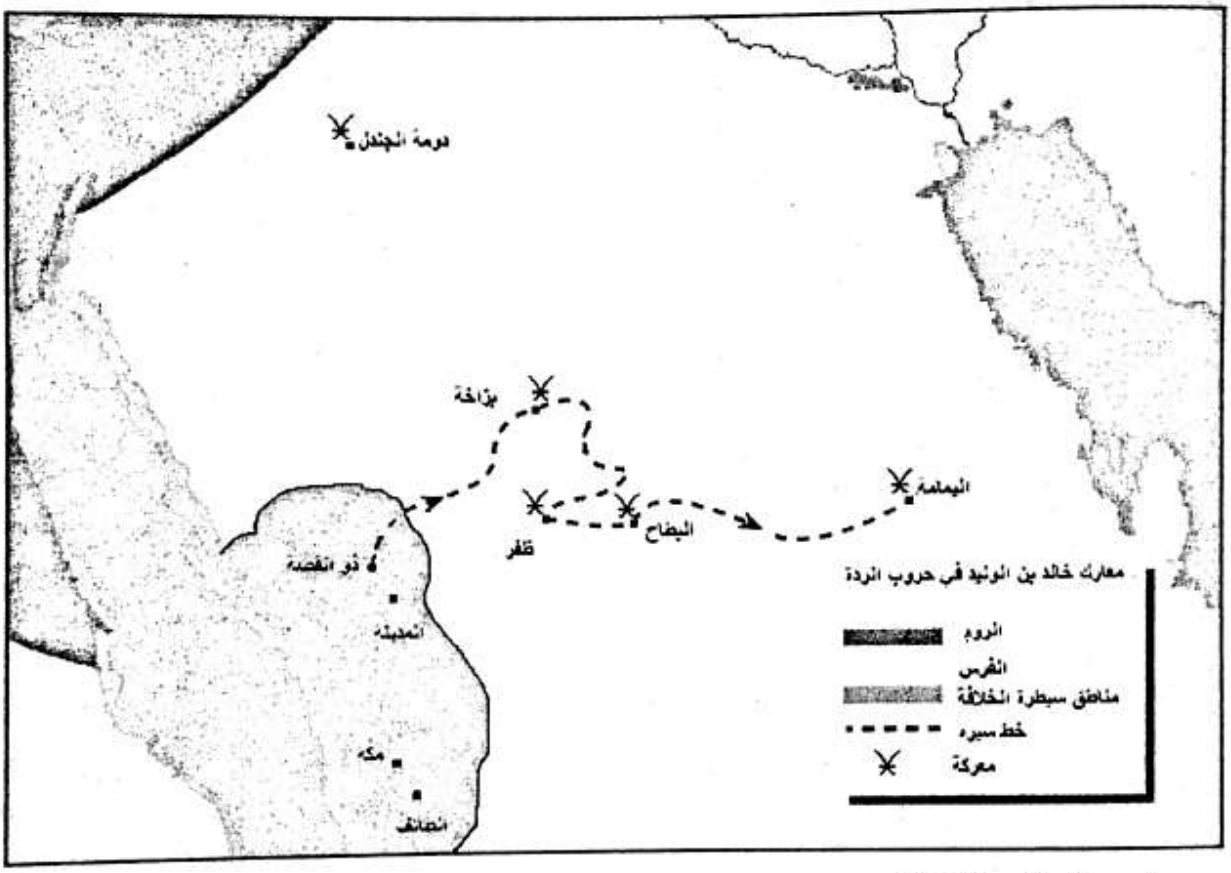

دوره في فتح بلاد فارس

بعد أن قضى أبو بكر ﷺ على فتنة الردَّة -التي كادت تُمَزِّق الأُمَّة وتقضي على الإسلام- توجَّه الصديق ببصره إلى العراق؛ يُريد تأمين حدود الدولة الإسلامية، وكسر شوكة الفرس المتربصين بالإسلام.

وكان خالدٌ ﷺ في طليعة القوَّاد الذين أرسلهم أبو بكر لتلك المهمة، واستطاع خالد أن يُحَقِّقَ عددًا من الانتصارات على الفرس، واستمرَّ خالد في تقدُّمه وفتوحاته حتى فتح جزءًا كبيرًا من العراق، ثم اتجه إلى الأنبار ليفتحها، ولكنَّ أهلها تحصَّنوا بها، وكان حولها خندق عظيم يصعب اجتيازه؛ ولكنَّ خالدًا لم تُعجزه الحيلة، فأمر جنوده برمي الجنود المتحصِّنين بالسهام في عيونهم؛ حتى أصابوا نحو ألف عين منهم، ثم عمد إلى الإبل الضعاف والهزيلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فنحرها، وألقى بها في أضيق جانب من الخندق؛ حتى صنع جسرًا استطاع العبور عليه هو وفرسان المسلمين، تحت وابل من السهام أطلقه رماته لحمايتهم من الأعداء المتربصين بهم من فوق أسوار الحصن العالية المنيعة، فلمَّا رأى قائد الفرس ما صنع خالد وجنوده طلب الصلح، وأصبحت الأنبار في قبضة المسلمين.

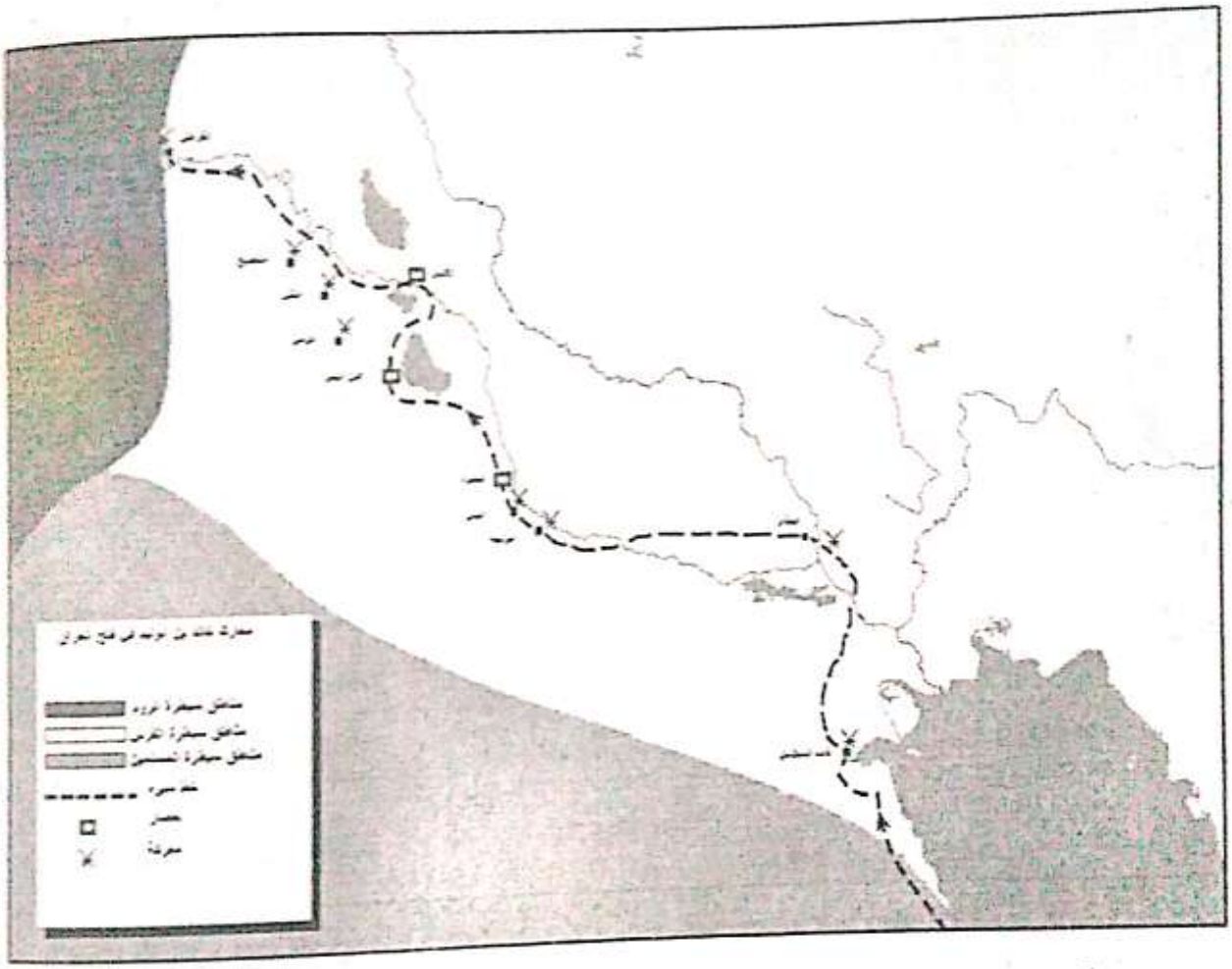

ثم اتَّجه خالد إلى «عين التمر» التي اجتمع بها عدد كبير من الفرس تُؤازرهم بعض قبائل العرب، فلما بلغهم مقدم خالد هربوا، والتجأ مَنْ بقي منهم إلى الحصن، وحاصر خالد الحصن حتى استسلم مَنْ فيه، فاستخلف «عويم بن الكاهل الأسلمي» على عين التمر، وخرج في جيشه إلى دومة الجندل ففتحها.

دوره في فتح بلاد الشام

رأى أبو بكر ﷺ أن يتَّجه بفتوحاته إلى الشام بعد أن ثَبَّت خالد بن الوليد ﷺ أقدامه في العراق، وبعد انتصاراته الكبيرة على الفرس؛ فقد كان خالد قائده الذي يرمي به الأعداء في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي موضع، حتى قال عنه: «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»[١]. ولم يُخَيِّب خالدٌ ظنَّ أبي بكر فيه؛ فقد استطاع أن يصل إلى الشام في وقت قليل لنجدة المسلمين هناك بعد أن سلك طريقًا مختصرًا عبر صحراء السماوة.

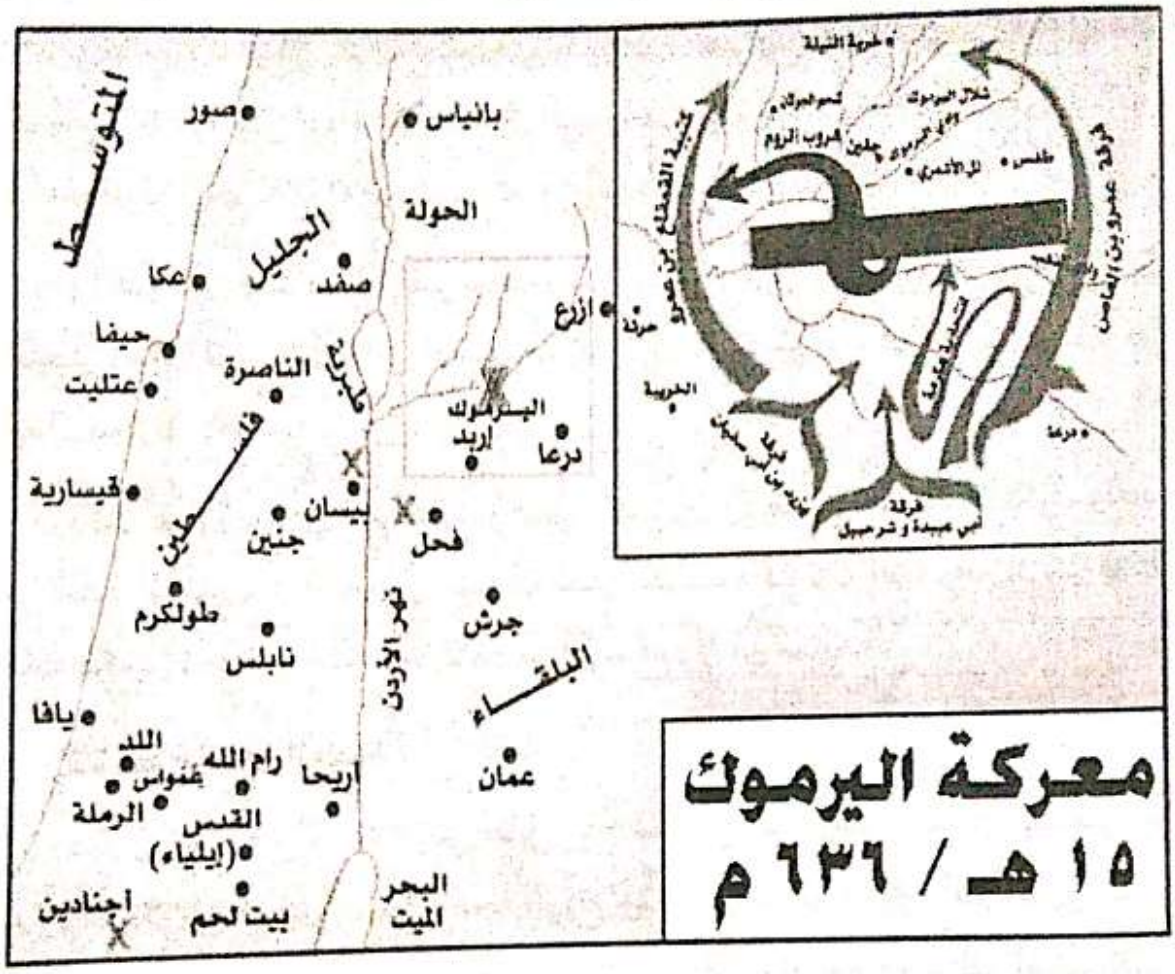

وما إن وصل خالد ﷺ إلى الشام حتى عمد إلى تجميع جيوش المسلمين تحت راية واحدة؛ ليتمكَّنُوا من مواجهة عدوِّهم والتصدِّي له، وقد أعاد خالدٌ تنظيم الجيش؛ فقسَّمه إلى كراديس (كتائب) ليكثروا في عين عدوِّهم فيهابهم، وجعل كلَّ واحد من قادة المسلمين على رأس عدد من الكراديس، فجعل أبا عبيدة في القلب على (١٨) كُرْدُوسًا، ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو، وجعل عمرو بن العاص في الميمنة على ١٠ كراديس ومعه شرحبيل ابن حسنة، وجعل يزيد بن أبي سفيان في الميسرة على ١٠ كراديس.

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتقى المسلمون والروم في وادي اليرموك، وحمل المسلمون على الروم حملة شديدة، أبلَوْا فيها بلاءً حسنًا حتى كُتب لهم النصر في النهاية، وقُبيل المعركة تُوُفِّي أبو بكر ﷺ وتولَّى الخلافة عمر بن الخطاب ﷺ، الذي أرسل كتابًا إلى أبي عبيدة بن الجراح يأمره بإمارة الجيش وعزل خالد؛ لأن الناس فُتنوا بخالد؛ حتى ظنُّوا أن لا نصر بدون قيادته، ولكنَّ أبا عبيدة آثر أن يُخفي الكتاب حتى انتهاء المعركة وتبيّن النصر تحت قيادة خالد، وقد استُشهد من المسلمين في هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف، فيهم كثير من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولم ينتهِ دور خالد ﷺ في الفتوحات الإسلامية بعزل عمر ﷺ له وتولية أبي عبيدة أميرًا للجيش؛ وإنما ظلَّ خالدٌ يُقاتل في صفوف المسلمين فارسًا من فرسان الحرب، وبطلاً من أبطال المعارك الأفذاذ المعدودين.

وكان له دورٌ بارزٌ في فتح دمشق وحمص وقِنَّسْرين، ولم يَفُتْ في عضده أن يكون واحدًا من جنود المسلمين، ولم يُوهن في عزمه أن يصير جنديًا بعد أن كان قائدًا وأميرًا؛ فقد كانت غايته الكبرى الجهاد في سبيل الله، ينشده من أي موقع وفي أي مكان.

قَلَنْسُوَة خالد بن الوليد

كان في قلنسوة خالد ﷺ -التي يُقاتل بها- شعر من شعر رسول الله ﷺ يستنصره به وببركته، فلا يزال منصورًا، ففي حجة الوداع ولمَّا حلق الرسول ﷺ رأسه أعطى خالدًا ناصيته، فكانت في مقدم قلنسوته، فلمَّا سقطت منه قلنسوته يوم اليرموك، أضنى نفسه والناسَ في البحث عنها؛ فلمَّا عُوتب في ذلك قال: «إن فيها بعضًا من شعر ناصية رسول الله وإني أتفاءل بها وأستنصر».

مقولة خالد بن الوليد قبل موته

تُوُفِّي خالد بحمص في ١٨ من رمضان ٢١هـ، الموافق ٢٠ من أغسطس ٦٤٢م، وحينما حضرته الوفاة، انسابت الدموع من عينيه حارَّة حزينة ضارعة، ولم تكن دموعه رهبة من الموت؛ فلطالما واجه الموت بحدِّ سيفه في المعارك، يحمل رُوحه على سنِّ رمحه، وإنما كان حزنه وبكاؤه لشوقه إلى الشهادة؛ فقد عزَّ عليه أن يموت على فراشه، وهو الذي طالما ارتاد ساحات القتال فترتجف منه قلوب أعدائه، وتتزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وقد جاءت كلماته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخيرة تُعَبِّر عن ذلك الحزن والأسى في تأثُّر شديد: «لقد حضرتُ كذا وكذا زحفًا وما في جسدي موضع شبر إلَّا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وهانذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»[1].

telegram: @mbooks90

وحينما يسمع عمر بن الخطاب بوفاته يقول: «دع نساء بني مخزوم يبكين على أبي سليمان، فإنهن لا يكذبن، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي».

* * *

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمرو بن العاص

الاسم الكامل	عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم
اللقب	أبو عبد الله
تاريخ الميلاد	٥١ ق. هـ/ ٥٧٣م
مكان الميلاد	مكة
تاريخ الوفاة	٤٣ هـ/ ٦٦٣ م
مكان الوفاة	مصر
الانتماء	العهد النبوي - الخلافة الراشدة
أعداؤه	البيزنطيون

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم القرشي السهمي، فاتح مصر، وهو من أشهر قادة العرب العسكريين والسياسيين؛ لما كان يتمتَّع به من دهاء وذكاء شديد ين.

ما قبل إسلامه

يكنى عمرو بن العاص ﷺ بأبي عبد الله وأبي محمد. كان يحترف التجارة؛ فقد كان يُسافر بتجارته إلى الشام واليمن ومصر والحبشة، كما كان من فرسان قريش وأبطالهم المعدودين مذكورًا بذلك فيهم، وكان -أيضًا- شاعرًا حسن الشعر، حُفظ عنه الكثير في مشاهد شتَّى، كما كان معدودًا -أيضًا- من دهاة العرب وشجعانهم وذوي آرائهم؛ ولذلك أرسلته قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليرُدَّ عليهم مَنْ هاجر من المسلمين إلى بلاده، ولكن لم يستجب له النجاشي وردَّه خائبًا.

إسلامه

دخل عمرو ﷺ الإسلام سنة ثمان للهجرة بعد فشل قريش الذريع في غزوة الأحزاب وقبل الفتح بنحو ستة أشهر؛ حيث قَدِمَ هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين، فلمَّا دخلوا على رسول الله ﷺ ونظر إليهم، قال: «رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلَاذِ كَبِدِهَا». وكان قد همَّ بالإقبال إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسول الله ﷺ في حين انصرافه من الحبشة ثم لم يعزم له إلى ذلك الوقت، وقال عمرو بن العاص ﷺ: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ. فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، قال ﷺ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قال: قلتُ: أردتُ أنْ أشترطَ. قال: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قلتُ: أنْ يُغْفَرَ لِي. قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»[(١)]. ولَمَّا أسلم كان النبي ﷺ يُقَرِّبه ويُدنيه لمعرفته وشجاعته، وقد بعث إليه رسول الله ﷺ يقول له: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلاَحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي». قال عمرو: فأتيته وهو يتوضَّأ فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأه، فقال: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ المَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً». قال: قلتُ: يا رسول الله؛ ما أسلمتُ من أجل المال، ولكني أسلمتُ رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال: «يَا عَمْرُو؛ نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»[(٢)]. ويقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ عَمْرَو بْنَ العَاصِ مِنْ صَالِحِي قُرَيْشٍ»[(٣)]. وزاد في رواية أحمد: «نِعْمَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَبْدُ اللهِ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ، وَأُمُّ عَبْدِ اللهِ»[(٤)].

وقد أخرج الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ابْنَا الْعَاصِ مُؤْمِنَانِ هِشَامٌ وَعَمْرٌو»[(٥)].

وكان عمرو بن العاص مجاهدًا شجاعًا، يحبُّ الله ورسوله، ويعمل على رفع لواء الإسلام ونشره في مشارق الأرض ومغاربها، وكان رسول الله ﷺ يعرف لعمرو شجاعته وقدرته الحربية؛ فكان يُوَلِّيه قيادة بعض الجيوش والسرايا، وكان يُحبُّه ويُقَرِّبه، وقد وجَّه رسول الله ﷺ سريَّة إلى ذات السلاسل في جُمَادَى الآخرة سنة ثمان من الهجرة، وجعل أميرها عمرو بن العاص ﷺ، وقد جعل النبي ﷺ عمرو بن العاص واليًا على عمان، فظلَّ أميرًا عليها حتى تُوُفِّيَ النبي ﷺ.

فتوحاته

بعد وفاة الرسول ﷺ وفي خلافة أبي بكر ﷺ شارك عمرو بن العاص في حروب الردَّة

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، (١٢١).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٧٧٩٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٢٩٢٦)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم لرواية موسى بن رباح وعلى شرط البخاري لأبي صالح.

(٣) رواه الترمذي في سننه (٣٨٤٥).

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٣٨٢).

(٥) الحاكم في مستدركه (٥٠٥٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه أحمد في مسنده (٨٠٢٩)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأبلى فيها بلاءً حسنًا، ثم قام أبو بكر ﷺ بتوليته أميرًا على أحد الجيوش الأربعة التي اتجهت إلى بلاد الشام لفتحها، فانطلق عمرو بن العاص إلى فلسطين على رأس ثلاثة آلاف مجاهد، ثم وصله مدد آخر فأصبح عداد جيشه سبعة آلاف، وشارك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش الإسلامية، وذلك عقب وصول خالد بن الوليد من العراق بعد أن تغلَّب على جيوش الفرس، وبِنَاءً على اقتراح خالد بن الوليد تم توحيد الجيوش معًا على أن يتولَّى كل قائد قيادة الجيش يومًا من أيام المعركة، وبالفعل تمكَّنت الجيوش المسلمة من هزيمة جيش الروم في معركة اليرموك تحت قيادة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح.. وغيرهم، وتمَّ فتح بلاد الشام. انتقل بعد ذلك عمرو بن العاص ليُكمل مهامَّه في مدن فلسطين؛ ففتح منها: غزَّة، وسَبَسْطِيَة، ونَابُلُس، ويُبْنَى، وعمواس، وبيت جيرين، ويافا، ورفح.

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا ذُكر أمامه حصار بيت المقدس وما أبدى فيه عمرو بن العاص من براعة يقول: «**لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب**»(١).

ثم تولَّى عمرو بن العاص إمارة فلسطين، وكان عُمر ﷺ يحبُّه ويعرف له قدره وذكاءه، فكان يقول عنه: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلاَّ أميرًا»(٢).

فتح مصر

كان عمرو ﷺ يتمنَّى أن يفتح الله على يديه مصر، فظلَّ يُحدِّث عمر بن الخطاب ﷺ عنها حتى أقنعه، فأمَّره الفاروق قائدًا على جيش المسلمين لفتح مصر وتحريرها من أيدي الروم.

وبالفعل قام ابن العاص بإعداد العدد والعتاد من أجل التوجُّه لفتح مصر، فسار على رأس جيش مكَّون من أربعة آلاف مقاتلٍ فقط، ولكن بعد أن قام الخليفة باستشارة كبار الصحابة في الأمر رأوا ألَّا يدخل المسلمون في حرب قاسية، وقام عمر بن الخطاب ﷺ بكتابة رسالة إلى عمرو بن العاص جاء فيها: «إذا بلغتكَ رسالتي قبل دخولك مصر فارجع، وإلَّا فسِرْ على بركة الله». وحين وصل البريد إلى عمرو بن العاص وفطن إلى ما في الرسالة، لم يتسلَّمْهَا حتى بلغ العريش، فتسلَّمها وفضَّها ثم سأل رجاله: «أنحن في مصر الآن أم في

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٦٠٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٢٨، وابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ٦٣.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٦/ ١٥٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلسطين؟» فأجابوا: «نحن في مصر». فقال: «إذن نسير في سبيلنا كما يأمر أمير المؤمنين».

توالت انتصارات عمرو ﷺ فدخل بجيشه إلى مدينة الفرما، والتي شهدت أول اشتباك بين الروم والمسلمين، ثم فتح بِلْبِيس وقهر قائدها الروماني أرطبون، الذي كان قائدًا للقدس وفرَّ منها، وبعد أن وصل المدد لجيش عمرو تابع فتوحاته إلى أم دنين، ثم حاصر حصن بابليون حيث المقوقس حاكم مصر من قِبَل هرقل لمدَّة سبعة أشهر، وبعد أن قَبِلَ المقوقس دفع الجزية غضب منه هرقل واستدعاه إلى القسطنطينية ونفاه، فانتهز المسلمون الفرصة وهاجموا حصون بابليون؛ مما اضطر الروم إلى الموافقة على الصلح ودفع الجزية.

توالت فتوحات عمرو بن العاص بعد ذلك في المدن المصرية الواحدة تلو الأخرى؛ حتى بلغ أسوار الإسكندرية، فحاصرها وبها أكثر من خمسين ألفًا من الروم، وخلال فترة الحصار هذه مات هرقل وجاء أخوه بعده مقتنعًا بأنه لا أمل له في الانتصار على المسلمين، فاستدعى المقوقس من منفاه، وكلَّفه بمفاوضة المسلمين للصلح.

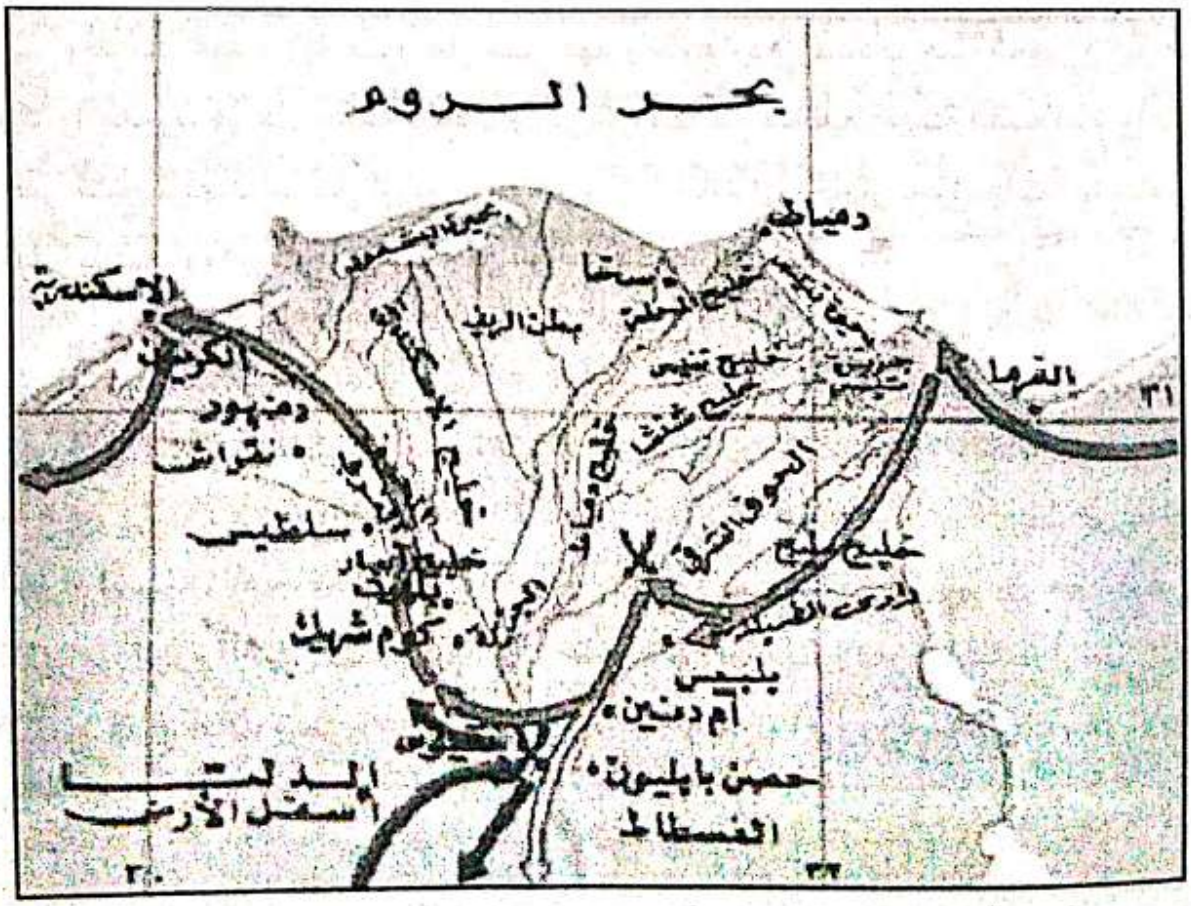

وفي اتفاقية الصلح جاء عدد من البنود؛ منها: أن تُدفع الجزية عن كل رجل ديناران، ما عدا الشيخ العاجز والصغير، وأن يرحل الروم بأموالهم ومتاعهم عن المدينة، وأن يحترم المسلمون حين يدخلونها كنائس المسيحيين فيها، وأن يُرسل الروم مائة وخمسين مقاتلاً وخمسين من أمرائهم رهائن لتنفيذ الشروط. وقام عمرو بن العاص بإرسال رسول إلى الخليفة عمر ﷺ ليُبَلِّغَه بشارة الفتح.

عمرو حاكمًا لمصر

قضى عمرو بن العاص في فتح مصر ثلاث سنوات، وقد استقبله أهلها بالكثير من الفرح والترحيب؛ لما عانوه من قسوة الروم وظلمهم، وقد كانوا خير العون لعمرو بن العاص ضد الروم، وكان عمرو ﷺ يقول لهم: يا أهل مصر؛ لقد أخبرنا نبينا أن الله سيفتح علينا مصر، وأوصانا بأهلها خيرًا؛ حيث قال الرسول الكريم ﷺ: «إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»(١).

وقد كان عهد ولاية عمرو على مصر عهد رخاء وازدهار، فكان يحبُّ شعبها ويُحبُّونه، وكانوا ينعمون في ظلِّ حكمه بالعدل والحرية، وفيها قام بتخطيط مدينة الفسطاط، وأعاد حفر خليج تراجان الموصِّل إلى البحر الأحمر لنقل الغنائم إلى الحجاز بحرًا، وأنشأ بها جامعًا سُمِّيَ باسمه، وما يزال جامع عمرو بن العاص قائمًا إلى الآن بمصر.

اللقاء الثاني بين الروم والمسلمين

كان الأقباط في فترة حكم الروم يُعانون من قسوتهم واضطهادهم، وإجبارهم على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الرومي، فجاءت إحدى المواقف المهمة والتي أكَّدت على مدى احترام المسلمين للديانات الأخرى؛ فقد كان للأقباط رئيس ديني يُدعى بنيامين حين تعرَّض للقهر من الروم فاضطر إلى الفرار منهم، وعندما علم المسلمون بالأمر بعد الفتح أرسلوا إليه ليُبَلِّغُوه أنه في أمان، وعندما عاد أحسنوا استقباله وأكرموه، وولَّوْهُ رئاسة القبط، وهو الأمر الذي نال استحسان وإعجاب الأقباط بالمسلمين، فأحسنوا التعامل معهم.

---

(١) مسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٢٥٤٣)، والحاكم (٤٠٣٢)، واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والطبراني: المعجم الكبير، (١٥٧٨٢).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءت المعركة الثانية بين المسلمين والروم بعد أن علم ملك الروم أن الحامية الإسلامية بالإسكندرية قليلة العدد، فانتهز هذه الفرصة وأرسل ثلاثمائة سفينة محمَّلة بالجنود، وتمكَّن من اختراق الإسكندرية واحتلالها، وعقد العزم على السير إلى الفسطاط، وعندما علم عمرو بن العاص بذلك عاد من الحجاز سريعًا، وجمع الجيش من أجل لقاء الروم ودحرهم، وبالفعل تمكَّن عمرو من قيادة جيشه نحو النصر؛ فكانت الغلبة لجيش المسلمين، ولم يكتفِ ابن العاص بهذا؛ بل سارع بملاحقة الروم الهاربين باتجاه الإسكندرية، وفرض عليها حصارًا وفتحها، وكسر شوكة الروم وأخرجهم منها، كما قام بمساعدة أهل الإسكندرية لاسترداد ما فقدوه نتيجة لظلم الروم والفساد الذي قاموا به أثناء فترة احتلالهم للمدينة.

دوره في فتنة معاوية وعلي

أثناء خلافة عثمان بن عفان ﷺ قام بعزل عمرو ﷺ عن ولاية مصر، وولَّى عليها عبد الله بن سعد العامري، عاد بعدها عمرو إلى المدينة المنورة، وبعد أن قُتل عثمان بن عفان، سار عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان وشهد معه معركة صفين، ولما اشتدَّت الحرب على معاوية أشار عليه عمرو بن العاص بما عُرف عنه من دهاء بطلب التحكيم؛ ورُفعت المصاحف طلبًا للهدنة، ولما رَضِيَ علي بن أبي طالب بالتحكيم، وُكِّل عمرو بن العاص حكمًا عن معاوية بن أبي سفيان، كما وُكِّل أبو موسى الأشعري حكمًا عن علي بن أبي طالب. اتفق الحكمان أن يجتمع مَنْ بقي حيًّا من العشرة المبشرين بالجنة ويُقَرِّرُوا مصير قتلة عثمان، ولم يكن قد بقي منهم إلَّا سعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب وسعيد بن زيد، وهذا القرار لم يُنَفِّذْه علي. ثم إن معاوية أرسله على جيش إلى مصر فأخذها من محمد بن أبي بكر، ثم ولَّاه معاوية على مصر حتى وفاته.

وفاته

توفي عمرو ﷺ سنة (٤٣هـ= ٦٦٣م)، وقد تجاوز عمره ٩٠ عامًا، وقد روى عن النبي ﷺ ٣٩ حديثًا. وحين حضرته الوفاة، ومَرِضَ مرض الموت، دخل عليه ابنه عبد الله ﷺ، فوجده يبكي، فقال له: يا أبتاه! أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ فأقبل بوجهه فقال: إني كنتُ على أطباق ثلاث (أحوال ثلاث)، لقد رَأَيْتُنِي وما أحدٌ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشدَّ بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أَحَبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتُه، فلو متُّ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار، فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبي ﷺ فقلتُ: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، فقال: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قال: قلتُ: أردتُ أن أشترط. قال: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قلتُ: أن يُغفر لي. قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟».

وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطقتُ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو متُّ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة، ثم وَلِينَا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا متُّ، فلا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ، فإذا دفنتموني فَشُنُّوا (صبُّوا) عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور (الوقت الذي تُذبح فيه ناقة)، وَيُقْسَمُ لحمها؛ حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أُرَاجِعُ (أُجاوب) بِهِ رُسُلَ رَبِّي[1].

* * *

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، (١٢١).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سعد بن أبي وقاص

الاسم الكامل	سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة
تاريخ الميلاد	سنة ٢٣ قبل الهجرة / ٥٩٩م
مكان الميلاد	مكة
تاريخ الوفاة	٥٥هـ / ٦٧٥م
مكان الوفاة	المدينة
الانتماء	العهد النبوي -الخلافة الراشدة
أعداؤه	الكفار- الفرس

سعد بن أبي وقاص ﷺ من أوائل مَنْ دخلوا في الإسلام، وكان عمره عندئذٍ سبعة عشر عامًا، ولم يسبقه في الإسلام إلَّا أبو بكر وعلي وزيد، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

نشأته

وُلِدَ في مكة سنة ٢٣ قبل الهجرة، نشأ سعدٌ في قريش من سادة العرب وأعزِّهم، واشتغل في بري السهام وصناعة القسيِّ، وهذا عمل يُؤَهِّل صاحبه للائتلاف مع الرمي، وحياة الصيد والغزو، وكان يمضي وقته وهو يُخالط شباب قريش وسادتهم، ويتعرَّف على الدنيا من خلال معرفته على الحجيج الوافد إلى مكة المكرمة في أيام الحجِّ ومواسمها المتباينة الأهداف والمتنوعة الغايات.

نسبه الشريف

أبوه ابن سيد بني زهرة: مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ومالك هذا هو ابن عم آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، وخال حمزة وصفية ابني عبد المطلب.

أُمُّه: حمنة بنت سفيان بن أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة عامر بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

فهو من بني زهرة أهل آمنة بنت وهب أُمِّ الرسول ﷺ؛ فقد كان الرسول يعتزُّ بهذه الخُئُولة، فقد ورد أنه كان جالسًا مع نفر من أصحابه فرأى سعد بن أبي وقاص مقبلاً، فقال لمن معه: «هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ»(١).

إسلامه

دخل سعد بن أبي وقاص ﷺ الإسلام وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان إسلامه مبكِّرًا، ويتحدث عن نفسه فيقول: «.. وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلاَمِ»(٢). يعني أنه كان ثالث أوَّل ثلاثة سارعوا إلى الإسلام، وقد أعلن إسلامَه مع الذين أعلنوه بإقناع أبي بكر الصديق إيَّاهم؛ وهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله.

محاولات ردِّه عن الإسلام

أخفقت جميع محاولات ردِّه وصدِّه عن الإسلام؛ فلجأت أُمُّه إلى وسيلة لم يكن أحدٌ يشُكُّ في أنها ستَهزم رُوح سعدٍ وتردُّ عزمه إلى وثنية أهله وذويه، لقد أعلنت أُمُّه صومها عن الطعام والشراب؛ حتى يعود سعدٌ إلى دين آبائه وقومه، ومضت في تصميم مستميت تواصل إضرابها عن الطعام والشراب حتى قاربت على الهلاك. وحين كانت تُشرف على الموت، أخذه بعض أهله إليها ليُلقي عليها نظرة وداعٍ؛ آملين أن يرقَّ قلبه حين يراها في سكرة الموت. وذهب سعد ورأى مشهد أُمِّه وهي تتعذَّب، ولكن إيمانه بالله ورسوله كان قد تفوَّق على كل شيء، وقال لها: «تعلمين والله يا أُمَّة لو كانت لكِ مائة نفس، فخرجت نفسًا نفسًا ما تركتُ ديني هذا لشيء، فكُلِي إن شئت أو لا تأكلي». وعدلت أُمُّه عن صومها، ونزل الوحي يُحَيِّي موقف سعد، ويُؤَيِّده فيقول: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

---

(١) الترمذي في سننه (٣٧٥٢)، وقال: هذا حيث حسن. والحاكم (٦١١٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري وبنو زهرة أخوال، (٣٥٢١).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكانته عند رسول الله ﷺ

عن سعيد بن المُسَيِّبِ، عن سَعدٍ ﷺ، قال: قُلْتُ: يا رسول الله! مَنْ أنا؟ قال: «سَعْدُ بْنُ مَالِكِ بْنِ وُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ، مَنْ قَالَ غَيْرَ هَذَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ»[1].

وعن عائشة ﷺ، قالت: أَرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ». قالت: فسمعنا صَوْتَ السِّلاح، فقال رسول الله: «مَنْ هَذَا؟». قال سعد بن أبي وقاص: أنا يا رسول الله! جئتُ أحرسك. فنام رسول الله ﷺ حتى سمعتُ غَطِيطَهُ[2].

وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ: اشتكيتُ بمكة، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ يعودني، فمسح وجهي وصدري وبطني، وقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا».

فما زِلتُ يُخَيَّلُ إليَّ أنِّي أجدُ برد يده ﷺ على كبدي حتى الساعة[3].

الدعوة المجابة

كان سعد بن أبي وقاص ﷺ إذا رمى عدوًّا أصابه، وإذا دعا اللهَ دعاءً أجابه، وكان الصحابة يردُّون ذلك إلى دعوة الرسول ﷺ له: «اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ، وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ»[4]. ويُرْوَى أنه رأى رجلاً يسبُّ طلحة وعليًّا والزبير فنهاه فلم ينتهِ، فقال له: «إذن أدعو عليك». فقال الرجل: «أراك تهدِّدني كأنك نبي!». فانصرف سعدٌ وتوضَّأ وصلَّى ركعتين، ثم رفع يديه قائلاً: «اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الرجل قد سبَّ أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبُّه إيَّاهم، فاجعله آية وعبرة». فلم يمضِ غير وقت قصير حتى خرجت من إحدى الدُّور ناقة نادَّة (شاردة) لا يردُّها شيء، حتى دخلت في زحام الناس، ثم اقتحمت الرجل فأخذته بين قوائمها، وما زالت تتخبَّطه حتى مات.

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى، (١٢٨٦٩).

(٢) البخاري: كتاب التمني، باب قوله ﷺ: ليت كذا وكذا، (٦٨٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، (٢٤١٠).

(٣) البخاري: كتاب المرضى، باب وضع اليد على المريض، (٥٣٣٥)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، (١٦٢٨).

(٤) رواه الحاكم في مستدركه (٤٣١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جهاده

يُعتبر سعد ﷺ أول مَنْ رمى بسهم في سبيل الله، وأنه الوحيد الذي افتداه الرسول ﷺ بأبويه؛ فقال له يومَ أُحُد: «ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي». ويقول علي بن أبي طالب: ما سمعتُ رسول الله ﷺ يفدي أحدًا بأبويه إلا سعدًا، فإني سمعته يوم أحد يقول: «ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»[1]. وقد كان سعد يُعَدُّ من أشجع فرسان العرب والمسلمين، وكان له سلاحان: رمحه ودعاؤه، وكان مجاهدًا في معركة بدرٍ، وشارك في أُحُد، وتفرَّق الناس أول الأمر عن رسول الله ﷺ ووقف سعد يُجاهد ويقاتل، فلمَّا رآه الرسول ﷺ يرمي جعل يُحَرِّضه ويقول له: «يا سَعْدُ؛ ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي». وظلَّ سعدٌ يفتخر بهذه الكلمة طوال حياته.

فتوحاته

قاد سعدٌ المسلمين في معركة القادسية حيث خرج في ثلاثين ألف مقاتل، وكان عدد الفرس أكثر من مائة ألف من المقاتلين المدرَّبين المدجَّجين بأنواعٍ متطوِّرة من عتاد وسلاح، وكان يتولَّى قيادة الفرس رستم، وقبل المعركة كانت هناك رسائل بين سعدٍ وأمير المؤمنين الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب؛ منها: «يا سعد بن وهيب.. لا يغرَّنَّك من الله أن قيل: خال رسول الله وصاحبه. فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلَّا بطاعته.. والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء.. الله ربهم، وهم عباده.. يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيتَ رسول الله ﷺ منذ بُعِثَ إلى أن فارَقَنَا عليه فالزمه؛ فإنه الأمر». ثم يقول له: «اكتب إليَّ بجميع أحوالكم، وكيف تنزلون، وأين يكون عدوُّكم منكم.. واجعلني بكتبك إليَّ كأني أنظر إليكم!».

ويكتب سعد إلى أمير المؤمنين فيصف له كل شيء؛ حتى إنه ليكاد يُحَدِّد له موقف كل جندي ومكانه، وقد أوصى عمر سعدًا بدعوتهم إلى الإسلام، ويُنَفِّذ سعد وصية عمر، فيُرسل إلى رستم قائد الفرس نفرًا من أصحابه يدعونه إلى الله وإلى الإسلام.

وكان المرض قد اشتدَّ على سعد، وملأت الدمامل جسده؛ حتى ما كان يستطيع أن يجلس، مفضلاً أن يعلو صهوة جواده ويخوض عليه معركة، عندئذٍ وقف في جيشه خطيبًا،

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٣٧٥٥)، وقال: هذا حديث صحيح. وابن ماجه في سننه (١٢٩)، وأحمد في مسنده (١٠١٧).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستهلاً خطابه بالآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وبعد فراغه من خطبته، صلَّى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل جنوده مكبِّرًا أربعًا: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. واستطاع جيش سعد هزيمة الفرس وقائدها رستم، ووصل الجيش إلى المدائن.

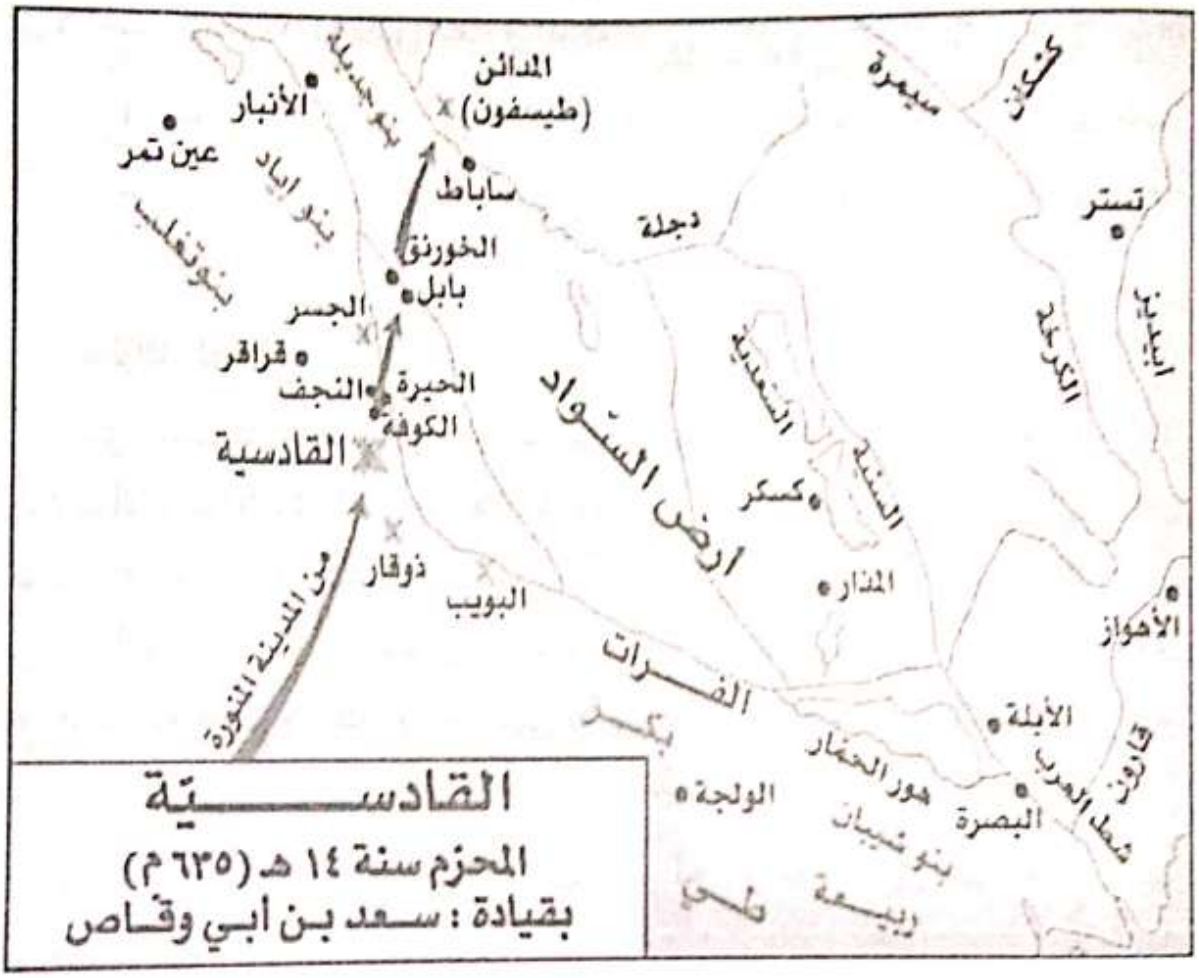

وكانت موقعة المدائن بعد موقعة القادسية بقرابة عامين؛ حيث جرت خلالها مناوشات مستمرَّة بين الفرس والمسلمين، وقد استطاع سعد هزيمة الفرس؛ وذلك بقيادة الجيش وعبور نهر دجلة، وقد جهَّز كتيبتين؛ الأولى: واسمها كتيبة الأهوال، وأمَّر سعدٌ عليها عاصم بن عمرو التميمي، والثانية: اسمها الكتيبة الخرساء، وأمَّر عليها القعقاع بن عمرو التميمي، وقد نجحا في العبور وهزيمة الفرس.

إمارة العراق

ولَّاه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إمارة العراق، فراح سعد ﷺ يبني ويُعمِّر في الكوفة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذات يوم اشتكاه أهل الكوفة لأمير المؤمنين؛ فقالوا: «إن سعدًا لا يُحسن الصلاة». واستدعاه عمر ﷺ إلى المدينة فلَبى مسرعًا، ويضحك سعدًا حين علم بشكوى أهل الكوفة قائلاً: «والله إني لأُصَلِّي بهم صلاة رسول الله، أُطيل في الركعتين الأوليين وأقصر في الآخرين». وحين أراد عمر بن الخطاب أن يُعيده إلى الكوفة ضحك سعدٌ قائلاً: «أتأمرني أن أعود إلى قوم يزعمون أنِّي لا أُحسن الصلاة؟!» وفضَّل البقاء في المدينة.

وعندما حضرت عمرَ ﷺ الوفاةُ بعد أن طعنه المجوسي جعل الأمر من بعده إلى الستة الذين مات النبي وهو عنهم راضٍ؛ وأحدهم سعد بن أبي وقاص، وقال عمر: إن وليها سعد فذاك، وإن وليها غيره فليستعن بسعد.

اعتزاله الفتنة

اعتزل سعد ﷺ الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأمر أهله وأولاده ألَّا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها، وقد ذهب إليه ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يقول له: «يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يروك أحقَّ الناس بهذا الأمر». فيُجيبه سعدٌ ﷺ: «أُريد من مائة ألف سيف سيفًا واحدًا؛ إذا ضربتُ به المؤمن لم يصنع شيئًا، وإذا ضربتُ به الكافر قطع». فيتركه هاشم وعزلته، وحين انتهى الأمر لمعاوية بعد الاتفاق الشائك الذي تمَّ بعد معركة صفين، واستقرَّت بيده مقاليد الحكم سأل سعدًا: «ما لكَ لَمْ تُقاتِل معنا؟»

فأجابه: «إني مررت بريح مظلمة، فقلتُ: أخ.. أخ.. واتَّخذت من راحلتي حتى انجلت عني».

فقال معاوية: «ليس في كتاب الله أخ.. أخ.. ولكن قال الله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]. وأنت لم تكن مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية».

فأجابه سعد ﷺ قائلاً: ما كنتُ لأقاتل رجلاً قال له رسول الله ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[1].

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، (٤١٥٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، (٢٤٠٤)، واللفظ له.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفاته

كان عمر سعد بن أبي وقاص طويلًا، وأفاء الله عليه من المال الكثير؛ لكنه حين أدركته الوفاة دعا بجبة من صوف بالية، وقال: «كفنوني بها؛ فإني لقيت بها المشركين يوم بدر، وإني أريد أن ألقى بها الله ﷻ أيضًا». وكان رأسه بحِجْر ابنه الباكي، فقال له: «ما يُبكيك يا بني؟! إن الله لا يُعَذِّبني أبدًا، وإني من أهل الجنة».

لقد كان إيمانه بصدق بشارة رسول الله ﷺ كبيرًا، كانت وفاته سنة خمس وخمسين من الهجرة النبوية، وكان آخر المهاجرين وفاة، ودُفِن في البقيع.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عقبة بن نافع

الاسم الكامل	عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي
اللقب	مرنك إفريقية
تاريخ الميلاد	١ ق. هـ/ ٦٢٢ م
مكان الميلاد	مكة
تاريخ الوفاة	٦٣ هـ/ ٦٨٣ م
مكان الوفاة	سيدي عقبة - الجزائر
الانتماء	الخلافة الأموية
أعداؤه	البيزنطيون- البربر

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس من القادة العرب والفاتحين لبلاد الله في صدر الإسلام، واشتهر تاريخيًا باسم «مرنك إفريقية»، وهو الاسم العربي لشمال قارة إفريقيا.

نشأته

وُلِدَ في حياة الرسول ﷺ بعام واحد قبل الهجرة، أُمُّه من قبيلة المعز من بني ربيعة؛ أي أنها من العدنانيين؛ ولذلك وُلِدَ عقبة ونشأ في بيئة إسلامية، وهو صحابي بالمولد؛ لأنه وُلِدَ على عهد النبي ﷺ، وهو يمُتُّ بصلة قرابة لعمرو بن العاص من ناحية الأُمِّ، وقيل: إنهما ابني خالة. وقد نشأ عقبة تحت شمس الصحراء المحرقة، وفي جوها اللافح الذي يشبُّ فيها الرجال أقوياء. وأبوه نافع بن عبد القيس الفهري، أحد أشراف مكة وأبطالها المعدودين، وكان اسم عقبة يُطلق على عدد قليل من الفرسان الشجعان.

نبوغه

برز اسم عقبة مبكِّرًا في ساحة أحداث حركة الفتح الإسلامي، التي بدأت تتَّسع بقوَّة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ؛ حيث اشترك هو وأبوه نافع في الجيش الذي توجَّه لفتح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مصر بقيادة عمرو بن العاص، الذي توسَّم فيه خيرًا وشأنًا في حركة الفتح، فأرسله إلى بلاد النوبة لفتحها، فلاقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنَّه مهَّد السبيل أمام مَنْ جاء بعده لفتح البلاد، فأسند إليه مهمَّة قيادةِ دوريةٍ استطلاعيةٍ لدراسة إمكانية فتح الشمال الإفريقي، وتأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر، ثم شارك معه في المعارك التي دارت في إفريقية (تونس حاليًا)، فولَّاه عمرو ﷺ برقة بعد فتحها، وعاد إلى مصر.

تعاقب عدَّة ولاة على مصر بعد عمرو بن العاص؛ منهم: عبد الله بن أبي السرح، ومحمد بن أبي بكر، ومعاوية بن حُدَيْج.. وغيرهم، أقرَّ جميعُهم عقبةَ بن نافع في منصبه كقائد لحامية برقة.

فتوحاته

ظلَّ عقبة بن نافع في منصبه كقائد لحامية برقة خلال عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ، ونأى عن أحداث الفتنة التي وقعت بين المسلمين، وصبَّ اهتمامه على الجهاد في سبيل الله، ونَشْرِ الإسلام بين قبائل البربر، ورَدِّ غزوات الروم، فلمَّا استقرَّت الأمور عام (٤١ هـ= ٦٦١م) وأصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين، وأصبح معاوية بن حُدَيْج واليًا على مصر، أرسل عقبة إلى الشمال الإفريقي في حملة جديدة لمواصلة الفتح الإسلامي، الذي توقَّفت حركته أثناء الفتنة.

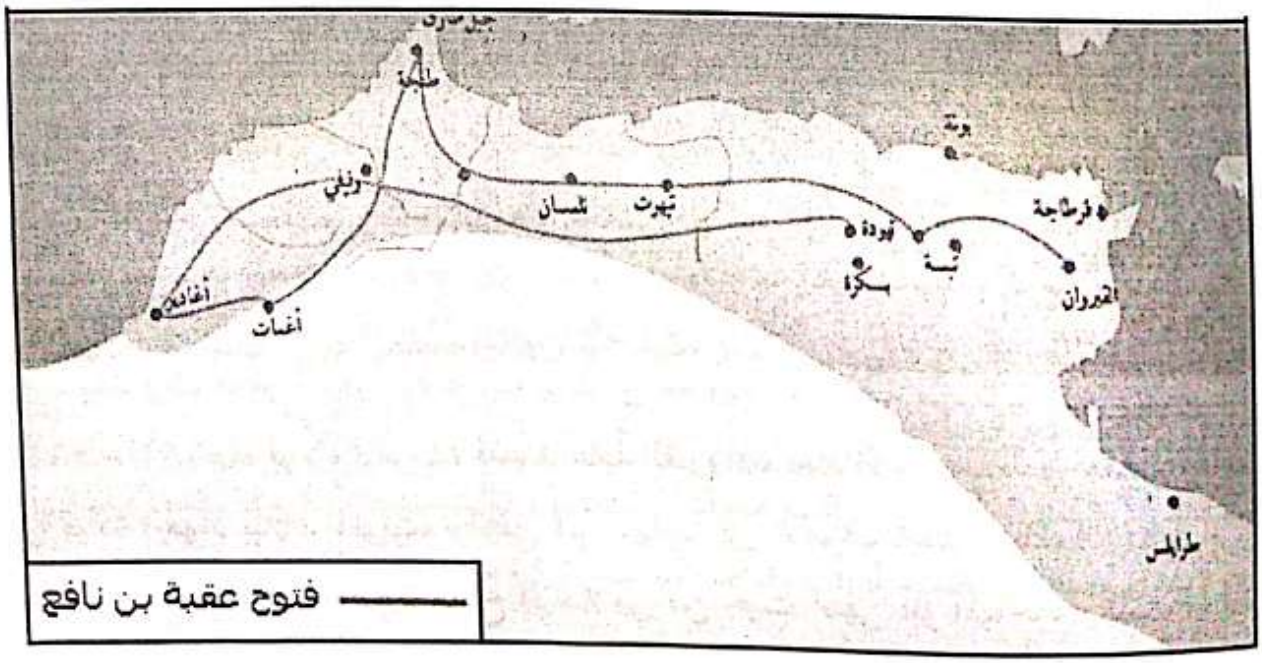

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هناك عدَّة بلاد قد خلعت طاعة المسلمين بعد اشتعال الفتنة بين المسلمين؛ منها ودَّان وإفريقية وجرمة وقصور خاوار، فحارب عقبة تلك القرى وأبادهم أشدَّ إبادة، بعد ذلك خلف معاويةُ عقبةَ على إفريقية، وبعث إليه عشرة آلاف فارس، فأوغل بهم في بلاد المغرب، حيث تغلغل في الصحراء بقوَّات قليلة وخفيفة؛ لشنِّ حرب عصابات خاطفة في أرض الصحراء الواسعة ضدَّ القوات الرومية النظامية الكبيرة، التي لا تستطيع مجاراة المسلمين في الحرب الصحراوية، واستطاع عقبة وجنوده أن يُطَهِّروا منطقة الشمال الإفريقي من الحاميات الرومية المختلفة والقبائل البربرية المتينة. حتَّى أتى واديًا فأُعجب بموقعه، وبنى به مدينته المشهورة وسمَّاها القيروان؛ أي محطّ الجند؛ ذلك أنها تُعتبر قاعدة الجيش الإسلامي المتقدِّمة في المغرب الكبير. كما بنى بها جامعًا لا يزال حتى الآن يُعرف باسم جامع عقبة، وفي سنة (٥٥هـ= ٦٧٥م) عزله معاوية وولَّى بدلاً منه أبا المهاجر بن دينار، وهو رجل مشهور بالكفاءة وحُسن القيادة، فما كان ردُّ فعل القائد المظفَّر -الذي فتح معظم الشمال الإفريقي، وحقَّق بطولات فائقة- عندما جاءه خبر العزل إلَّا أن امتثل فورًا للأمر، وانتظم في سلك الجندية.

استطاع أبو المهاجر -القائد الجديد- أن يُحقِّق عدَّة مكاسب استراتيجية في الشمال الإفريقي على حساب التواجد الرومي بهذه المناطق، واستطاع -أيضًا- أن يستميل زعيم قبائل البربر كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة شديد التأثير على قومه، قوي الشخصية، محبوبًا في قومه، مطاعًا منهم، وكان نصرانيًّا متمسِّكًا بدينه، وكان نجاح أبي المهاجر في إقناعه بالإسلام مكسبًا كبيرًا للإسلام والمسلمين، ولكنَّ القائد المحنك عقبة صاحبَ النظرة الثاقبة الخبيرة بطبائع البربر، لم يطمئن لإسلام كسيلة؛ خاصة وأنه قد أسلم بعد وقوعه في أسر المسلمين، وبعدما ذاق حرَّ سيوفهم، وقد صدق هذا الحدس فيما بعدُ كما سيأتي.

عودة الأسد

بعد وفاة معاوية وفي خلافة ابنه يزيد بن معاوية أعاد عقبةَ مرَّة ثانية إلى الولاية سنة (٦٢هـ= ٦٨٢م)، فولَّاه المغرب، فقصد عقبةُ القيروانَ، فعاد الأسد الضاري عقبة بن نافع إلى قيادة الجهاد ببلاد المغرب، وانتقل أبو المهاجر إلى صفوف الجنود مجاهدًا مخلصًا. قرَّر عقبة بن نافع استئناف مسيرة الفتح الإسلامي من حيث انتهى أبو المهاجر، وكانت مدينة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طَنْجَة هي آخر محطات الفتح أيام أبي المهاجر، وهنا أشار أبو المهاجر على عقبة ألَّا يدخل مدينة طَنْجَة؛ لأن كسيلة زعيم البربر قد أسلم، ولكنَّ عقبة كان يشكُّ في نوايا وصحَّة إسلام كسيلة؛ فقرَّر الانطلاق لمواصلة الجهاد مرورًا بطنجة وما حولها؛ خاصة وأن للروم حاميات كثيرة في المغرب الأوسط.

الإعصار المدمر

انطلق عقبة وجنوده من مدينة القيروان لا يقف لهم أحد، ولا يدفعهم أي جيش؛ فالجميع يفرُّون من أمامهم، وكلَّما اجتمع العدوُّ في مكان، انقضَّ عقبة ورجاله عليهم كالصاعقة المحرقة؛ ففتح مدينة باغاية، ثم نزل على مدينة تِلِمْسَان، وهي من أكبر المدن في المغرب الأوسط، وبها جيش ضخم من الروم وكفار البربر، وهناك دارت معركة شديدة؛ استبسل فيها الروم والبربر في القتال، وكان يومًا عصيبًا على المسلمين، حتى أنزل الله ﷻ نصره على المؤمنين، واضطر الأعداء للتراجع إلى منطقة الزاب.

سأل عقبة عن أعظم مدينة في الزاب فقيل له: أربة. وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية عامرة، ففتحها عقبة، والروم يفرُّون من أمامه كالفئران المذعورة، ورحل عقبة بعدها إلى مدينة تاهرت؛ فأرسلت الحامية الرومية استغاثة إلى قبائل البربر الوثنية، فانضمُّوا إليهم، فقام عقبة في جيشه خطيبًا بارعًا بعبارات فائقة تُلَخِّص رسالة المجاهد في سبيل الله؛ فقال: «أيها الناس إن أشرفكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال مَنْ كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرفكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من ربِّ العالمين بجنَّته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم ربَّ العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلَّا طلبًا لرضاه، وإعزازًا لدينه، فأبشروا فكُلَّما كثر العدوُّ كان أخزى لهم وأذلَّ إن شاء الله تعالى، وربُّكم لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله ﷻ قد جعل بأسه على القوم المجرمين». وبهذه الكلمات الموجزة استثار عقبة حميَّة رجاله، وأعطى درسًا بليغًا للأجيال من بعده عن حقيقة دعوة المجاهد.

التقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديدًا، وكانت نتيجته معروفة بعدما وصلت معنويات المسلمين إلى قمم الجبال، وانتصر المسلمون كما هي عادتهم، وسار عقبة حتى نزل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على طنجة فلقيه أحد قادة الروم واسمه جوليان فخضع لعقبة ودفع له الجزية، فسأله عقبة عن مسألة فتح الأندلس، فقال له جوليان: أتترك كفار البربر خلفك وترمى بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج؟ فقال عقبة: «وأين كفار البربر؟» فقال: «في بلاد السوس، وهم أهل نجدة وبأس». فقال عقبة: «وما دينهم؟». قال: «ليس لهم دين فهم على المجوسية».

فتوجَّه إليهم عقبة كالإعصار الكاسح الذي يُدَمِّر كل شيء بإذن الله، واخترق هذه البلاد كلها هازمًا لكل قبائل البربر، حتى وصل بخيله إلى المحيط الأطلنطي فاخترق عقبة بفرسه ماء المحيط، ثم قال بقلب المؤمن الصادق الغيور، الذي بذل واستفرغ كل جهده وحياته لخدمة الإسلام: «يا رب لولا هذا البحر لمضيتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك، اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل مَنْ كفر بك حتى لا يُعبد أحد دونك»[1].

وبهذه النفوس الصادقة والقلوب المؤمنة والعزائم الفائقة انتشر الإسلام في ربوع الأرض.

استشهاد البطل

حقَّق عقبة غايته من حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي؛ فلقد أخضع قبائل البربر، وأوقع بها بأسًا شديدًا، حتى وصل إلى أقصى بلاد المغرب، واقتحم المحيط بفرسه، وبعدها قرَّر عقبة العودة إلى القيروان، فلمَّا وصل إلى طنجة أَذِنَ لِمَنْ معه من الصحابة أن يتفرَّقُوا ويقدموا القيروان أفواجًا؛ ثقة منه بما نال من عدوِّه، ومال عقبة مع ثلاثمائة من أصحابه إلى مدينة «تهوذة»، فلما رآه الروم في قلَّة من أصحابه طمعوا فيه، وأغلقوا باب الصحن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام، وعندها أظهر كسيلة مكنون صدره، الذي كان منطويًا على الكفر والغدر والحسد، واستغلَّ قلَّة جند عقبة واتفق مع الروم على الغدر بعقبة، وأرسل إلى إخوانه البربر الوثنيين وجمع جموعًا كثيرة للهجوم على عقبة ومَنْ معه، وقد أُطلق على تلك الموقعة اسم معركة ممس.

كان أبو المهاجر في ركب عقبة، ولكنَّ عقبة قد غضب منه فقيَّده، فلما رأى أبو المهاجر هجوم كسيلة ومَنْ معه، أنشد أبيات أبي محجن الثقفي المشهورة:

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣/ ٢٠٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كَفَى حَزَنًا أَنْ ترتدي الخَيْلُ بِالْقَنَا وَأُتْرَكُ مَشْـــدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيَا

إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وَأُغْلِقَتْ مَصَارِعُ مِنْ دُونِي تُصِمُّ المُنَادِيَا

ففكَّ عقبة وثاقه، وقال له: «الحق بالقيروان، وقُمْ بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة». فقال أبو المهاجر: «وأنا -أيضًا- أُريد الشهادة». وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، واقتتلوا مع البربر حتى استُشهد عقبة وكلُّ مَنْ معه في أرض الزاب بتهوذة، وذلك سنة (٦٣ هـ= ٦٨٣م).

كان عقبة بن نافع ﷺ مثالاً في العبادة والأخلاق والورع والشجاعة والحزم، والعقلية العسكرية الاستراتيجية الفذَّة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان وتقوى وتوكُّل تامٍّ على الله ﷻ فأحبَّه رجالُه وأحبَّه أمراء المؤمنين، وكان مستجاب الدعوة، مظفَّر الراية، فلم يُهزم في معركة قط، طبَّق في حروبه أحدث الأساليب العسكرية والجديدة في تكتيكات القتال؛ مثل مبدأ المباغتة، وتحشيد القوَّات، وإقامة الحاميات، وتأمين خطوط المواصلات، واستخدام سلاح الاستطلاع.

ونستطيع أن نقول بمنتهى الحيادية: إن البطل عقبة بن نافع قد حقَّق أعمالاً عسكرية باهرة، بلغت حدَّ الروعة والكمال، وأنجز في وقت قليل ما لا يُصَدِّقه عقلٌ عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة، وترك باستشهاده أثرًا كبيرًا في نفوس البربر، وأصبح من يومها يُلَقَّب بـ «سيدي عقبة».

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قتيبة بن مسلم

الاسم الكامل	قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو حفص الباهلي
اللقب	والي خراسان
تاريخ الميلاد	٤٩ هـ/ ٦٦٩ م
مكان الميلاد	العراق
تاريخ الوفاة	٩٦ هـ/ ٧١٥ م
مكان الوفاة	خراسان
الانتماء	الخلافة الأموية
أعداؤه	قبائل الترك

هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن الأمير أبو حفص الباهلي، قائد إسلامي شهير من كبار القادة الذين سجلهم التاريخ؛ فعلى يديه فُتحت هذه البلاد التي تُسَمَّى اليوم بالجمهوريات الإسلامية، التي انفصلت عما كان يُسَمَّى بالاتحاد السوفيتي، وتوغَّل حتى حدود الصين، وتدين كثير من هذه البلاد بدين الإسلام، قُتل سنة ٩٦ هـ، وعمره ٤٨ سنة.

نشأته

أبوه مسلم بن عمرو من أصحاب مصعب بن الزبير والي العراق من قِبَل أخيه أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، وقاتل معه في حربه ضد عبد الملك بن مروان سنة (٧٢هـ= ٦٩٢م)، وُلِدَ قتيبة بن مسلم في بيت إمارة وقيادة سنة (٤٩هـ= ٦٦٩م) بأرض العراق، ولمَّا ترعرع تعلَّم العلم والفقه والقرآن، ثم تعلَّم الفروسية وفنون الحرب وقد نشأ قتيبة على ظهور الخيل رفيقًا للسيف والرمح، محبًّا للفروسية، وكانت منطقة العراق مشهورة بكثرة الفتن والثورات؛ لذلك عمل كلُّ ولاة العراق على شغل أهلها بالغزوات لاستغلال طاقاتهم الثورية في خدمة الإسلام ونشر الدعوة؛ لذلك كانت أرض العراق هي قاعدة الانطلاق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للحملات الحربية على الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية، وقد اشترك قتيبة في هذه الحملات منذ شبابه المبكِّر، وأبدى شجاعة فائقة وموهبة قيادية فذَّة، لفتت إليه الأنظار خاصة من القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة، وكان المهلب خبيرًا في معرفة الأبطال ومعادن الرجال؛ فتفرَّس فيه أنه سيكون من أعظم أبطال الإسلام، فأوصى به لوالي العراق الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان يحبُّ الأبطال والشجعان، فانتدبه لبعض المهامِّ ليختبره بها ويعلم مدى صحَّة ترشيح المهلب له. ثم ولَّاه عبدُ الملك بن مروان مدينة الرَّيِّ، وولَّاه -أيضًا- خراسان، وقد كانت حينها من أعمال العراق يوم ذاك، وهي تحت إمرة الحجاج، فلم يعبأ بشيء سوى الجهاد، فلمَّا وصل خراسان سنة (٨٦هـ= ٧٠٥م) علا بهمَّته إلى حرب بلاد ما وراء النهر، وأقام بخراسان ثلاث عشرة سنة.

وعندما قام المسلمون الأوائل بحركة الفتح الإسلامي في الشرق، كان هناك نوعان من الأجناس البشرية تسكن هذه المنطقة؛ القبائل الساسانية أو الفارسية والقبائل التركية، وكان نهر المرغاب هو الحدّ الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء، وقد تمَّ إدخال القبائل الفارسية في الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، أمَّا القبائل التركية فقد كانت أكبر عددًا وأوسع انتشارًا؛ منهم: الأتراك الغزية، والأتراك القراخطاي، والأتراك القوقازيون، والأتراك الإيجور، والأتراك البلغار، والأتراك المغول. وقد كان لفتح قتيبة أثرٌ كبير في إدخال الأتراك شرقي نهر المرغاب وبلاد ما وراء النهر في الإسلام.

فتوحاته

بدأ قتيبة بن مسلم فتوحاته سنة (٨٦هـ= ٧٠٥م)، وذلك عندما ولَّاه الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية خراسان؛ وهو إقليم شاسع مترامي الأطراف، لم يكن المسلمون قد واصلوا الفتح بعده، وكان المهلب بن أبي صفرة واليًا على خراسان من عام ٧٨هـ حتى عام ٨٦هـ، وقد رأى الحجاج أن يدفع بدماء شابة جديدة في قيادة المجاهدين هناك، فلم يجد أفضل من قتيبة بن مسلم لهذه المهمَّة.

سار قتيبة بن مسلم على الخطَّة نفسها التي سار عليها آل المهلب، وهي خطة الضربات السريعة القوية المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقتًا للتجمُّع أو التخطيط لردِّ الهجوم على المسلمين، ولكنَّه امتاز عن آل المهلب بأنه كان يضع لكل حملة خطَّة ثابتة لها هدف ووجهة محدَّدة، ثم يُوَجِّه كلَّ قوَّته للوصول إلى هدفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

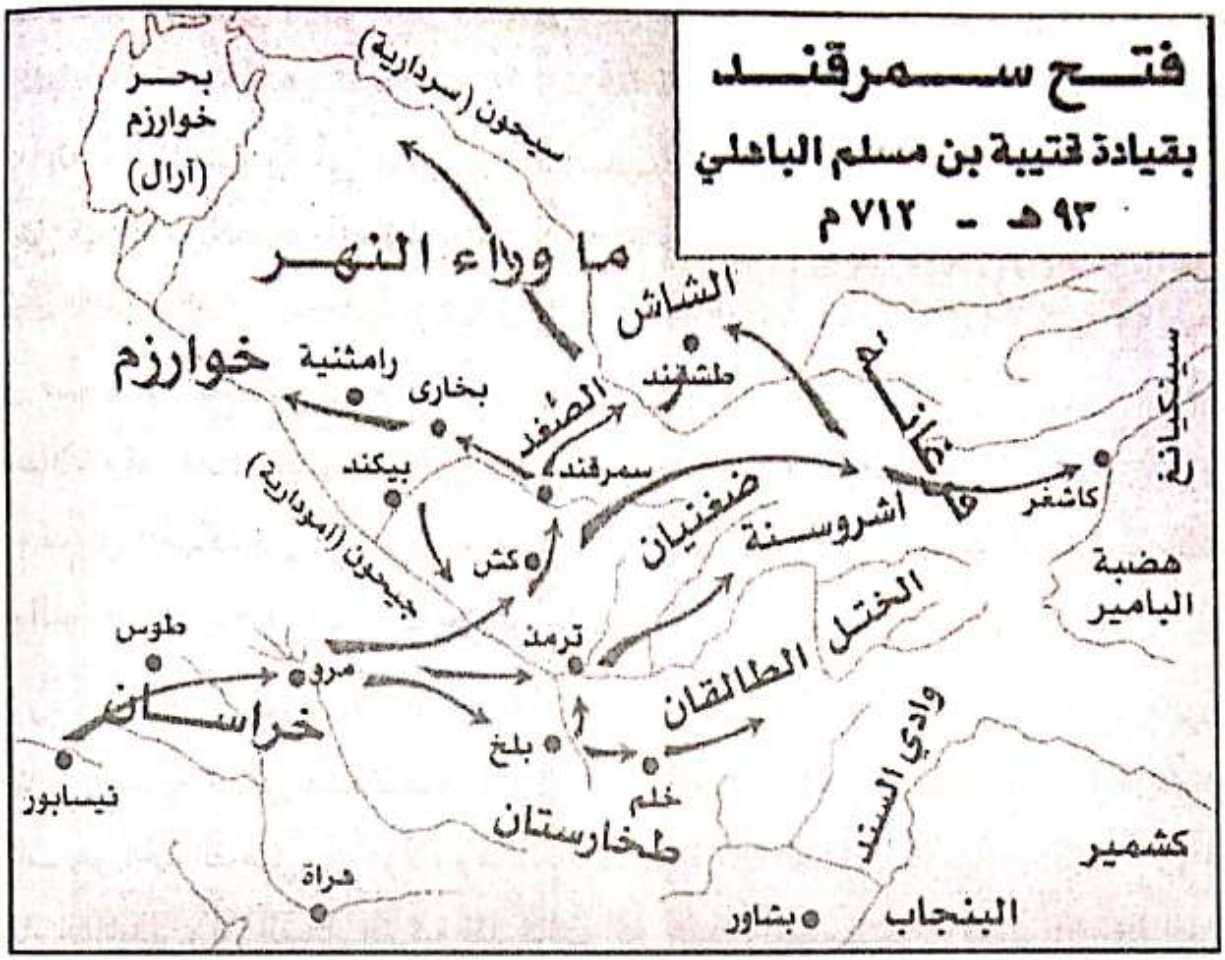

استعرض قتيبة بن مسلم جيشه، وابتدأ مسيرته إلى فتح الشرق كله، ففتح المدائن مثل خوارزم وسِجِسْتَان، حتى وصل إلى سَمَرْقَنْد، فحاصرها حصارًا شديدًا حتى صالحه أهلها على أموال كثيرة جدًّا، وفطن له الصُّغْد فجمعوا له الجموع؛ فقاتلهم في شُومان قتالاً عنيفًا حتى هزمهم، وسار نحو بِيكَنْد وهي آخر مدن بُخَارَى، فجمعوا له الجموع من الصُّغْد ومَنْ وَالَاهُم فأحاطوا به من كل مكان، وكان له جواسيس من الأعداء يمدُّونه بالأخبار، فأعطاهم الأعداء أموالًا طائلة ليصدُّوا عنهم قتيبة؛ فجاءوا يُثَبِّطونه عن قتالهم فقتلهم، ثم جمع الجيش وخطبهم وحثَّهم على القتال؛ فقاتلوا أشدَّ القتال، وفتحوا الطوق وغنم منها أموالًا لا تُحصى، ثم اتَّجه ناحية الصين، فغزا المدن التي في أطرافها وانتصر عليها، وضرب عليهم الجزية، فأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها حتى وصل إلى أسوار الصين.

استراتيجية قتيبة في الفزوات

قام قتيبة بن مسلم بتقسيم أعماله إلى أربع مراحل، حقَّق في كل واحدة منها فتح ناحية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واسعة فتحًا ثَبَّت فيه أقدام الدولة الأموية وما تابعها من دول إسلامية ردحًا طويلاً من الزمن؛ وهي كالآتي:

المرحلة الأولى: قام فيها قتيبة بحملته على طَخارستان السفلى فاستعادها وذلك سنة ٨٦هـ، وطَخارستان السفلى هي الآن جزء من أفغانستان وباكستان.

المرحلة الثانية: قاد فيها حملته الكبرى على بخارى (تقع الآن في أوزبكستان) فيما بين سنتي (٨٧- ٩٠هـ)، وخلالها أتمَّ فتح بخارى وما حولها من القرى والحصون، وكانت أهمَّ مدن بلاد ما وراء النهر وأكثفها سكانًا وأمنعها حصونًا.

المرحلة الثالثة: وقد استمرَّت فيما بين سنتي (٩١- ٩٣هـ)، وفيها تمكَّن قتيبة من نشر الإسلام وتثبيته في وادي نهر جَيْحُون كله، وأتمَّ فتح إقليم سِجِسْتَان في إيران الآن، وإقليم خوارزم، ووصلت فتوحاته إلى مدينة سَمَرْقَنْد في قلب آسيا، وضمَّها إلى الدولة الأموية.

المرحلة الرابعة: وقد امتدَّت فيما بين سنتي (٩٤- ٩٦هـ)، وفيها أتمَّ قتيبة فتح حوض نهر سَيْحُون بما فيه من مدن، ثم دخل أرض الصين وأوغل فيها، ووصل مدينة كاشْغَر وجعلها قاعدة إسلامية، وكان هذا آخر ما وصلت إليه جيوش إسلامية في آسيا شرقًا، ولم يصل أحد من المسلمين أبعد من ذلك قط.

وفاته

حارب قتيبة ثلاث عشرة سنة لم يضع فيها السلاح، وقد كان قتيبة بن مسلم من قادة الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فقد كان يعلم مقدار كراهية سليمان بن عبد الملك للحجاج، فلمَّا ولي الخلافة خشي قتيبة من انتقامه؛ لأنه وقف إلى جانب الوليد بن عبد الملك حين أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعلها لابنه؛ ولذلك عزم قتيبة على الخروج على سليمان، وجمع جموعًا لذلك من رجاله وأهل بيته، لكنَّ حركته فشلت، وانتهت بقتله في بلد اسمها فَرْغَانَة سنة (٩٦هـ= ٧١٥م) على يد وكيع بن حسان التميمي، وقيل: إنه لم يتمرَّد، ولكن وقع ضحية مؤامرة حاكها بعض الطامعين بالولاية.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمد بن القاسم الثقفي

الاسم الكامل	محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي
تاريخ الميلاد	٧٢ هـ/ ٦٩١ م
مكان الميلاد	الطائف
تاريخ الوفاة	٩٦ هـ/ ٧١٥ م
مكان الوفاة	سجن مدينة واسط بالعراق
الانتماء	الخلافة الأموية
أعداؤه	مملكة السند

هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي فاتح بلاد السند والبنجاب، وهي دولة باكستان الآن، التي هي من أكبر البلاد الإسلامية، وتاريخها جزء عزيز من التاريخ الإسلامي الكبير، ويُعتبر محمد بن القاسم الثقفي مؤسِّسًا لأول دولة إسلامية في الهند؛ ولذلك يبقى اسمه شامخًا في سجلِّ الفاتحين الأبطال.

نشأته

وُلِدَ محمد بن القاسم الثقفي سنة (٧٢هـ= ٦٩١م) بمدينة الطائف في أسرة معروفة؛ فقد كان جدُّه محمد بن الحكم من كبار الثقفيين. وفي سنة (٧٥هـ= ٦٩٤م) صار الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا عامًّا على العراق والولايات الشرقية التابعة للدولة الأموية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، فعيَّن الحجاج عمَّه القاسم واليًا على مدينة البصرة، فانتقل الطفل محمد بن القاسم إلى البصرة؛ حيث يحكمها والده، فنشأ محمد منذ نعومة أظفاره بين الأمراء والقادة، ثم بنى الحجاج مدينة واسط، التي صارت معسكرًا لجنده الذين يعتمد عليهم في الحروب، وامتلأت بسكانها الجدد وقوم الحجاج، وفي هذه المدينة وغيرها من مدن العراق نشأ وترعرع محمد بن القاسم وتدرَّب على الجندية؛ حتى أصبح من القادة المعروفين وهو لم يتجاوز بعدُ ١٧ عامًا من العمر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان محمد بن القاسم يسمع كثيرًا عن بلاد السند، ولم تكن تلك البلاد في ذلك الحين غريبة على المسلمين؛ فقد كان لهم فيها سابقة من غزوات في عهد الخليفة عمر والخليفة عثمان رضي الله عنهما، ثم زاد اهتمام العرب ببلاد السند حين قامت الدولة الأموية على يد الخليفة معاوية في سنة (٤٠هـ= ٦٦١م)، حتى نجح في فتح إقليم مهمٍّ بتلك البلاد؛ وهو إقليم مُكْرَان، الذي كان يحكمه الولاة الأمويون بعد ذلك بصفة مستمرَّة.

عدوان قراصنة السند

حدث في سنة (٨٨هـ= ٧٠٧م) أن سفينة عربية كانت قادمة من جزيرة الياقوت (بلاد سيلان) وعليها نساء مسلمات، وقد مات آباؤهنَّ، ولم يبقَ لهنَّ راعٍ هناك، فقرَّرْنَ السفر للإقامة في العراق، ورأى ملك سيلان في ذلك فرصة للتقرُّب إلى العرب فوافق على سفرهنَّ، بل حمَّل السفينة بهدايا إلى الحجاج والخليفة الوليد بن عبد الملك، وبينما كانت السفينة في طريقها إلى البصرة مارَّة بميناء الدَّيْبُل ببلاد السند، خرج قراصنة من السند واستولَوْا عليها. وعندئذٍ كتب الحجاج إلى ملك السند يطلب منه الإفراج عن النساء المسلمات والسفينة، ولكنه اعتذر عن ذلك بحجَّة أن الذين خطفوا السفينة لصوص لا يقدر عليهم، فبعث الحجاج حملتين على الدَّيْبُل؛ الأولى بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي، والثانية بقيادة بُدَيْل البجلي، ولكنَّ الحملتين فشلتا، بل قُتل القائدان على يد جنود السند. ووصلت الأخبار إلى الحجاج أن النساء المسلمات والجنود العرب مسجونين في سجن الدَّيْبُل، ولا يُريد ملك السند الإفراج عنهم عنادًا للعرب، وهنا كانت الأسباب تُلِحُّ على الحجاج في إرسال جيش كبير لفتح تلك البلاد، التي كان قراصنتها يُضايقون السفن العربية التجارية المارَّة بين موانى البلاد العربية وموانى بلاد الهند.

قيادته وفتوحاته

قرَّر الحجاج فتح بلاد السند كلها، وقد وقع اختياره على محمد بن القاسم الثقفي ليقود الجيش، وجهَّزه بكل ما يحتاج إليه في ميدان القتال، وتحرَّك البطل محمد بن القاسم بجيشه إليه ستة آلاف أخرى من الجند، وبعد استكمال الاستعدادات في شِيراز انطلق محمد بن القاسم ومعه اثنا عشر ألف مقاتل إلى الشرق، حتى وصل مُكْرَان، ثم توجَّه منها إلى فنزبور، المكوَّن من ستة آلاف مقاتل من العراق إلى الشِّيراز في سنة (٩٠هـ= ٧٠٩م)، وهناك انضمَّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم إلى أَرْمَائِيل، ثم هجم المسلمون على مدينة الدَّيْبُل فاقتحموا أسوارها فدخلها ابن القاسم، وبعد فتح مدينة الدَّيْبُل -أحصن مدن السند- واصل محمد بن القاسم سيره، فكان لا يمرُّ على مدينة إلَّا فتحها وهدم معابد الوثنية والبوذية بها، وأقام شعائر الإسلام، وأسكنها المسلمين، وبنى المساجد حتى غَيَّر خريطة البلاد تمامًا، وصبغها بصبغة إسلامية تامَّة.

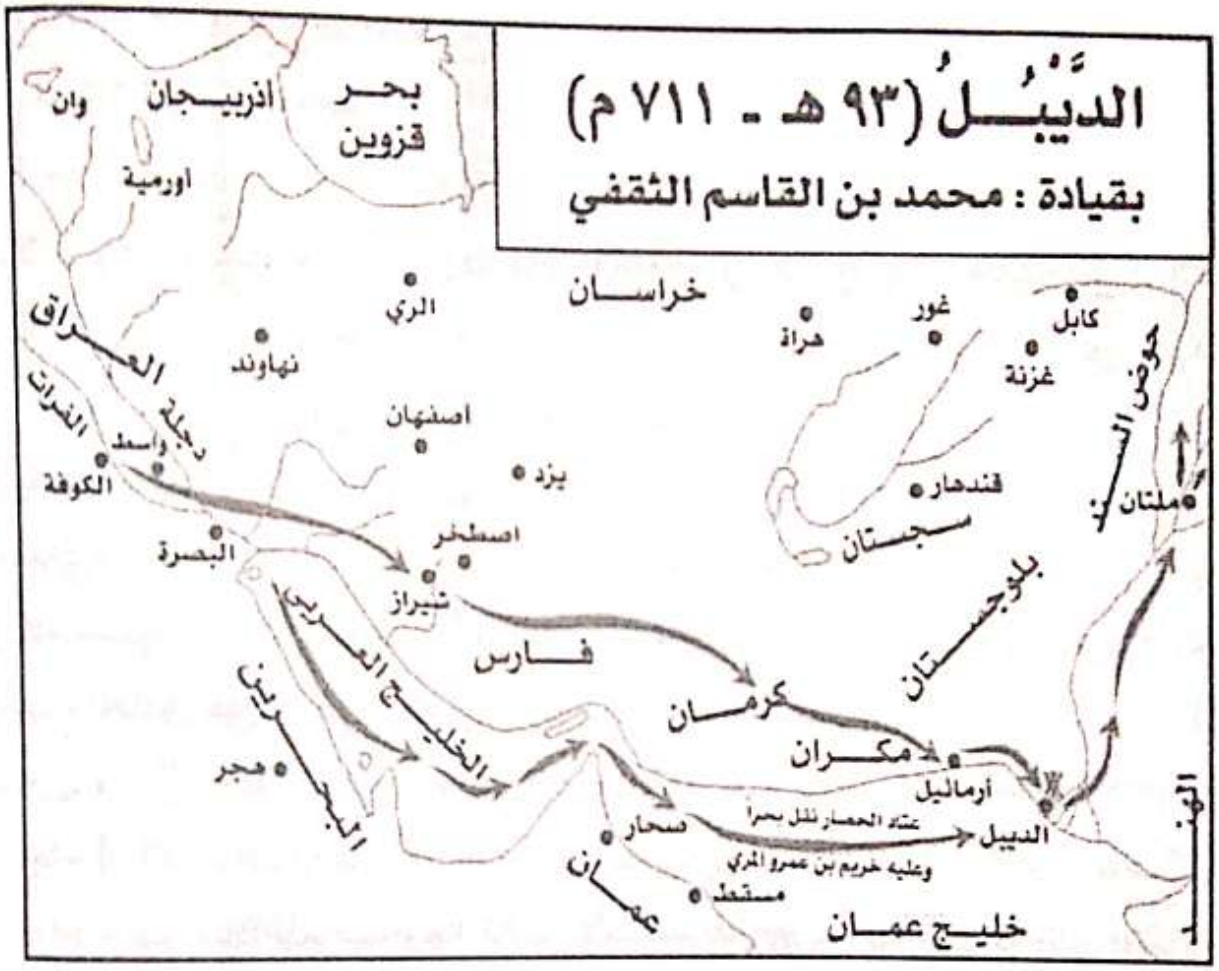

استطاع محمد بن القاسم أن يبهر الهندوس بشخصيته القوية الحازمة، وقد تعجبوا من شجاعته وحُسن قيادته لجيش كبير وهو دون الثامنة عشر، وبالفعل أسلم عدد كبير من الزُّطِّ وهم من بدو الهنود، وانضمَّ منهم أربعة آلاف رجل يُقاتلون مع محمد بن القاسم، وكان لهم أثر كبير في القتال لخبرتهم بالبلاد ومعرفتهم بلغة الهنود.

ثم إن محمد بن القاسم سار إلى البيرون (وهي حيدر آباد حاليًا) فتلقَّاه أهلها وصالحوه كذلك، وكان لا يمرُّ بمدينة إلَّا فتحها صلحًا أو عَنوة، وتوَّج ذلك كله بالانتصار على داهر ملك السند، ومضى يستكمل فتحه، فاستولى على حصن راوَرْ، ثم برهماناباذ، والرور وبهرور، ثم اجتاز نهر بَيَاس وعبر إلى إقليم المُلْتَان، فاستولى عليه بعد قتال شديد، وغنم كميات كبيرة من الذهب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستمرَّ ابن القاسم في مسيره حتى وصلت فتوحاته إلى حدود كشمير؛ وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يُخضع السند لحكم الخلافة الإسلامية في مدَّة لم تتجاوز ثلاث سنوات فقط، واستمرَّ محمد في فتوحاته لبقية أجزاء بلاد السند حتى انتهى منها سنة (٩٦هـ= ٧١٥م)، وبذلك قامت أول دولة عربية في بلاد السند والبنجاب، ولقد جاءته قبائل الميد والجات والزُّطِّ تقرع الأجراس فرحة هاتفة، مُرَحِّبَة به لأنه محرِّرهم من ظلم الهندوس واستعبادهم.

وقد كان محمد بن القاسم راجح الميزان في التفكير والتدبير، وفي العدل والكرم، إذا قُورن بكثير من الأبطال، وهم لا يكادون يبلغون مداه في الفروسية والبطولة، ولقد شهد له بذلك الأصدقاء والأعداء.

نهاية محزنة لمحمد بن القاسم

لما كان محمد بن القاسم يُفَكِّر في أن يتوجَّه بجيش الفتح إلى حدود بلاد الهند، وصله أمر الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بالتوجُّه إلى العراق، فرضخ الشاب المؤمن لقضاء الله، وهو يعلم أن مصيره الهلاك، لا لذنب اقترفه؛ ولكن لسوء حظٍّ وقع فيه، بسبب بعض تصرُّفات سياسية من قريبه الحجاج، واستعدَّ الفتى الحزين للسفر، فخرجت الجموع الحاشدة لتوديعه باكية حزينة، لم يكن العرب وحدهم يبكون على مصيره؛ بل أهل السند من المسلمين، حتى البرهميون والبوذيون كانوا يذرفون الدموع الغزيرة، ويرجونه أن يبقى في بلاد السند، وسوف يقفون خلفه إذا دقَّ الخطر بابه، ولكنَّ نفسه الأبية رفضت مخالفة أمر الخليفة.

ووصل محمد بن القاسم إلى العراق، فأرسله والي العراق صالح بن عبد الرحمن مقيدًا بالسلاسل إلى سجن مدينة واسط بسبب عداوته للحجاج، وهناك عذَّبه شهورًا بشتَّى أنواع التعذيب؛ حتى مات البطل الفاتح رحمه الله في سنة (٩٦هـ= ٧١٥م).

إن البطل محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد السند، يُعتبر من أعظم الأبطال في التاريخ الإسلامي، إنه بطل بما تحمله كلمة البطولة من معانٍ، وقد أودع الله ﷻ بين جنبيه نفسًا بعيدة المطامح لخدمة الإسلام.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

موسى بن نصير

الاسم الكامل	موسى بن نُصَير بن عبد الرحمن بن يزيد
تاريخ الميلاد	١٩ هـ / ٦٤٠ م
مكان الميلاد	كفر مترى - شمال فلسطين
تاريخ الوفاة	٩٩ هـ / ٧١٨ م
مكان الوفاة	في طريقه إلى الحج
الانتماء	الخلافة الأموية
أعداؤه	البيزنطيون - البربر - مملكة القوط

هو موسى بن نصير فاتح المغرب وصقلية وقبرص ورودس والأندلس، هو شيخ المجاهدين الذي قضى أعوامًا يرفع فيها راية الجهاد.

نشأته

في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وُلِدَ موسى بن نصير سنة (١٩هـ=٦٤٠م) في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين، تُسَمَّى (كفر مترى)، فتعلَّم الكتابة، وحَفِظَ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولَمَّا كان والده نصير قائدًا لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيَّأت الفرصة لموسى لأن يكون قريبًا من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة.

فتوحاته في قبرص ورودس

شبَّ موسى وهو يُشاهد جيوش المسلمين تُجاهد في سبيل الله؛ لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعدُّ لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلَّد سيفه، فنظر إليه وأطال النظر، وتمنَّى أن يكون مثل أبيه يُجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لينال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجَّهها معاوية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لإعادة غزو قبرص -التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ- فنجح في غزوها، وبنى هناك حصونًا، ثم تولَّى إمارتها، وفي سنة (٥٣هـ= ٦٧٣م) كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة رودس التي انتصر المسلمون فيها.

وزارة موسى بن نصير

وتمرُّ الأيام والسنون، ويتولَّى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحيَّن موسى بن نصير الفرصة ليُحَقِّق أحلامه وطموحاته؛ ففي سنة (٦٥هـ= ٦٨٤م) أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه عبد العزيز وصديقه موسى بن نصير، ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمَّها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عيَّن ابنه عبد العزيز واليًا عليها، وجعل موسى بن نصير وزيرًا له.

وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سرِّه، ووزيره الأول، يُساعده في حُكْم مصر؛ حتى ازدادت خبرة موسى في شئون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولَّى الخلافة بعده ابنه عبد الملك، وكان عبد العزيز بن مروان يُشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة؛ مما جعله يخصُّ موسى بالحفاوة والتكريم.

وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر؛ يُخبره فيها بأنه قد عيَّن أخاه بِشْرَ بن مروان واليًا على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيرًا يُساعده على إدارة الولاية ورئيسًا لديوان العراق، ومكَّن الله لموسى، وثَبَّت أركان وزارته، فلم يمضِ وقت طويل، حتى عَيَّن الخليفةُ أخاه بشرًا على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة؛ ليُدير شئونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عَيَّنَه صديقُه عبدُ العزيز بن مروان واليًا على شمال إفريقية بدلاً من حسان بن النعمان، الذي غضب عليه عبد العزيز.

فتوحاته في شمال إفريقيا

بعد تعيين موسى بن نصير واليًا على شمال إفريقية تمكَّن في زمن قصير من تجهيز جيش إسلامي قوي قادر على النصر، وسار برجاله، ووقف بينهم خطيبًا، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**إنما أنا رجل كأحدكم، فمَنْ رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحضَّ على مثلها، ومَنْ رأى منِّي سيئة فليُنكرها، فإني أُخطئ كما تُخطئون، وأُصيب كما تُصيبون**». ثم انطلق موسى بجيشه نحو المغرب؛ حيث تزعزع الأمن هناك برحيل الأمير السابق حسان بن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النعمان، وقيام البربر بالعديد من الغارات على المسلمين.

واستطاع موسى أن يهزم قبائل البربر التي خرجت عن طاعة المسلمين، ولمَّا وصل إلى مدينة القيروان، صلَّى بالجند صلاة شكرٍ لله على النصر، ثم صعد المنبر وخطب قائلاً: «**وايم الله! لا أُريد هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذلَّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**». وانتشرت جيوش موسى بن نصير في شرق المغرب وشماله تفتح كلَّ ما يُصادفها من الحصون المنيعة؛ حتى أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعدُ للمسلمين.

وتطلَّع موسى إلى فتح طَنْجَة التي كانت تحت سيادة الأمير الرومي يُوليان، فانطلق من قاعدته في القيروان بجيش كبير تحت قيادة طارق بن زياد، حتى وصل إلى طنجة فحاصرها حصارًا طويلاً وشديدًا حتى فتحها، وأقام للمسلمين مُدنًا جديدة فيها، وأسلم أهلها، وبعث موسى لصديقه عبد العزيز يُبَشِّره بالفتح، وأن خُمس الغنائم قد بلغ ثلاثين ألفًا، وجاءت الرسل إلى الخليفة في دمشق تزفُّ إليه خبر النصر، ففرح فرحًا شديدًا لانتصارات موسى، وكافأه على انتصاراته.

وبدأ موسى بن نصير ينشر دين الله في المدن المفتوحة، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وحكم بين أهل هذه البلاد بالعدل، لا يُفَرِّق بين عربي وأعجمي إلَّا بالتقوى والعمل الصالح؛ فأحبُّوا الإسلام، واستجابوا لدعوة الحقِّ، ودخلوا في دين الله أفواجًا، وتحوَّلوا من الشرك والكفر إلى الإسلام والتوحيد بفضل الله أولاً، ثم بجهود موسى وبطولاته.

بناء الأسطول وفتح جزر البحر المتوسط

لم يكتفِ موسى بهذه الانتصارات، بل أخذ يُجَهِّز أسطولاً بحريًّا، وأمر في الحال ببناء ترسانة بحرية في تونس، فجاء بصانعي المراكب، وأمرهم بإقامة مائة مركب.

وبعد أن تمَّ له إنشاء السفن أمر جنوده بأن يركبوا السفن وعلى رأسهم ابنه عبد الله، ثم أمره بفتح جزيرة صقلية، وسار عبد الله بن موسى بجند الحقِّ حتى وصل إلى الجزيرة فدخلها، وأخذ منها غنائم كثيرة، حتى وصل نصيب الجندي مائة دينار من الذهب، وكان عدد الجنود المسلمين ما بين التسعمائة إلى الألف، ثم عاد عبد الله بن موسى من غزواته سالمًا غانمًا، وبعث موسى قائده عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية، ففتح جزيرة صقلية للمرَّة الثانية، واستولى على مدينة من مدنها تسمي سَرَقُوسَة وعاد منتصرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي سنة (٨٩هـ= ٧٠٨م) بعث موسى بن نصير قوَّةً لغزو سردينيا ففتحها، وفي العام نفسه جهَّز موسى ولده عبد الله بما يحتاجه من جند وعتاد، ثم سار في البحر، ففتح جزيرتي مَيُورْقَة ومَنُورقَة؛ وهما جزيرتان في البحر بين صقلية والشاطئ الأندلسي.

فتوحاته في الأندلس

لما ضمن موسى ولاء أهل المغرب واستمساكهم بدعوة الإسلام، أخذ يُعِدُّ العدَّة لغزو جديد، وبينما هو يُفَكِّر في هذا الأمر إذ جاءه رسول من قِبَل طارق بن زياد والي طَنْجَة يُخبره بأن يُوليان حاكم سبتة عرض عليه أن يتقدَّم لغزو إسبانيا، وأنه على استعداد لمعاونة العرب في ذلك، وتقديم السفن اللازمة لنقل الجنود المسلمين، وبعث موسى إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستشيره، فردَّ عليه الخليفة بقوله: «**خضها أولًا بالسرايا -يعني بقلة من الجنود- حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تُغَرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال**»[1].

فأرسل موسى رجلاً من البربر يُسَمَّى طريف بن مالك في مائة فارس وأربعمائة رجل، وركب هو وجنوده البحر في أربعة مراكب، حتى نزل ساحل الأندلس، فأصاب سبيًا كثيرًا ومالاً وفيرًا، ثم رجع إلى المغرب غانمًا سالمًا، وفي شهر رجب من عام (٩٢هـ= ٧١٠م) جهَّز موسى جيشًا خليطًا من العرب والبربر؛ تعداده سبعة آلاف جندي بقيادة طارق بن زياد، وانطلق طارق بالجيش إلى أن وصل سبتة، وهناك خطَّط لعبور المضيق، وفي اليوم الخامس من شهر رجب سنة ٩٢ هـ، الموافق شهر أبريل سنة ٧١٠م -وبفضل الله- كانت آخر دفعة من الجنود بقيادة طارق تعبر المضيق، الذي حمل اسم طارق بن زياد منذ ذلك الوقت.

ونزل طارق -قائدُ جيش موسى بن نصير- أرض الأندلس، وبعد عدَّة معارك فتح الجزيرة الخضراء، وعَلِمَ الإمبراطور لُذريق بنزول المسلمين في إسبانيا من بتشو حاكم إحدى المقاطعات الجنوبية، الذي بعث إليه يقول: «**أيها الملك، إنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء أم من الأرض، فالنجدة.. النجدة، والعودة على عجل**».

وزحف لُذريق بجيش كبير ليُوقف المسلمين عن الزحف، فأرسل طارقٌ إلى موسى مستنجدًا، فأمدَّه بخمسة آلاف من المسلمين على رأسهم طريف بن مالك، فأصبح تعداد جيش

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤/ ٢٦٧، والحميري: الروض المعطار، ص٣٥، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٢٥٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسلمين اثني عشر ألفًا، وكان اللقاء الحاسم بين جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد، وجيش الإمبراطور لذريق في (٢٨ من رمضان ٩٢ هـ= ١٨ من يوليو ٧١١م)، واستمرَّت المعركة حوالي سبعة أيام، انتهت بانتصار المسلمين -بفضل الله- في معركة عُرِفَتْ باسم معركة وادي لُكَّة.

واصل طارق بن زياد فتوحاته في الأندلس، وخشي موسى بن نصير من توغله في أراضيها، فعبر إليه على رأس حملة كبيرة وأخذ القائدان يتمّان فتح ما بقي من مدن الأندلس، وظلَّ موسى يُجاهد في سبيل الله حتى أصبحت الأندلس في قبضة المسلمين.

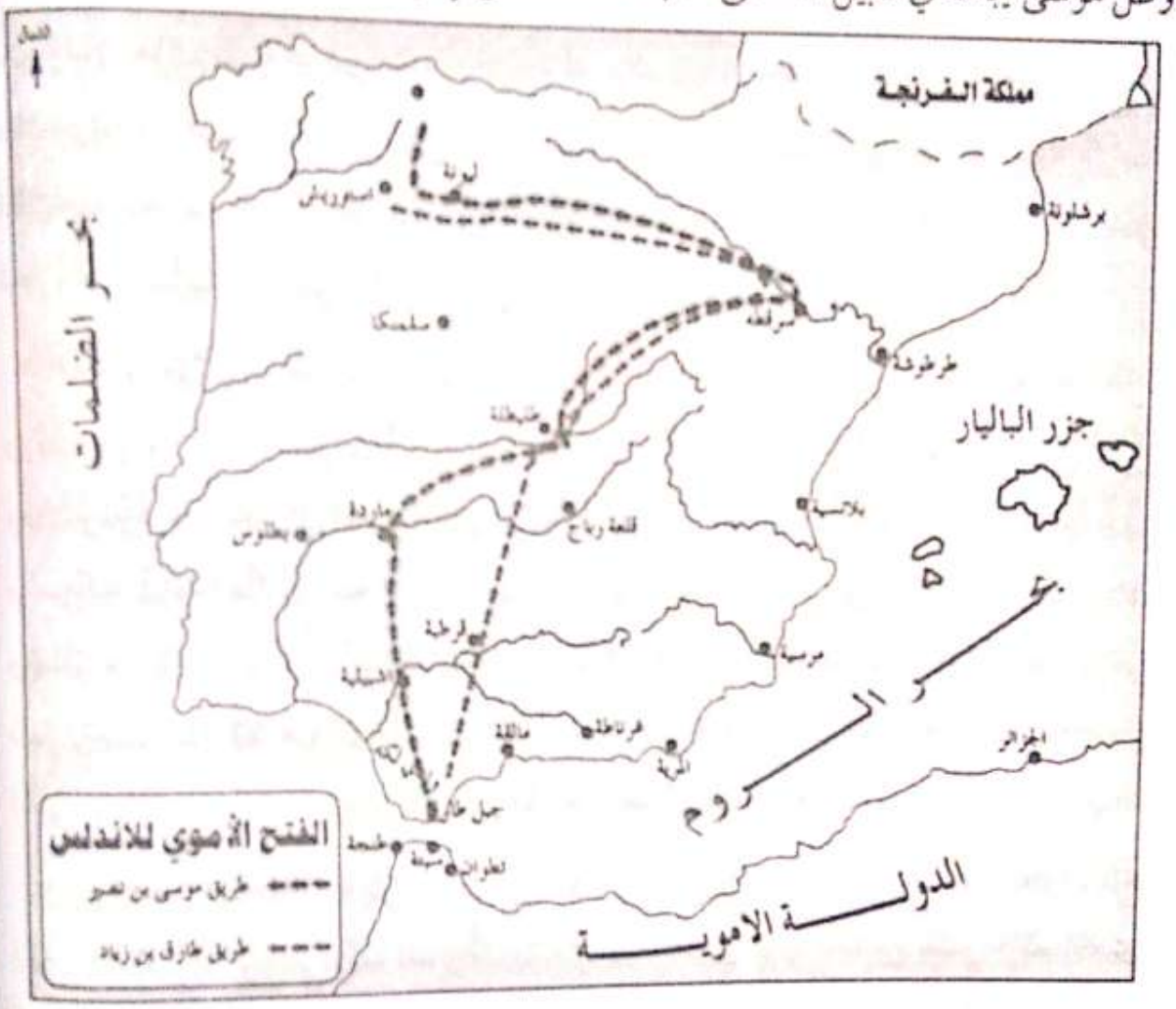

العودة إلى دمشق

وفي أثناء فتوحات موسى في الأندلس ألحَّ عليه مغيث الرومي رسول الخليفة بالعودة إلى دار الخلافة في دمشق، فاستجاب له موسى، وبدأ يستعدُّ لمغادرة الأندلس، وواصل موسى السير، حتى وصل إلى دمشق فاستقبله الوليد وأحسن استقباله، وتحامل على نفسه وهو مريض وجلس على المنبر لمشاهدة الغنائم وموكب الأسرى، فدُهش الخليفة مما رأى وسجد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لله شكرًا، ثم دعا موسى بن نصير وصبَّ عليه من العطر ثلاث مرَّات، وأنعم عليه بالجوائز.

ولم يمضِ أربعون يومًا على ذلك حتى مات الوليد بن عبد الملك، وتولَّى الخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك، ومن يومها بدأت متاعب موسى بن نصير؛ فقد أراد سليمان أن يُعاقب موسى بن نصير لخلافٍ بينهما، فأمر به أن يظلَّ واقفًا في حرِّ الشمس المتوهِّجَة، وكان قد بلغ الثمانين من عمره، فلمَّا أصابه حرُّ الشمس وأتعبه الوقوف سقط مغشيًّا عليه، وبعدها اندفع موسى يقول في شجاعة مخلوطة بالأسى للخليفة سليمان بن عبد الملك: «أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائي ولا قدر جزائي».

وفاته

عاش موسى في دمشق وهو راضٍ عما نزل به من قضاء الله، وندم سليمان على ما فعله في حقِّ موسى، وكان يقول: «ما ندمتُ على شيء ندمي على ما فعلته بموسى». وأراد سليمان أن يُكَفِّر عن ذنبه، فاصطحب موسى بن نصير معه إلى الحج في سنة (٩٧هـ=٧١٥م)، وقيل: سنة (٩٩ هـ= ٧١٨ م)، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة في أثناء الرحلة، وفرح شيخ المجاهدين بلقاء ربه؛ بعدما قضى أعوامًا رفع فيها راية الجهاد.. فسلامٌ عليك يا شيخ المجاهدين.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طارق بن زياد

الاسم الكامل	طارق بن زياد الليثي
تاريخ الميلاد	٥٠ هـ/ ٦٧٠ م
مكان الميلاد	خنشلة - الجزائر
تاريخ الوفاة	١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م
مكان الوفاة	دمشق
الانتماء	الخلافة الأموية
أعداؤه	القوطيون بإسبانيا

طارق بن زياد قائد عسكري أموي فتح الأندلس؛ حيث قاد أول الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيريا، وصاحَبَ الانتصار الإسلامي الكبير في معركة وادي لُكَّة، ويُعتبر من أشهر القادة العسكريين المسلمين في التاريخ، ويحمل جبل طارق جنوب إسبانيا اسمه.

نشأته

وُلِدَ طارق بن زياد في عام (٥٠ هـ= ٦٧٠م) في خنشلة في الجزائر في قبيلة نفزة؛ وهي قبيلة بربرية، وهكذا فإن هذا البطل العظيم لم يكن من أصل عربي، ولكنه من أهالي البربر الذين يسكنون بلاد المغرب العربي، وقد نشأ طارق بن زياد مثلما ينشأ الأطفال المسلمون، فتعلَّم القراءة والكتابة، وحفظ سورًا من القرآن الكريم وبعضًا من أحاديث النبي ﷺ.

جهاده في الشمال الإفريقي

ساعد حبُّ طارق للجهاد في أن يلتحق بجيش موسى بن نصير أمير المغرب، وأن يشترك معه في الفتوح الإسلامية، وأظهر شجاعة فائقة في القتال، ومهارة كبيرة في القيادة لفتت أنظار موسى بن نصير، فأُعجب بمهاراته وقدراته، فولَّاه على مُقَدِّمة جيوشه بالمغرب؛ وهكذا أُتيح لطارق بن زياد أن يتولَّى قيادة جيوش موسى، ويشترك معه في السيطرة على بلاد المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما زال يُقاتل ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة الحسيمة أهم مدنهم، فحاصرها حتى دخلها، وأسلم أهلها، ولم يمضِ على ولاية موسى للمغرب عدَّة أعوام، حتى خضع له المغرب بأسره، ولم تستعصِ عليه سوى مدينة سَبْتَة لمناعتها وشدَّة تحصُّنها؛ إذ كانت سفن القوط تُزَوِّد سَبْتَة بالميرة والإمداد، فلمَّا يئس موسى من دخول سَبْتَة أقام قائده طارق بن زياد واليًا على مدينة طَنْجَة؛ حتى تُتاح له فرصة مراقبة مدينة سبتة عن كثب، وترك تحت تصرُّف طارق تسعة عشر ألفًا من البربر بأسلحتهم وعُددهم الكاملة، مع نفر قليل من العرب ليُعَلِّمُوهم القرآن وفرائض الإسلام، أمَّا موسى فقد عاد إلى القيروان.

التفكير في فتح بلاد الأندلس

كانت بلاد الأندلس يحكمها ملك ظالم يُدعى لُذريق كرهه الناس، وفكَّروا في خلعه من الحكم والثورة عليه بالاستعانة بالمسلمين، الذين يحكمون الشمال الإفريقي؛ بعد أن سمعوا كثيرًا عن عدلهم، وتَوَسَّط لهم الكونت يُوليان -حاكم سبتة القريبة من طنجة- في إقناع المسلمين بمساعدتهم، واتصل بطارق بن زياد يعرض عليه مساعدته في التخلُّص من لُذريق حاكم الأندلس، وقد رحَّب طارق بهذا الطلب، ووجد فيه فرصة طيبة لمواصلة الفتح والجهاد، ونَشْرِ الإسلام وتعريف الشعوب بمبادئه السمحة، فأرسل إلى موسى بن نصير أمير المغرب يستأذنه في فتح الأندلس، فطلب منه الانتظار حتى يُرسل إلى خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك بهذا العرض، ويستأذنه في فتح الأندلس، ويشرح له حقيقة الأوضاع هناك، فأَذِنَ له الخليفة، وطلب منه أن يسبق الفتح حملة استطلاعية يكشف بها أحوال الأندلس قبل أن يخوض أهوال البحر، فقاد طريف بن مالك حملة استطلاعية تضمُّ خمسمائة من خير جنود المسلمين؛ وذلك لاستكشاف الأمر، ومعرفة أحوال الأندلس سنة (٩١ هـ= يوليو ٧١٠م)، فعبرت هذه الحملة في أربع سفن قدَّمها لها الكونت يُوليان، وقامت هذه الحملة الصغيرة بدراسة البلاد، وتعرَّفُوا جيدًا عليها، ولم تلقَ هذه الحملة أية مقاومة، وعادت بغنائم وفيرة.

فتح الأندلس

شجَّعت نتيجةُ حملة طريف طارقَ بن زياد بالاستعداد لفتح بلاد الأندلس، وبعد مرور أقلّ من عام من عودة حملة طريف خرج طارق بن زياد في سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر المسلمين، وعَبَرَ مضيقَ البحر المتوسط إلى الأندلس، وتجمَّع المسلمون عند جبل صخري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عُرف فيما بعدُ باسم «جبل طارق» في (٥ من شهر رجب ٩٢ هـ= ٢٧ من أبريل ٧١١م).

وأقام طارق بتلك المنطقة عدَّة أيام، وبنى بها حصنًا لتكون قاعدة عسكرية بجوار الجبل، وعهد بحمايتها إلى طائفة من جنده لحماية ظهره في حالة اضطراره إلى الانسحاب.

ثم سار طارق بن زياد بجيشه مخترقًا المنطقة المجاورة بمعاونة الكونت يوليان، وزحف على ولاية الجزيرة الخضراء واحتلَّ قلاعها، وفي أثناء ذلك وصلت أنباء الفتح إلى أسماع لُذريق، وكان مشغولاً بمحاربة بعض الثائرين عليه في الشمال، فترك قتالهم وأسرع إلى طُلَيْطلَة عاصمة بلاده، واستعدَّ لمواجهة جيش المسلمين، وجمع جيشًا هائلاً بلغ مائة ألف مقاتل مزوَّدين بأقوى الأسلحة، وسار إلى الجنوب للقاء المسلمين، وهو واثق كل الثقة من تحقيق النصر.

ولمَّا عَلِمَ طارق بأنباء هذه الحشود بعث إلى موسى بن نصير يُخبره بالأمر، ويطلب منه المدد، فبعث إليه بخمسة آلاف جندي من خيرة الرجال، وبلغ المسلمون بذلك اثني عشر ألفًا.

اللقاء المرتقب

رحل لُذريق إلى بلدة شَذُونَة وأتمَّ بها استعداداته، ثم اتَّجه إلى لقاء المسلمين، ودارت بين الفريقين معركة فاصلة بالقرب من وادي لُكَّة، وكان اللقاء قويًا ابتدأ في ٢٨ من رمضان ٩٢هـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

= ١٨ من يوليو ٧١١م، وظلَّ مستمرًّا ثمانية أيام، أبلى المسلمون خلالها بلاءً حسنًا، وثَبَتُوا في أرض المعركة كالجبال؛ رغم تفوُّق عدوِّهم في العدد والعُدَّة، ولم تُرهبهم قوَّتُه ولا حشوده، وتفوَّقوا عليه بالإعداد الجيد، والإيمان القوي، والإخلاص لله ﷻ، والرغبة في الشهادة في سبيله. وتحقَّق لهم النصر في اليوم الثامن من بدء المعركة، وفرَّ لُذريق آخر ملوك القوط عقب المعركة، ولم يُعثر له على أثر، ويبدو أنه فقد حياته في المعركة التي فقد فيها مُلْكَه.

استكمال الفتح

بعد معركة وادي لُكَّة طارد طارق بن زياد فلول الجيش المنهزم، وسار بجيشه يفتح البلاد، ولم يجد مقاومة عنيفة في سيره تجاه الشمال، وفي الطريق إلى طُلَيْطلَة عاصمة القوط كان طارق يُرسل حملات عسكرية صغيرة لفتح المدن؛ مثل: قُرْطُبَة وغَرْنَاطَة وإِلْبِيرة ومَالَقَة.

وواصل طارق سيره شمالاً مخترقًا هضاب الأندلس؛ حتى دخل طُلَيْطلَة بعد رحلة طويلة شاقَّة، بلغت ما يزيد على ستمائة كيلو متر عن ميدان المعركة التي انتصر فيها.

ولما دخل طارق مدينة طُلَيْطلَة أبقى على مَنْ ظلَّ بها من السكان، وأحسن معاملتهم، وترك لهم كنائسهم، وتابع زحفه شمالاً حتى وصل إلى خليج بسكونيه، ثم عاد ثانية إلى طُلَيْطلَة، وكتب إلى موسى بن نصير يُحيطه بأنباء هذا الفتح وما أحرزه من نصر، ويطلب منه المزيد من الرجال والعتاد لمواصلة الفتح ونشر الإسلام في تلك المناطق، وتخليص أهلها من ظلم القوط.

موسى والمشاركة في الفتح

كان موسى بن نصير يُتابع سير الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد في الأندلس، وأدرك أنه في حاجة إلى عون ومساندة بعد أن استشهد كثير من المسلمين في المعارك التي خاضوها؛ فعَبَر إلى الأندلس في ثمانية عشر ألف جندي في (رمضان ٩٣هـ= يونيه ٧١٢م)، وسار بجنوده في غير الطريق الذي سلكه طارق بن زياد؛ ليفتح بلادًا جديدة، حتى وصل إلى طُلَيْطلَة والتقى بطارق بن زياد.

وبعد أن استراح القائدان قليلاً في طُلَيْطلَة عاودا الفتح مرَّة ثانية، وافتتحا سَرَقُسْطَة وطَرَكُونة وبَرْشُلُونَة وغيرها من المدن، ثم افترق الفاتحان، وسار كلٌّ منهما في ناحية حتى أتمَّا فتح الأندلس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العودة إلى دمشق

بينما القائدان يفتحان البلاد وصلت رسالة من الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمرهما فيها بالتوقُّف عن الفتح، والعودة إلى دمشق، وكان القائدان قد نَظَّما شئون البلاد، وغادر القائدان الأندلس وواصلَا السير إلى دمشق عاصمة الدولة الأموية، فوصلاها بعد تولية سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، وقدَّما له تقريرًا وافيًا عن الفتح، فاسْتَبْقَاهما الخليفة إلى جواره، وأقام طارق بن زياد هناك مكتفيًا بما حقَّقه من فتوحات عظيمة خلَّدت اسمه بين الفاتحين العظام من المسلمين.

وفاته

انقطعت أخبار القائد طارق بن زياد إثر وصوله إلى الشام مع موسى بن نصير، واضطربت أقوال المؤرخين في نهاية طارق؛ غير أن الراجح أنه لم يُوَلَّ عملًا بعد ذلك.

لقد كان طارق بن زياد قائدًا عظيمًا؛ استطاع بإيمانه وصبره وعزيمته وإصراره أن يصل إلى هذه المكانة العظيمة، ونجح في تحقيق هذه الانتصارات لأنه كان يُفَكِّر في كل خطوة يخطوها، ويتأنَّى في اتخاذ القرار، ويجمع المعلومات قبل التحرُّك، كما كان مؤمنًا صادقَ الإيمان على يقينٍ من نصر الله حتى في أحرج الأوقات، فظلَّ ثمانية أيام يُحارب عدوَّه في لقاء غير متكافئ من حيث العدد والعُدَّة؛ لكنه تمكَّن من تحقيق النصر في النهاية بفضل الله تعالى.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسد بن الفرات

الاسم الكامل	أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان
تاريخ الميلاد	١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م
مكان الميلاد	ديار بكر – الشام
تاريخ الوفاة	٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م
مكان الوفاة	قصريانة – صقلية
الانتماء	دولة الأغالبة – الخلافة العباسية
أعداؤه	البيزنطيون

أن يكون المسلم متميزًا في باب معيَّن من أبواب الخير فهذا شيءٌ عظيم يستحقُّ أن يثني عليه الناسُ ويذكرونه، ولكن أن يكون المسلم فقيهًا وعالمًا ومحدِّثًا، وقاضيًا ومعلِّمًا، ومدافعًا عن السُّنَّة وقامعًا للبدعة، ومجاهدًا وأميرًا للجيوش وقائدًا لأساطيل أعالي البحار، ومرابطًا في سبيل الله حتى الموت، فهذا النوع من الرجال الأبطال لا بُدَّ أن نُؤَرِّخ له وبماء الذهب؛ خاصة أن أبناء المسلمين الآن لا يعرفون عنه شيئًا، وبطلنا هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان الأمير الكبير، والفقيه البارع، والمحدِّث الثقة، وأمير المجاهدين.

نشأته

وُلِدَ بطلنا سنة (١٤٢هـ= ٧٥٩م) بحَرَّان من أعمال ديار بكر بالشام، انتقل إلى بلاد المغرب مع أبيه الفرات بن سنان سنة (١٤٤هـ= ٧٦١م)، والذي كان قائدًا للمجاهدين الذين خرجوا لنشر الإسلام في بلاد المغرب، واستقرَّ مع أبيه بالقيروان، ونشأ أسد بن الفرات منذ صغره على حُبِّ العلم، وحفظ كتاب الله حتى أتمَّه في مرحلة الصبا، وأصبح هو نفسه معلِّمًا للقرآن وهو دون الثانية عشر.

رحلته العلمية

بعدما أتمَّ أسد حفظ كتاب الله ﷻ بدأ في تحصيل العلوم الشرعية حتى برع في الفقه، وكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محبًّا للنظر والمسائل المتفرِّعة، وإعمال العقل؛ فمال ناحية مذهب أبي حنيفة، وظلَّ هكذا حتى التقى علي بن زياد، الذي يُعتبر أوَّلَ مَنْ أدخل مذهب الإمام مالك بن أنس بالمغرب، فسمع منه أسد كتاب الموطأ وتلقَّى منه أصول مذهب مالك، وبعدها قرَّر أسد أن ينتقل إلى المشرق في رحلة علمية طويلة ابتداءً من سنة (١٧٢هـ= ٧٨٨م) وهو في ريعان الشباب.

دخل أسد بن الفرات المدينة النبوية لسماع الموطأ من الإمام مالك مباشرة، ثم ارتحل إلى العراق بعدما انتهى من سماع الموطأ.

وبالعراق التقى أسد مع كبار تلاميذ أبي حنيفة؛ أمثال: محمد بن الحسن وكان من كبار رواة الحديث، والقاضي أبي يوسف أخص تلاميذ أبي حنيفة وأفقههم، فتعلَّم أسد أولاً المذهب الحنفي، وأكثر من سماعِ الثقات في الحديث، واستفاد أسد من محمد بن الحسن استفادة كبرى، وكتب عنه الكثير من مسائل المذهب الحنفي المشهور.

استمرَّ أسد في رحلته إلى العراق جامعًا بين طلب الحديث والفقه إلى سنة (١٧٩هـ= ٧٩٥م)، وهي السنة التي توفي فيها الإمام مالك رحمه الله، فارتجَّت العراق لموته، وأقبل الناس من كل مكان للسماع من تلاميذ مالك، وعندها ندم أسد على أنه لم يبقَ بجوار مالك، وقال لنفسه: «**إن كان فاتني لزوم مالك فلا يفوتني لزوم أصحابه**».

ارتحل أسد بن الفرات إلى مصر، وكان بها أخصُّ تلاميذ مالك وأكثرهم علمًا وورعًا أمثال ابن وهب وابن القاسم، فدخل أسد أولاً على ابن وهب، وعرض عليه كتبه التي كتبها على مذهب أبي حنيفة، وطلب منه أن يُجيب عليها على مذهب مالك، فتورَّع ابن وهب عن ذلك، فدخل أسد على ابن القاسم فأجابه على هذه المسائل، وتفرَّغ له ابن القاسم ولقَّنه المذهب كلَّه بأصوله وفروعه، ودوَّن هذه المسائل كلها في الكتاب الشهير باسم «الأسدية» وحرَّرها وضبطها، حتى صارت المرجع الأول للفقه المالكي ببلاد المغرب وقتها، وأخيرًا عاد أسد بن الفرات إلى القيروان سنة (١٨١هـ= ٧٩٧م) بعد رحلة علمية شاقَّة وحافلة بالفوائد؛ حيث تنقَّل فيها بين المدينة ومكة وبغداد والكوفة والفسطاط في طلب العلم؛ حتى صار من كبار علماء المغرب، وإمامًا من أئمة المسلمين الذين بلغوا درجة الاجتهاد، فلا يُفتي إلَّا بعد النظر والترجيح، ولا يتقيَّد بمذهبٍ معيَّنٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نشاطه العلمي بالمغرب

عاد أسد بن الفرات إلى القيروان -حاضرة إفريقية وقتها، ومنارة العلم الأولى في الشمال الإفريقي- بعلم جمٍّ في الحديث والفقه بمدرستيه الأوليين الحنفية والمالكية، وجلس بجامع عقبة وأقبل عليه الناس من كل مكان من المغرب والأندلس، واشتهر أمره وظهر علمه، وارتفع قدره، وانتشرت إمامته، وجاءته الأسئلة من أقصى البلاد ليُجيب عليها.

محاربته للبدع

كان أسد بن الفرات على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة عقيدة السلف الصالح؛ لذلك كان من أشدِّ علماء المغرب على أهل البدعة، معروفًا بنشر السُّنَّة حتى خارج إفريقية (تونس الآن) وكان يُكثر من تقريع المبتدعين، قرأ يومًا قوله ﷻ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ثم قال: «يا ويل أهل البدع! يزعمون أن الله ﷻ قد خلق كلامه، آمنتُ بالله ﷻ، وبأنه قد كَلَّم موسى تكليمًا، وأن الكلام غير مخلوق، ولكن لا أدرى كيفيته».

الأسد أمير المجاهدين

لم يكن أسد بن الفرات من هذا النوع السلبي من العلماء الذين يقبعون خلف كتبهم ومصنفاتهم ومحابرهم، ولا يتحرَّكُون بعلمهم بين الناس؛ بل كان من العلماء العاملين، وأيضًا من كبار المجاهدين في سبيل الله ﷻ، فلقد ورث حُبَّ الجهاد عن أبيه، الذي كان أمير المجاهدين في حَرَّان، والذي حمل ولده الصغير «أسدًا» وخرج به مجاهدًا في سبيل الله، فشبَّ عالمًا وأيضًا جنديًّا جريئًا، وبحَّارًا مغامرًا؛ حتى إنه في سنِّ الشباب -وقبل أن يقوم برحلته العلمية المشهورة- اشترك في العديد من المعارك البحرية في مياه البحر المتوسط، ويقول العلامة ابن خلدون: إن أسد بن الفرات هو الذي افتتح جزيرة «قَوْصَرة». وهي جزيرة صغيرة تقع شرقي تونس الآن، حيث كانت إفريقية (تونس) واقعة تحت حكم دولة الأغالبة، التي استقلَّت بحكم البلاد منذ سنة (١٨٤هـ= ٨٠٠م)، ولكنها كانت تابعة للدولة العباسية، وكانت هذه الدولة في بداياتها معنية بأمر الجهاد ونشر الإسلام، فاتجه ولاة هذه الدولة بأبصارهم ناحية الجزر الكبرى الواقعة في منتصف البحر المتوسط؛ مثل: جزيرة صقلية، وكورسيكا، وسَرْدَانِيَة، وغيرها؛ ولكن التركيز الأكبر كان على جزيرة صقلية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتح جزيرة صقلية

تُعتبر جزيرة صقلية أكبر جزر البحر المتوسط مساحة، وأغناها من حيث الموارد الاقتصادية، وأفضلها موقعًا، ولقد انتبه المسلمون لأهمية هذه الجزيرة مبكرًا منذ عهد الصحابة؛ حيث حاولوا فتحها في عهد عبد الله بن سعد ﷺ، ثم معاوية بن حُدَيْج، ثم عقبة بن نافع، ثم عطاء بن رافع، وكان آخرهم عبد الرحمن بن حبيب وذلك سنة (١٣٥هـ= ٧٥٣م)، ثم وقعت الفتن الداخلية ببلاد المغرب بين العرب والبربر، وانشغل المسلمون عن جهاد العدوّ، الذي انتهز الفرصة وأغار على سواحل المغرب عند منطقة إفريقية؛ مما جعل المسلمون يتوحَّدُون ويتهيَّؤُن للردّ على هذا العدوان البيزنطي.

في هذه الفترة وقعت العديد من الاضطرابات بجزيرة صقلية، والتي كانت تتبع الدولة البيزنطية؛ حيث وقع نزاع على حكم الجزيرة بين رجلين أحدهما اسمه يوفيميوس (وتُسَمِّيه المراجع العربية فيمي)، والآخر اسمه بلاتريوس (وتُسَمِّيه المراجع العربية بلاطه)، وانتصر بلاطه على فيمي الذي فرَّ هاربًا إلى إفريقية، واستغاث بزيادة الله ابن الأغلب حاكم إفريقية، وطلب منه العون في استعادة حكمه على الجزيرة، فرأى زيادة الله فيها فرصة سانحة لفتح الجزيرة.

استنفر زيادة الله الناس للجهاد وفتح صقلية، فهرعوا لتلبية النداء، وجُمِعَت السفن من مختلف السواحل، وبحث ابن الأغلب عمَّن يجعله أميرًا لتلك الحملة البحرية الكبيرة فلم يجد خيرًا ولا أفضل من البطل المقدام أسد بن الفرات؛ وذلك على الرغم من كبر سنه في هذه الفترة ربيع الأول (٢١٢هـ= ٨٢٧م)؛ أي: سبعين عامًا، وكان هذا الاختيار دليلاً على فورة المشاعر الإسلامية في هذه الفترة، والأثر الكبير لعلماء الدين الربانيين على الشعب المسلم، وكان أسد بن الفرات يُبدي رغبته في هذه الغزوة كواحد من المسلمين؛ لأنه كان محبًّا للجهاد، عالمًا بمعاني ومقتضيات آيات النفرة في سبيل الله ودور العلماء في ذلك، وأيضًا كان يكره الشهرة والرياء.

ولكن ابن الأغلب أصرَّ على أن يتولَّى أسد بن الفرات قيادة الحملة العسكرية -وأيضًا- يكون قاضيًا للحملة؛ أي جمع له القيادة الميدانية والروحية؛ لعلمه بمكانة أسد بن الفرات وأثره في الناس وحبِّهم له.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجهاد حتى الممات

خرج أسد بن الفرات من القيروان في حملة عسكرية كبيرة قوامها عشرة آلاف من المجاهدين المشاة، وسبعمائة فارس بخيولهم في أكثر من مائة سفينة كبيرة وصغيرة، خرجت من ميناء سوسة على البحر المتوسط وسط جمع عظيم من أهل البلد، الذين خرجوا لتوديع الحملة المجاهدة.

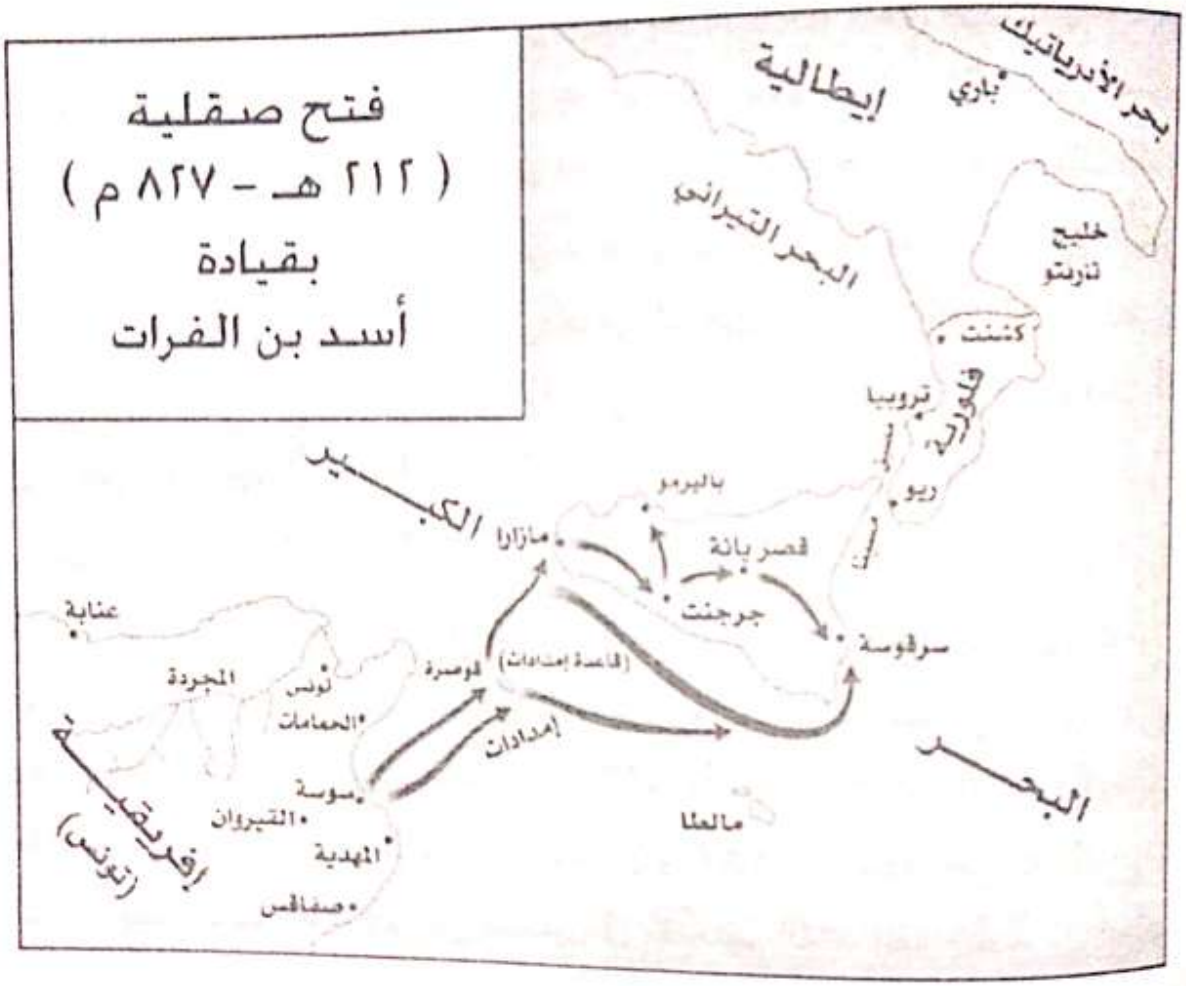

تحرَّك الأسطول الإسلامي يوم السبت ١٥ ربيع الأول سنة (٢١٢هـ= ٨٢٧م) متجهًا إلى جنوبي جزيرة صقلية، وبالفعل وصلت الأساطيل المسلمة إلى بلدة «مازر» في طرف الجزيرة الغربي بعد ثلاثة أيام من الإبحار؛ أي يوم الثلاثاء، ونفذ أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرقي الجزيرة، وهناك وجد قوَّة رومية بقيادة الثائر فيمي، الذي طلب مساعدة ابن الأغلب لاستعادة حكمه على الجزيرة، وعرض فيمى على أسد بن الفرات الاشتراك معه في القتال ضدَّ أهل صقلية، ولكنَّ القائد المسلم -العالم بأحكام شريعته، المتوكل على الله ﷻ وحده- يرفض الاستعانة بالمشركين تأسِّيًا بالنبي ﷺ، الذي رفض الاستعانة باليهود يوم أُحُد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستولَّى أسد على العديد من القلاع أثناء سيره؛ مثل: قلعة بلوط والدب والطواويس، حتى وصل إلى أرض المعركة عند سهل بلاطه نسبة إلى حاكم صقلية، وعندها أقبل بلاطه في جيشٍ عدته مائة ألف مقاتل؛ أي عشرة أضعاف الجيش المسلم، وعندها قام أسد بن الفرات في الناس خطيبًا؛ فَذَكَّرهم بالجنة وموعود الله ﷻ لهم بالنصر والغلبة، وهو يحمل اللواء في يده، ثم أخذ يتلو آيات من القرآن، ثم اندفع للقتال والتحم مع الجيش الصقلي الجرَّار، واندفع المسلمون من ورائه، ودارت معركة طاحنة لا يُسمع منها سوى صوت قعقعة السيوف وصهيل الخيول، والتكبير الذي يخترق عنان السماء، والأسد العجوز أسد بن الفرات -الذي جاوز السبعين- يُقاتل قتال الأبطال الشجعان؛ حتى إن الدماء كانت تجري على درعه ورمحه من شدَّة القتال وكثرة مَنْ قتلهم بنفسه وهو يقرأ القرآن ويُحَمِّس الناس، وتمادت عزائم المسلمين حتى هزموا الجيش الصقلي شرَّ هزيمة، وفرَّ بلاطه من أرض المعركة، وانسحب إلى مدينة قَصْرِيَانِه، ثم غلبه الخوف من لقاء المسلمين ففرَّ إلى إيطاليا، وهناك قُتل على يد بني دينه؛ بسبب جُبنه وإحجامه عن قتال المسلمين.

وفاته

بعد هذا الانتصار الحاسم واصل أسد بن الفرات زحفه حتى وصل إلى مدينة سَرَقُوسَة ومدينة بَلَرْم؛ فشدَّد عليها الحصار، وجاءته الإمدادات من إفريقية، واستطاع أسد بن الفرات أن يحرق الأسطول البيزنطي، الذي جاء لنجدة بَلَرْم، وأوشكت المدينة على السقوط، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حيث حلَّ بالمسلمين وباءٌ شديد، أغلب الظنِّ أنه الكوليرا أو الجدري؛ فهلك بسببه عدد كبير من المسلمين في مُقَدِّمتهم القائد المقدام أسد بن الفرات، فلاقى الموت مرابطًا مجاهدًا بعيدًا عن أهله وبيته وحلقات دروس العلم، مجافيًا لفراشه وداره، مُؤْثِرًا مرضاة ربه ونصرة دينه، وذلك في شعبان سنة (٢١٣هـ= ٨٢٨م)، ودُفن بمدينة قَصْرِيَانِه؛ وهكذا جمع أسد بن الفرات بين خصال الخير كلها من علم وورع، وجهاد وشهادة، فيا ليت علماء الأُمَّة يتعلَّمُون شيئًا من سيرة هذا البطل، الذي سقط من ذاكرة المسلمين الآن.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمود بن سُبُكْتِكِين

الاسم الكامل	محمود بن ناصر الدين سبكتكين
اللقب	محطم الصنم الأكبر وقاهر الهند
تاريخ الميلاد	٣٦٠ هـ/ ٩٧١ م
مكان الميلاد	غزنة - أفغانستان
تاريخ الوفاة	٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م
مكان الوفاة	غزنة - أفغانستان
الانتماء	الدولة الغزنوية - الخلافة العباسية
أعداؤه	كفار الهند

هو السلطان الذي وَطِئَتْ خيله أماكن لم تَطَأْها خيل المسلمين من قبل، ورَفَعَ رايات الإسلام في بلاد لم يدخلها الإسلام من قبل.

هو يمين الدولة وأمين الملَّة، ناصر الحقِّ ونظام الدين، وكهف الدولة، أبو القاسم محمود بن سُبُكْتِكِين، محطِّم الصنم الأكبر، وقاهر الهند، والسلطان المجاهد العظيم.

نشأته

وُلِدَ محمود بن سُبُكْتِكِين في المحرم سنة (٣٦٠هـ= ٩٧١م) في مدينة غزنة -وهي تقع الآن في أفغانستان- وأبوه مؤسِّس الدولة الغزنوية، فنشأ وتربَّى تربية القادة الأبطال، واشترك منذ حداثته في محاربة أعداء الإسلام من الهنود والبويهيين، وكان له أثر كبير في معركة نيسابور التي انتصر فيها والده سُبُكْتِكِين على البويهيين، وذلك كله وهو في مقتبل الشباب.

أبوه هو ناصر الدين سُبُكْتِكِين مُؤَسِّس الدولة الغزنوية، الذي ولي غزنة سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وكان يتمتَّع بهمة عالية، وكفاءة نادرة، وطموح عظيم، وكان عادلًا خيِّرًا، حسنَ العهد، محافظًا على الوفاء، كثيرَ الجهاد؛ فنجح في أن يبسط نفوذه على البلاد المجاورة، وشرع في غزو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أطراف الهند، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك؛ حتى تمكَّن من تأسيس دولة كبيرة في جنوبي غرب آسيا، حتى توفي سنة (٣٨٧هـ= ٩٩٧م)، فانعقدت البيعة لابنه إسماعيل، وكان مُتَّصِفًا بسوء التدبير، وأراد أن يحرم ميراث محمود من أبيه، ولمَّا ولي إسماعيل غزنة استضعفه الجند واستولوا عليه، واشتدوا عليه في الطلب حتى أنفد خزائن أبيه؛ فقام عليه الأمير محمود، وتغلَّب عليه، واستطاع أن يأخذ غزنة لنفسه، وأعلن نفسه سلطانًا على البلاد.

محمود بن سُبُكْتِكِين سلطانًا على البلاد

عندما تقلَّد محمود بن سُبُكْتِكِين مقاليد السلطنة أظهر السُّنَّةَ وقمع الرافضة والمعتزلة، ومشى في الناس بسيرة عمر بن الخطاب ﷺ؛ فكان ﷺ يُعظِّم المشايخ ويُقَرِّبهم ولا يستغنى عن مشورتهم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «ولما كانت مملكة محمود بن سُبُكْتِكِين من أحسن ممالك بني جنسه؛ كان الإسلام والسُّنَّة في مملكته أعزَّ؛ فإنه غزا المشركين من أهل الهند، ونشر من العدل ما لم ينشره مثله، فكانت السُّنَّة في أيامه ظاهرة، والبدع في أيامه مقموعة»[1].

وقد أقام السلطان محمود الخطبة للخليفة القادر بالله في بغداد، وأقرَّه الخليفة العباسي سلطانًا على ما تحته من بلاد خراسان والجبال والسند والهند وطبرستان، وأرسل له الخليفة خلعة فاخرة جدًّا لم يُرسل مثلها قط خليفة إلى أي سلطان من قبل، وخلع عليه الألقاب الكثيرة: «يمين الدولة، وأمين الملة، وناصر الحقِّ، ونظام الدين، وكهف الدولة»، وبعد قليل سيُضيف محمود بن سُبُكْتِكِين إلى نفسه لقب: «قاهر الهند ومحطِّم الصنم الأكبر».

وكان السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين حازمًا عادلًا، لا يتجرَّأ أحدٌ على إظهار المعصية في دولته من خمر أو معازف أو أفكار المعتزلة والروافض. وكان يُعَظِّم العلماء ويُكرمهم، فقصدوه من أقطار البلاد، وكان عادلًا في رعيَّته رفيقًا بهم محسنًا إليهم، وكان كثير الغزو والجهاد، وفتوحاته مشهورة.

وكان السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين نصيرًا كبيرًا للأدب والفنون، وكان يعيش في عهده كثير من العلماء والشعراء؛ منهم: أبو ريحان البيروني (الفيزيائي والعالم الموسوعي)، وأبو

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٤/ ٢٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفتح البستي، والعسجدي، والبيهقي، والفرخي، والمنوجهري، والعنصري، والكسائي، والدقيقي، والغضائري.. وغيرهم.

تقوية وتثبيت الجبهة الداخلية

بدأ السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين نشاطًا جهاديًا واسعًا؛ أثبت أنه من أعاظم الفاتحين في تاريخ الإسلام؛ حتى قال المؤرِّخون: «إن فتوحه تعدل في المساحة فتوح الخليفة عمر بن الخطاب». وقد اتَّبع سياسة جهادية في غاية الحكمة؛ تقوم أساسًا على تقوية وتثبيت الجبهة الداخلية عسكريًا وسياسيًا وعقائديًا وهو الأهم؛ فعمل على ما يلي:

١- القضاء على كل المذاهب والعقائد الضالَّة المخالفة لعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة؛ مثل: الاعتزال، والتشيع، والجهمية، والقرامطة، والباطنية. والعمل على نشر عقيدة السلف الصالح بين البلاد الواقعة تحت حكمه.

٢- قضى على الدولة البويهية الشيعية؛ والتي كانت من عوامل التفرُّق والانحلال في الأُمَّة الإسلامية كلها؛ حتى بلغ بها الأمر في التفكير بالعودة إلى العصر الساساني الفارسي، واتخاذ ألقاب المجوس؛ مثل شاهنشاه، وبالقضاء على تلك الدولة الرافضية قَدَّم السلطان محمود أعظم خدمة للإسلام.

٣- أزال الدولة السامانية؛ التي بلغت حالة شديدةَ السوء من الضعف والانحلال أثَّرَتْ بشدَّة على سير الحملات الجهادية والفتوحات على الجبهة الهندية.

٤- أدخل بلاد الغور في الإسلام؛ وهي في وسط أفغانستان الآن، وهي مناطق صحراوية شاسعة، وأرسل إليهم مُعَلِّمين ودعاةً وقُرَّاءً، وقضى على دولة القرامطة الصغيرة بالمُلْتَان بباكستان الآن، وكان يقودها رجل اسمه أبو الفتوح داود، وأزال عن هذه البلاد العقائد الضالَّة والفرق المنحرفة؛ مثل: الباطنية والإسماعيلية.

٥- أعلن خضوع دولته الضخمة وتبعيتها للخلافة العباسية ببغداد، وخطب للخليفة العباسي القادر بالله، وتصدَّى لمحاولات وإغراءات الدولة الفاطمية للسيطرة على دولته، وقام بقتل داعية الفاطميين التاهرتي، الذي جاء للتبشير بالدعوة الفاطمية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببلاد محمود بن سُبُكْتِكِين، وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي وقال: «كان يركبها رأس الملحدين، فليركبها رأس الموحِّدين».

وهكذا ظلَّ السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين يُرَتِّب للبيت من الداخل، ويُقَوِّي القاعدة إيمانيًّا وعقائديًّا وعسكريًّا، ويُكَوِّن صفًّا واحدًا استعدادًا لسلسلة الحملات الجهادية الواسعة لفتح بلاد الهند.

فتوحاته في الهند

ظلَّ فتح الهند حُلْمًا كبيرًا يُراود الخلفاء والسلاطين طيلة أربعة قرون؛ منذ عهد عمر بن الخطاب ﷺ وقد أُرسلت في ذلك الحملات والجيوش لفتح تلك البلاد الشاسعة، وكانت أُولى الحملات الناجحة في عهد الوليد بن عبد الملك على يد محمد بن القاسم الثقفي؛ فتوغَّل في شمال الهند وفتح مدينة الدَّيْبُل وأقام بها مسجدًا، وترك بها حامية من أربعة آلاف جندي، وأصبحت الدَّيْبُل أول مدينة عربية في الهند.

ثم توالت الحملات؛ ولكنْ لم تكن في مثل قوَّة الحملات الأولى أيام الأمويين، فضعُفَ وجودُ المسلمين في الهند، وظلَّ المسلمون في عهد الدولة العباسية محافظين على ما فتحوه، وتوسَّعُوا قليلاً في ضمِّ أجزاء أخرى إلى دولتهم، حتى سيطر المسلمون على المنطقة الواقعة بين كابل وكشمير والمُلْتَان، إلى أن يسَّر الله فتح الشمال الهندي كله، ومهَّدَ الطريق للفاتحين من بعده على يد بطلنا السلطان المجاهد محمود بن سُبُكْتِكِين؛ حيث قاد محمود بن سُبُكْتِكِين ست عشرة حملة عسكرية إلى شمال الهند؛ فقضى على ملوكها الواحد تلو الآخر؛ فقاد حملة ضدَّ الملك الهندي جايبال وذلك سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠١م)؛ وكان أكبر ملوك الهند على الإطلاق، وأكبر عقبة في وجه الدعوة الإسلامية، وقاد -أيضًا- حملة ضد الملك انندبال سنة (٣٩٨هـ= ١٠٠٧م)، وواجه الملك ناكر كوت سنة (٤٠٠هـ= ١٠٠٩م) وألزمه بدفع الجزية، وواجه -أيضًا- الملك راجا ناندا سنة (٤١٠هـ= ١٠١٩م) وأدَّت تلك المعركة إلى انتشار واسع للإسلام في منطقة كالنجار، وكان قد قضى على ملك الكجرات بيدا سنة (٤٠٩هـ= ١٠١٨م).

كانت هذه الفتوح بفضل الله أولاً ثم بفضل سلاح الفرسان الذي أنشأه محمود بن سُبُكْتِكِين؛ الذي وصل عدده -في رواية بعض المؤرِّخين العرب والمستشرقين- إلى مائة ألف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فارس مسلَّحِين بأحدث وأفضل الأسلحة، وسلاح الفيلة الذي كان السلاح الرئيسي في معارك المسلمين في الهند، وكان يهتمُّ السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين بهذا السلاح إلى حدٍّ كبير؛ حتى إنه لربما يُصالح بعض ملوك الهند مقابل عدد من الفيلة.

سومنات والصنم الأكبر

ظلَّ السلطان محمود منتصرًا في معاركه ضدَّ الهنود منتقلاً من نصر إلى نصر، وكان السلطان محمود كلَّما هدم صنمًا، قالت الهنود: «إن هذه الأصنام والبلاد قد سخط عليها الإله سومنات؛ ولو أنه راضٍ عنها لأهلك مَنْ قصدها بسوء»[1].

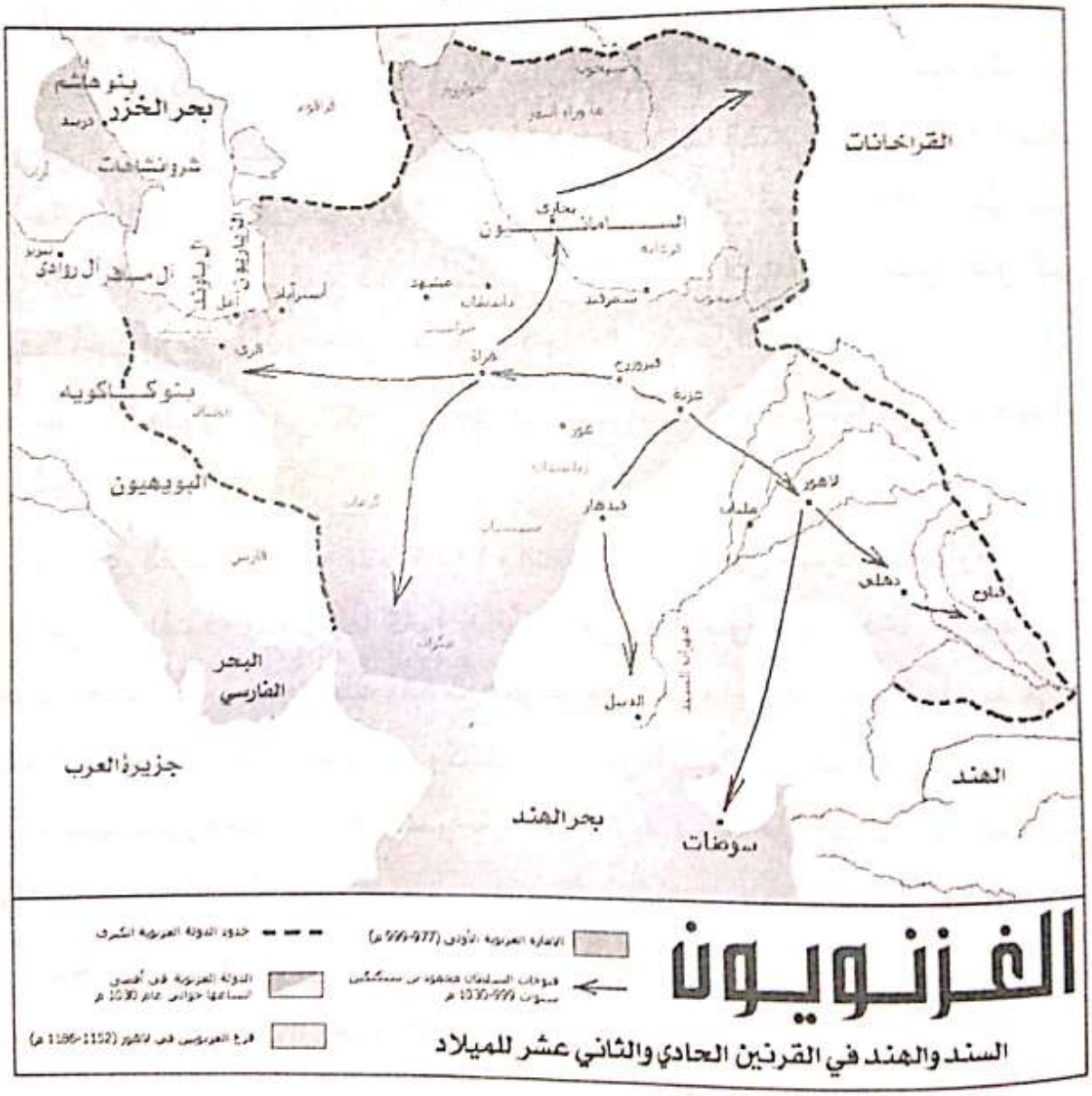

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ٦٨٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فسأل السلطان محمود عن سومنات هذا؟ فقيل له: «إنه أعظم أصنام الهنود». وكان الهنود يحجُّون إلى هذا الصنم ليلة خسوف القمر؛ فتجتمع إليه عوالم لا تُحصى، وكان الهنود يزعمون أن الأرواح بعد الموت تجتمع إليه، فيبثّها فيمَنْ يشاءُ بِنَاءً على التناسخ، وكان المدُّ والجزر عندهم هو عبادة البحر لسومنات، وكانوا يقذفون إليه كلَّ نفيسٍ، وكانت ذخائرهم كلها عنده، وكانت له أوقاف تزيد على عشرة آلاف ضيعة، وكان يقوم عند الصنم ألف رجل في كلِّ يوم للعبادة، وثلاثمائة لحلق رءوس الزوَّار ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يُغَنُّون ويرقصون، فعزم السلطان محمود على هدم هذا الصنم، وقاد جيوشه بنفسه إلى أن وصل إلى سومنات.

السلطان يرفض الأموال والهدايا

عرض الهنود على السلطان محمود أموالًا جزيلة ليترك لهم هذا الصنم الأعظم، فأشار مَنْ أشار من الأمراء على السلطان محمود بأخذ الأموال وإبقاء هذا الصنم لهم؛ للمجهود الضخم والأموال الطائلة التي أُنفقت على تلك الحملة الجهادية، فقال: «حتى أستخير الله ﷻ». فلمَّا أصبح قال: «إني فكَّرْتُ في الأمر الذي ذُكِرَ فرأيتُ أنه إذا نُوديتُ يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أَحَبُّ إليَّ من أن يُقال: الذي ترك الصنم لأجل مال يناله من الدنيا»[(١)].

الله أكبر! هذه والله! هي الكرامة، وهذا منتهى العبودية لله ﷻ؛ فقد جعل فتوحاته كلها لله، ومن أجل إعلاء كلمة الله.

وفي ذي القعدة ٤١٦هـ= يناير ١٠٢٦م انتصر المسلمون على الهنود بعد مقاومة عنيفة، وقد قُتل من الهنود خمسون ألفًا كانوا يُدَافِعُون عن معبد سومنات، ودخل محمود المعبد وحطَّم الصنم الأكبر، فوجد عليه وفيه من الجواهر والذهب والجواهر النفيسة ما يزيد على ما أنفقه في الحملة بأضعاف مضاعفة، وكانت عنده خزانة فيها عدد كثير من الأصنام ذهبًا وفضة عليها ستور معلقة بالجوهر منسوجة بالذهب تزيد قيمتها على عشرين ألف ألف دينار (أي عشرين مليونًا)[(٢)]!

سبحان الله، أراد أمراء الجيش أن يتركوا الصنم مقابل أموال جزيلة، وبعدما رأوا ما بداخل هذا الصنم من أموال حمدوا الله.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون، ٤/ ٤٩٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفاة السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين

ظلَّ السلطان محمود في جهاد دائم لا يَكَلُّ ولا يَمَلُّ؛ حتى لازمه مرض في البطن أواخر أيامه، وكان يزداد عليه يومًا بعد يوم، وكان يتحامل على نفسه أمام الناس، وكان لا يستطيع أن يُكَلِّم الناس إلَّا مُتَّكِئًا من شدَّة المرض، ومات رَحِمَهُ اللَّهُ في غزنة يوم الخميس ٢٣ من ربيع الآخر (٤٢١هـ= ١٠٣٠م)، وقبره بها ما زال معروفًا، وكانت مدَّة حكمه ٣٥ سنة، وبلغت رايته الجهادية أماكن لم تبلغها راية قطُّ، كما أقام شعائر الإسلام في أقصى ربوع الأرض.

❊ ❊ ❊

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألب أرسلان

الاسم	محمد
اللقب	السلطان ألب أرسلان
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	غير معروف
تاريخ الوفاة	٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م
مكان الوفاة	غير معروف
الانتماء	دولة السلاجقة – الخلافة العباسية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

هو السلطان محمد الملقَّب ألب أرسلان؛ أي الأسد الشجاع، قائد المسلمين في معركة ملاذكرد، وهي من أيام المسلمين الخالدة؛ مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، والزَّلاَّقَة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيَّرت وجه التاريخ، وأثَّرت في مسيرته، وكان انتصار المسلمين في ملاذكرد نقطة فاصلة؛ حيث قضت على سيطرة دولة الروم على أكثر مناطق آسيا الصغرى، وأضعفت قوَّتها، ولم تَعُدْ كما كانت من قبل شوكة في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما أنها مهَّدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوَّة السلاجقة المسلمين، وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتَّب على ذلك أن الغرب الأوربي لم يَعُدْ يعتمد عليها في حراسة الباب الشرقي لأوربا ضد هجمات المسلمين، وبدأ يُفَكِّرُ هو في الغزو بنفسه، وأثمر ذلك عن الحملة الصليبية الأولى.

السلاجقة

نجح السلاجقة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري في إقامة دولة قوية في خراسان وبلاد ما وراء النهر على حساب الدولة الغزنوية، وأعلنوا تبعيَّتهم للخلافة العباسية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم لم تلبث هذه الدولة أن اتسعت بسرعة هائلة؛ فسيطرت على إيران والعراق، وتوَّج «طغرل بك» إنجازاته العسكرية بدخول بغداد في (٢٥ من رمضان ٤٤٧هـ= ٢٣ من ديسمبر ١٠٥٥م)، وبدأ عصر جديد للدولة العباسية، أطلق عليه المؤرخون عصر نفوذ السلاجقة؛ حيث كانت السلطة الفعلية في أيديهم، ولم يبقَ للخليفة سوى بعض المظاهر والرسوم.

ويُعَدُّ طغرل بك من كبار رجال التاريخ؛ فهو المؤسِّس الحقيقي لدولة السلاجقة؛ فقد نشأت على يديه، ومدَّتْ سلطانها تحت بصره، وغدت أكبر قوَّة في العالم الإسلامي، ونفخت الرُّوح في جسد الدولة العباسية الواهن؛ فدبَّت فيه الحياة، بعد أن أوشكت على الموت، منذ أن أعلن «البَسَاسِيري» أحد قادة الجند تبعية بغداد للدولة الفاطمية في مصر، في سابقة لم تحدث في تاريخها.

نشأته

تُوفِّي طغرل بك في سنة (٤٥٥هـ= ١٠٦٣م) دون أن يترك ولدًا يخلفه على سدَّة الحكم، فشبَّ صراع على الحكم، حسمه ابن أخيه ألب أرسلان لصالحه بمعونة وزيره نظام الملك؛ المعروف بالذكاء وقوَّة النفوذ، وسعة الحيلة، وتنوُّع الثقافة.

وكان ألب أرسلان كعمِّه طغرل بك قائدًا ماهرًا مقدامًا، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلُّع إلى إخضاع أقاليم جديدة وضمِّها إلى دولته، كما كان مشتاقًا إلى الجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له؛ كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت رُوح الجهاد الإسلامي هي المحرِّكة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيمًا للجهاد، وحريصًا على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورَفْع راية الإسلام خفَّاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية.

ولقد بقي سبع سنوات يتفقَّد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسُّع خارجي.

فتوحاته

عندما اطمَأَنَّ ألب أرسلان على استتباب الأمن في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يُخَطِّط لتحقيق أهدافه البعيدة؛ وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السُّنِّيَّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونفوذ السلاجقة، فأعدَّ جيشًا كبيرًا اتَّجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمَّها إلى مملكته، كما عَمِل على نشر الإسلام في تلك المناطق. وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة (٤١٤هـ= ١٠٢٣م) وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلًا من الخليفة الفاطمي سنة (٤٦٢هـ= ١٠٧٠م). ثم أرسل قائده التركي أتنسز بن أوق الخواوزمي في حملة إلى جنوب الشام، فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد الفاطميين، ولم يستطعِ الاستيلاء على عسقلان؛ التي كانت تُعتبر بوابة الدخول إلى مصر.

معركة ملاذكرد

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان رومانوس ديوجينس إمبراطور الروم، فصمَّم على القيام بحركة مضادَّة للدفاع عن إمبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة ملاذكرد في عام (٤٦٣ هـ= أغسطس ١٠٧١ م)؛ فقد كان تعداد جند السلطان خمسة عشر ألفًا وجند الروم مائتي ألف، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال؛ حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين.

فلمَّا كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجهت الفئتان، ونزل السلطان عن فرسه وسجد لله ﷻ، ومَرَّغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين، ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وأُسِرَ ملكهم رومانوس، فلمَّا أُوقف بين يدي السلطان ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع، وقال: «لو كنتُ أنا الأسير بين يديك ما كنتَ تفعل؟» قال: «كل قبيح». قال: «فما ظنُّك بي؟» فقال: «إمَّا أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإمَّا أن تعفو وتأخذ الفداء وتُعيدني». قال: «ما عزمتُ على غير العفو والفداء». فافْتُدِي منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، فقام بين يدي السلطان وسقاه شربة من ماء وقَبَّل الأرض بين يديه، وقَبَّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكرامًا، وأطلق له السلطان عشرة ألف دينار ليتجهَّز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيَّعه فرسخًا، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الوزير نظام الملك

وما كان للسلطان ألب أرسلان أن يُحَقِّق كل هذه الإنجازات بدون جهود وزيره العظيم نظام الملك، الذي لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظامية»، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين، وفي مقدِّمتهم حُجَّة الإسلام «أبو حامد الغزالي».

وقد ارتفع شأن ألب أرسلان بعد انتصاره الباهر، وصار مرهوب الجانب في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وحقَّق شهرة واسعة هو ووزيره نظام الملك؛ الذي أسهم في وضع سياسة السلاجقة، وأشرف على تنفيذها.

وفاته

لم يهنأ السلطان ألب أرسلان كثيرًا بما حقَّقه، ولم يجنِ ثمار نصره، ويُواصل فتوحاته؛ فقد قُتِلَ بعد عام ونيِّف من موقعة ملاذ كرد على يد أحد الثائرين عليه، وهو في الرابعة والأربعين من عمره في (١٠ من ربيع الأول ٤٦٥ هـ= ٢٩ من نوفمبر ١٠٧٢م)، وخلفه ابنه ملكشاه صاحب الإنجازات العسكرية والحضارية في القرن الخامس الهجري.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عماد الدين زنكي

الاسم الكامل	عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله
اللقب	الملك المنصور عماد الدين
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	غير معروف
تاريخ الوفاة	٥٤١ هـ / ١١٤٦ م
مكان الوفاة	قلعة جعبر - سورية
الانتماء	الدولة السلجوقية - الخلافة العباسية
أعداؤه	الصليبيون

هو عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله، رائد الجهاد الإسلامي ضدَّ الوجود الصليبي بالشام؛ وذلك بعد أن ظنَّ الجميع أنهم لن يخرجوا أبدًا من بلاد الإسلام، هذا البطل الذي كسر أسطورة الصليبيين الذين لا يُقهرون، هو البطل العظيم عماد الدين زنكي، هو الملك المنصور عماد الدين قائد عسكري وحاكم مسلم، تركي الأصل، حكم أجزاءً من بلاد الشام وحارب الصليبيين، كان شديد الهيبة، عظيم السياسة، يحمي الضعفاء، ويخافه الأقوياء، عمر البلاد وكانت قبله خرابًا، وأشاع الأمن وقطع دابر اللصوص، وكان الناس في زمانه بأنعم عيش.

البطل ابن البطل

كان من النتائج الطيبة لاهتمام الوزير العظيم «نظام الملك» بالعلم والمدارس وأهل الصلاح خلال وزارته لسلاطين السلاجقة العظام ألب أرسلان وولده ملكشاه، وحرصه على استعمال الأَكْفَاء وأصحاب الديانة في المناصب المهمَّة والقيادية - أن سطع نجم العديد من الرجال والأبطال على مستوى عالٍ من الكفاءة والمسئولية؛ وكان لهم الأثر العظيم في حفظ بلاد الإسلام؛ من هؤلاء القائد «آق سنقر بن عبد الله التركي»، الملقَّب بقسيم الدولة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت له مكانة عظيمة عند السلطان ملكشاه السلجوقي؛ حتى إنه قد جعله واليًا على حلب، وقد قُتل هذا القائد في دفاعه عن الدولة السلجوقية ضدَّ الخارجين عليها، ولم يترك وراءه سوى ولد صغير في العاشرة من العمر؛ هو بطلنا الفذُّ ورائد الجهاد ضدَّ الصليبيين عماد الدين زنكي.

تولَّى الأمير كربوقا (كربوغا) أمير الموصل تربية عماد الدين زنكي، وتعهَّده بالعناية والرعاية، وتعليمه فنون الفروسية والقيادة والقتال، وترقَّى في سلك الجندية حتى صار مُقَدَّمَ عساكرَ مدينة واسط، ثم ظهرت كفاءته القتالية سنة (٥١٧هـ= ١١٢٣م) في قتاله مع الخليفة العباسي المسترشد بالله ضدَّ أحد الثوار الشيعة واسمه «دبيس بن صدقة»؛ وهذا ما جعل السلطان السلجوقي محمودًا يُرَقِّيه ليُصبح قائد شِحْنَة بغداد سنة ٥٢١ هـ، ويُعطيه لقب الأتابك؛ أي: مربِّي الأمير؛ ذلك لأنه توسَّم فيه الخير والصلاح والنجابة، فعهد إليه بتربية ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه.

من قيادة إلى ولاية

بعد أن أصبح عماد الدين زنكي قائدًا، حدث تغيُّر كبير في مجرى الأحداث في منطقة الشام الملتهبة؛ حيث تُوُفِّيَ أمير الموصل عزُّ الدين مسعود، وحاول بعض المنتفعين تولية ولده الصغير مكانه، ولكنَّ قاضي الموصل بهاء الدين الشهرزوري ذهب إلى السلطان محمود وطلب منه تعيين أمير قوي وكُفْء للموصل، التي على حدود الشام حيث الوجود الصليبي الكثيف في سواحل الشام منذُ ثلاثين سنة، والذي أسفر عن قيام أربع ممالك صليبية (أنطاكية - الرها - طرابلس - بيت المقدس) في الشام، هذا غير سيطرة الصليبيين على أغلب بلاد الشام.

وبعد تفكير سريع وإمعان نظر عميق قرَّر السلطان محمود أن يُسند ولاية الموصل وأعمالها إلى بطلنا عماد الدين زنكي، الذي لم يجد السلطانُ محمود أفضل منه لهذه المهمَّة، وكانت هذه الولاية سنة (٥٢١هـ= ١١٢٧م)، وكان هذا التاريخ إيذانًا بعهد جديد في الصراع ضد الصليبيين وفاتحة خير على الأُمَّة كلها.

الأوضاع على الجبهة الشامية

عندما تولَّى عماد الدين زنكي الموصل تسنَّى له أن يرى الأوضاع على الجهة الشامية عن قرب؛ حيث كانت الصورة قاتمةً؛ فالصليبيون قد احتلُّوا معظم سواحل الشام، وأقاموا أربع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إمارات صليبية بالشام والجزيرة السورية، أمَّا المدن والحصون التي تحت حُكم المسلمين فهي تُعاني من الفُرقة والاختلاف والتنافر، وربَّما التقاتُل فيما بينها، فكلُّ والٍ على مدينة يتعامل فيها كأنه ملك مستقلٌّ عن سائر البلاد، وأغلبهم بل كلهم يَتَّقِي شرَّ الصليبيين ويتحالف الصدام معهم؛ خوفًا على ضياع ملكه وانهدام دنياه، مثل ما هو واقعٌ اليوم بين حُكَّام الدول الإسلامية، وهذا الخذلان من ولاة الأمصار يُسَهِّل على الصليبيين مهمَّتهم، وجعل وجودهم في الشام والبلاد الإسلامية يترسَّخ شيئًا فشيئًا.

أضف إلى ذلك أن الأمصار الإسلامية كلها تقريبًا كانت في حالة فوضى واضطراب، فالخلاف على أشُدِّه بين أمراء البيت السلجوقي بعضهم بعضًا، كذلك الخلاف بين السلطان مسعود السلجوقي والخليفة العباسي المسترشد بالله على أشُدِّه، ومن خلال النظر في هذه الأوضاع كلها قرَّر عماد الدين زنكي أخذ زمام المبادرة، والقيام بعملٍ لم يسبقه فيه أحدٌ، فوضع نُصب عينيه هدفًا عظيمًا طالما حَلَم المسلمون بتحقيقه، ولكن يتعدَّى نطاقه الأحلام إلى الحقيقة، قرَّر البطل تحرير بلاد الشام من الوجود الصليبي.

بناء القاعدة الصلبة

من البديهيات الأساسية في قتال أيِّ عدوٍّ وطرد أيِّ محتلٍّ وتحرير أيِّ أرضٍ أن تكون جبهة المقاومة والدفاع واحدةً صُلبةً مجتمعةً؛ إذ كيف يُجاهد المسلمون بصفٍّ ضعيفٍ ممزَّقٍ؛ لذا كان أول ما سعى عماد الدين إلى تحقيقه هو تكوين وبناء القاعدة الصلبة للمسلمين؛ وذلك بتوحيد الجبهة الداخلية لسورية، وربما كانت هذه المهمَّة هي أصعب مرحلة في مراحل الانتصار.

بدأ عماد الدين زنكي بمدينة حلب المهمَّة في المنطقة الشمالية من بلاد الشام في غرَّة المحرم سنة ٥٢٢هـ؛ أي بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل؛ وهذا ما يُوَضِّح أن هذا الرجل الفذَّ كان يملك خطَّة شاملة ورؤية واضحة مُعَدَّة سلفًا لحركته بأرض الشام، ولم يكن ضمُّه لمدينة حلب بالشيء السهل؛ فلقد ظلَّ محاصرًا لها عدَّة شهور قبل فتحها، وكان عليها بعض الطامعين المتغلِّبين، ثم قام بعدها بضمِّ مدينة حماة في السنة التالية (٥٢٣هـ= ١١٢٩م)، ثم ضمَّ مدينة سرجى ودارا، ثم حصن الأثارب وكان بيد الصليبيين، ثم انشغل عماد الدين زنكي بالخلافات العنيفة بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود؛ بل تورَّط فيها؛ وذلك لعدَّة سنوات، ثم عاد بعدها إلى هدفه الأسمى، فضمَّ عدَّة قلاع للأكراد الحميدية والهكارية وقلعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصور، وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة (٥٢٨هـ= ١١٣٤م).

استقامت معظم بلاد الشام لعماد الدين زنكي؛ عدا ما كان بيد الصليبيين ودمشق قلب الشام وحاضرته، وقد حاول زنكي ضمَّ دمشق سنة (٥٢٩هـ= ١١٣٥م) ولكنه فشل، وبقيت خارج سلطته، وبقي يُخَطِّط ويُفَكِّر في كيفية الوصول إلى دمشق.

أسد الشام

بعد أن تمَّ لعماد الدين زنكي معظم ما أراد من تكوين القاعدة الصلبة، بدأ في العمل الحقيقي والجهاد الأصيل ضدَّ أعداء الأُمَّة المحتلِّين لمقدساتها، وكان الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي يُخَطِّطُون للاستيلاء على أرض الشام وسورية كلها، ثم مصر بعدها، فلمَّا جاء أسد الشام الجديد صار غاية سعيهم الحفاظ على ما تحت أيديهم.

ولما ازدادت قوَّة عماد الدين زنكي في حلب، وثقلت وطأته على الصليبيين في الشام، فكَّرُوا في الاستعانة بإمبراطور القسطنطينية عمانوئيل، ورغم الاختلاف المذهبي بينهم؛ فهم كاثوليك وهو أرثوذكسي، فإنهم في النهاية صليبيون فوافق عمانوئيل على نجدتهم.

أصبحت بلاد الشام في موقف حرج بالغ الخطورة؛ فإمبراطور بيزنطة عمانوئيل جاءها بجيوش جرارة سنة (٥٣٢هـ= ١١٣٨م) واخترق آسيا الصغرى، ولم يقدر أحد من سلاجقة الروم على إيقافه، ودخل إلى سورية بعد أن استولى على مدينة بزاعة؛ وهي قريبة من حلب، فغدر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان؛ فقتلهم وسبى نساءهم، وهنا وقعت المنطقة بين مطرقة إمبراطور بيزنطة وسندان الصليبيين الفرنجة بالشام، وهنا برز رجل المهامِّ الصعبة.

فبعد نظر وتمعُّن في هذه النازلة العامَّة قرَّر عماد الدين زنكي العمل في اتجاهين:-

الاتجاه الأول: مناوشة إمبراطور بيزنطة بشنِّ حرب عصابات على معسكره باستخدام المجاهدين المتطوعين في الشام ضدَّ الأعداء بالكرِّ والفرِّ، وإظهار القوَّة والشجاعة، وإرسال رسائل تهديدٍ ووعيدٍ لهذا الإمبراطور؛ وهذا على الرغم من الفارق الضخم بين القوَّتين، وذلك من أجل إرهاب البيزنطيين ومنعهم من التقدُّم.

الاتجاه الثاني: إيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة؛ فلقد كان عماد الدين زنكي من دواهي العصر ذكاءً وفطنةً وحدَّة بصيرة، فلقد استغلَّ الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل إلى إمبراطور بيزنطة يُخَوِّفُوه من نكصان الفرنجة للعهود وأنهم يتربَّصُون به، فإن فارق مكانه الذي فيه «قلعة شيزر» بالقرب من حماة سيتخلَّفُون عن نصرته. ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يُخَوِّفُهم من إمبراطور بيزنطة، ويقول لهم: «إنْ مَلَكَ بالشام حصنًا واحدًا ملك بلادكم جميعًا»[1].

ونجحت خطَّة عماد الدين زنكي؛ ووقع الخلاف بين الطرفين، وانسحب الإمبراطور من الشام، وترك المجانيق وأسلحة كثيرة بحالتها؛ حيث غنمها جيش الشام، وحرَّرُوا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين، وعظمت هيبته في صدور الصليبيين، وأثبت للجميع أنه رجل المهامِّ الصعبة، وقد حاول بعدها فتح دمشق؛ ولكنه فشل لحصانتها وقوَّة حاكمها معين الدين أنر، فلم يستطع عماد الدين تحقيق حُلْمه في أهمِّ مدن الشرق.

فتح الرها

عندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتلَّ الصليبيون الرها، وأقاموا بها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة (٤٩٢هـ= ١٠٩٩م). كان أميرها صليبيًّا اسمه «جوسلين»؛ ففهم من تحرُّكات عماد الدين زنكي أنه يُخَطِّط لفتح الرها، فعمد إلى تقوية دفاعاتها، والمبالغة في تحصينها، وظلَّ مقيمًا في الرها لا يُفارقها أبدًا؛ رغم أن زوجته وأولاده بفرنسا، ولكنه صبر على فراقهم من أجل الدفاع عن الرها.

كان عماد الدين زنكي يعرف قَدْر جوسلين ودهاءه وحُنْكَتَهُ؛ لذلك وضع خطَّة في غاية الذكاء؛ فهو كما يقولون: «لا يفلُّ الحديد إلَّا الحديد». فلقد أظهر عماد الدين أنه مشغول بحرب القبائل الكردية، التي تُسيطر على قلاع كثيرة في منطقة ديار بكر (جنوب تركيا الآن)، ولا تقبل الانضمام لصفِّ عماد الدين زنكي لدواعي عصبية وقبلية، وبالفعل انطلت هذه الخدعة على جوسلين، الذي خفَّف من شدَّة التحصينات، وتراخى في دفاعاته، حتى إنَّه قد سافر لزيارة أهله في فرنسا، وكان عماد الدين زنكي قد بثَّ العيون التي تنقل له الأخبار ليلَ نهارَ، فلمَّا علم مغادرة جوسلين وتراخت الدفاعات، نادى في معسكر جيشه بالاستعداد للهجوم على الرها.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان عماد الدين من أشجع الناس وأقواهم وأجرئهم في القتال، لا يُجاريه أحدٌ من جنده في ذلك، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام، وقال: «**لا يأكل معي على المائدة إلا من يطعن معي غدًا باب الرها**». وهي كناية عن شدَّة القتال والشجاعة؛ لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل إلى باب المدينة، ولا يفعل ذلك إلَّا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلَّا أميرٌ واحدٌ وصبيٌّ صغيرٌ؛ فقيل الأمير للصبي: «ما أنت في هذا المقام؟». فقال له عماد الدين زنكي القائد المربِّي القدوة، الذي يعرف كيف يُحَمِّس الشباب والنشء، ويُحَفِّز طاقاتهم: «دعوه فوالله! إني أرى وجهًا لا يتخلَّفُ عنِّي»[1]. وبالفعل أثمرت هذه الكلمات طاقة جبارة عند الصبي، فكان أوَّلَ طاعنٍ، وأوَّلَ بطلٍ في هذه المعركة، وفُتحت المدينة في ٦ جُمَادَى الآخرة (سنة ٥٣٩هـ=١١٤٤م)، وكان لفتحها صدًى شديدًا في العالمين الإسلامي والصليبي؛ فلقد كان أعظم انتصار حقَّقه المسلمون على الصليبيين منذُ دخولهم الشام منذ خمسين سنة، وأعاد ذاكرة الانتصارات لهم، وسرت رُوحٌ جهادية كبيرة عند المسلمين بعدها، وعادت لهم الثقة، وتغلَّبُوا على الهزيمة النفسية تجاه الصليبيين، والتي أقعدتهم عن السعي للتحرير عشرات السنين.

أمَّا الصليبيون فقد نزلت بهم أعظم المصائب، وفقدوا أهم إمارة صليبية لهم بالمنطقة، ولقد قاموا بحملتهم الصليبية الثالثة على الشام سنة (٥٤٢هـ= ١١٤٧م) لاسترجاع الإمارة ولكنهم فشلوا.

استشهاده

بعد الانتصار في الرها ضاقت السبل على أعداء الإسلام، وأصبح كيانهم الصليبي بالشام -والذي بنَوْهُ في خمسين سنة- في خطر حقيقي في ظلِّ وجود هذا الأسد الرابض، وبعد أن أعيتهم الحيل في ميادين القتال، وصار ينتصر الأسد عليهم في كل موطن من سورية، قَرَّرُوا اللجوء إلى سلاح الغدر والخيانة، والأيدي القذرة التي لا تعمل إلَّا في الظلام.

فكَّر الصليبيون في كيفية التخلُّص من عماد الدين زنكي، وبعد تفكير وتقليب فيمَنْ سيقوم بهذه المهمَّة؛ قَرَّرُوا إسناد مهمَّة الاغتيال إلى جماعة معروفة بذلك، وبالفعل وفي ٦ ربيع الآخر (٥٤١هـ= ١١٤٦م) وأثناء قيام عماد الدين زنكي بحصار قلعة جعبر المطلَّة على نهر

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفرات، قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين -بعد أن قبضوا الثمن- بالتسلُّل إلى معسكر عماد الدين زنكي، واندسوا بين حُرَّاسه، وفي الليل دخلوا عليه خيمته وهو نائم وقتلوه، تُوُفِّيَ عن ٦٤ عامًا ودُفن بصفين، وخَلَفَهُ ابنه سيف الدين غازي في الموصل، وخَلَفَهُ ابنه نور الدين محمود في حلب ثم في دمشق.

وهكذا مات البطل وترجَّل الفارس وحطَّ الراكب بعد حياة طويلة كلّها جهاد وكفاح ونصرة للإسلام وأهله، وبعد أن أحيا ما كان مندثرًا وأعاد ما كان مفقودًا، ووضع الأساس المتين لمَنْ جاء بعده، فرحمه الله رحمة واسعة، وغفر له ما كان من خطايا وزلات.

واسمع ما قاله عنه المؤرِّخون، قال ابن الأثير في وصفه: «كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته عظيم السياسة، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتَنَقُّل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكَّانًا، وكان أشجع خلق الله»(١).

وقال عنه ابن كثير الدمشقي: «وقد كان زنكي من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعًا مقدامًا حازمًا، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشدِّ الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامة»(٢).

ولعلَّ أكثر ما تميَّز به عماد الدين زنكي عن قادة زمانه هو فهمه لحقيقة المشكلات التي تُعاني منها الأُمَّة الإسلامية، وإحساسه بالمسئولية تجاه أُمَّته، وإيثاره لمصلحتها على مصلحته الخاصَّة، وعمله بمقتضى ما يجب عليه وقتها؛ لذلك فاق ملوك زمانه وعلا ذِكْرُه عنهم، ويكفيه فخرًا أنه قد خلف وراءه بطلاً عظيمًا مثله وزيادة؛ هو نور الدين محمود.

وقد لقَّب الناس عماد الدين زنكي بالشهيد لحرصه على طلب الشهادة في كل لقاء مع الأعداء؛ حتى قَدَّرها المولى جل وعلا له في آخر السعي.

* * *

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٤٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٧٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صلاح الدين الأيوبي

الاسم الكامل	يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان
اللقب	السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي
تاريخ الميلاد	٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م
مكان الميلاد	تكريت بالعراق
تاريخ الوفاة	٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م
مكان الوفاة	دمشق
الانتماء	السلطنة الأيوبية - الخلافة العباسية
أعداؤه	الصليبيون

هو الملك الناصر أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان مؤسِّس الدولة الأيوبية في مصر والشام، وهو فارس نبيل، وبطل شجاع، وقائد من أفضل مَنْ عَرَفتهم البشرية، وشهد بأخلاقه أعداؤُه من الصليبيين قبل أصدقائه وكاتِبُوا سيرته، إنه نموذج فذٌّ لشخصية عملاقة من صُنْع الإسلام، إنه البطل صلاح الدين الأيوبي محرِّر القدس من الصليبيين، وبطل معركة حِطِّين.

نشأته

وُلِدَ صلاح الدين في تَكْرِيت عام (٥٣٢ هـ= ١١٣٨م) لعائلة كردية، وكان والده محافظًا لقلعة تَكريت من قِبَلِ بهروز، وكان عمُّه أسد الدين شيركوه أحدَ القادة العظام في جيش نور الدين زنكي حاكم الموصل. ومن غريب ما وقع أن ولادة صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب بن شاذي صادفت إجبار أبيه على الخروج من تكريت، فتشاءم أبوه منه. فقال له أحدُ الحضور: «فما يُدريك أن يكون لهذا المولود مُلكًا عظيمًا له صيتٌ؟!».

هاجر نجم الدين أيوب بأُسرته من تَكْرِيت إلى الموصل، وكان نزوله على عماد الدين زنكي، فأكرمه، ونشأ الطفل صلاح الدين نشأة مباركة، درج فيها على العزِّ، وتربَّى فيها على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفروسية، وتدرَّب فيها على السلاح، ونما فيها على حُبِّ الجهاد، فقرأ القرآن الكريم، وحفظ الحديث الشريف، وتعلَّم من اللغة ما تعلَّم.

صلاح الدين وزيرًا في مصر

كانت مصر قبل قُدوم صلاح الدين إليها مقرًّا للخلافة الفاطمية، وكانت مصر في هذا الوقت نهبًا للثورات الداخلية بين الطوائف المختلفة؛ من مماليك أتراك وسودانيين ومغاربة، وكانت الأوضاع غير مستقرَّة بسبب الاضطراب الذي سبَّبه توالي عدد كبير من الخلفاء الفاطميين في مدد قصيرة، تتحكَّم في قراراتهم سلسلة من الوزراء. فطمع الصليبيون في مصر، فلمَّا رأى القائد نور الدين محمود هذه الخلافات، وبدا له طمع ملك بيت المقدس الصليبي في احتلال مصر، أرسل نور الدين محمود من دمشق إلى مصر جيشًا بقيادة أسد الدين شيركوه، يُساعده ابن أخيه صلاح الدين، فلمَّا علم الصليبيون بقدوم أسد الدين شيركوه، تركوا مصر، ودخلها أسد الدين، ثم خلفه على وزارتها صلاح الدين.

حيكت المؤامرات من أرباب المصالح، وأصحاب المطامع، ولكن صلاح الدين تغلَّب عليها كما تغلَّب على الفتن الخارجية، وبدا لصلاح الدين ظهور الباطنية في مصر، فأسَّس مدرستين كبيرتين؛ هما: المدرسة الناصرية، والمدرسة الكاملية؛ حتى يُحوِّل الناس إلى مذهب أهل السُّنَّة؛ تمهيدًا للتغيير الذي يُريده، إلى أن استتبَّ الأمر لصلاح الدين تمامًا في مصر، وبعد موت الخليفة الفاطمي العاضد سنة (٥٦٦ هـ= ١١٧١م) دفع صلاح الدين العلماء إلى المناداة بالمستضيء العباسي خليفة، والدعاء له في الجمعة والخطبة باسمه من على المنابر، وبهذا انتهت الخلافة الفاطمية في مصر، وحكم صلاح الدين مصر كممثِّلٍ لنور الدين، الذي كان في النهاية يُقِرُّ بخلافة العباسيين، وعادت مصر إلى حظيرة الخلافة الإسلامية مرَّة أخرى، وأصبح صلاح الدين سيد مصر، ليس لأحد فيها كلمة سواه.

تأسيس الدولة

كان نور الدين محمود ما زال حيًّا، وكان صلاح الدين خائفًا من أن يُحاربه نور الدين، ففكَّر لأجل ذلك أن ينظر في مكان آخر يُقيم عليه دولة له، فبدأ صلاح الدين مبكِّرًا في إرسال بعض خاصَّته يستطلعون الأحوال في بلاد النوبة واليمن وبرقة.

تُوُفِّي نور الدين محمود في شوال سنة (٥٦٩هـ= ١١٧٤م)، وبدأ الأمر يستقرُّ لصلاح الدين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبدأ يعمل على توحيد مصر والشام، فبدأ صلاح الدين بالتوجُّه إلى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، فسار إلى دمشق، وتمكَّن من إخماد الثورات التي قامت في الشام بسبب الطمع في مُلك نور الدين، ومكث بها قُرابة العامين من أجل أن يُعيد الحكم إلى حالة من الاستقرار؛ فضمَّ إليه دمشق، ثم استولى على حمص ثم حلب، وبذا أصبح صلاح الدين سلطانًا على مصر والشام، ثم عاد إلى مصر وبدأ الإصلاحات الداخلية، وخاصة في القاهرة والإسكندرية، وقد توسَّعَتْ سلطة صلاح الدين في البلاد فامتدَّت من النوبة جنوبًا وبرقة غربًا إلى بلاد الأرمن شمالًا وبلاد الجزيرة والموصل شرقًا.

صلاح الدين والجهاد

كان قلب صلاح الدين رحمه الله مفعمًا بحبِّ الجهاد شغوفًا به، قد استولى على جوارحه؛ حتى قال عنه الإمام الذهبي في السير: «كانت له همَّة في إقامة الجهاد وإبادة الأضداد، ما سُمع بمثلها لأحد في الدهر»[1].

وقد هجر رحمه الله من أجل ذلك أهله وولده وبلده، ولم يكن له مَيْل إلَّا إليه، ولا حبَّ إلَّا لرجاله. يقول القاضي بهاء الدين: «كان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه بحثَّه على الجهاد». وقال: «ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلَّا في الجهاد أو في الإرفاد لصدَّق وبرَّ يمينه»[2].

إنَّ لكل رجل هِمَّة، وهمَّة الرجل على قدر ما أهمَّه، وكأنِّي بابن القيم رحمه الله يصف صلاح الدين حين قال: «النعيم لا يُدرك بالنعيم، وبحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاقِّ تكون الفرحة واللَّذَّة، فلا فرحة لَمَنْ لا همَّ له، ولا لذَّة لَمَنْ لا صبر له، ولا نعيم لَمَنْ لا شقاء له، ولا راحة لَمَنْ لا تعب له»[3].

وهكذا كانت حياة صلاح الدين كلها جهاد، وكان يعود من غزو إلى غزو، ومن معركة إلى معركة، وقد استغرقت ترجمة ابن الأثير له في كتابه «الكامل في التاريخ» أكثر من ٢٢٠ صفحة كلها مفعمة بالجهاد، وكانت معركة حطين من معاركه التي كُتبت بأقلام من نور على صفحات من ذهب، وسطرت على جبين التاريخ شاهدة له بكل معاني الجهاد والتضحية.

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٤١٢.
(٢) بهاء الدين ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ص٥٣، ٥٤.
(٣) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ٢/ ١٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحرب مع الصليبيين

بينما كان صلاح الدين يعمل على بسط نفوذه في الشام كان غالبًا ما يترك الصليبيين لحالهم مرجئًا المواجهة معهم، وإن كانت غالبًا لم تَغِبْ عنه حتميتها، إلَّا أنه كان عادة ما ينتصر عندما تقع مواجهة معهم، وكان الاستثناء هو موقعة مونتجيسارد (٥٧٣ هـ= ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م) حيث لم يُبدِ الصليبيون مقاومة فوقع صلاح الدين في خطأ تَرْكِ الجند تسعى وراء الغنائم وتتشتَّت، فهاجمته قوات بولدوين السادس ملك أورشليم وأرناط وفرسان المعبد فهزموه، إلَّا أن صلاح الدين عاد وهاجم الإمارات الفرنجية من الغرب وانتصر على بولدوين في معركة مرج عيون سنة (٥٧٥ هـ= ١١٧٩م)، وكذلك في السنة التالية في موقعة خليج يعقوب، ثم عُقِدَتْ هدنة بين الصليبيين وصلاح الدين سنة (٥٧٦ هـ= ١١٨٠م).

إلَّا أنَّ غارات الصليبيين عادت فحفَّزت صلاح الدين على الردِّ؛ فقد كان أرناط يتحرَّش بالتجارة وبالحُجَّاج المسلمين بواسطة أسطول له في البحر الأحمر، فبنى صلاح الدين أسطولًا من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت سنة (٥٧٧ هـ= ١١٨٢م)، وعندها هدَّد أرناط بمهاجمة مكة والمدينة، فحاصر صلاح الدين حصن الكرك معقل أرناط مرَّتين في عام ١١٨٣م وعام ١١٨٤م، وردَّ أرناط بمهاجمة قوافل حجاج مسلمين سنة (٥٨١ هـ= ١١٨٥م).

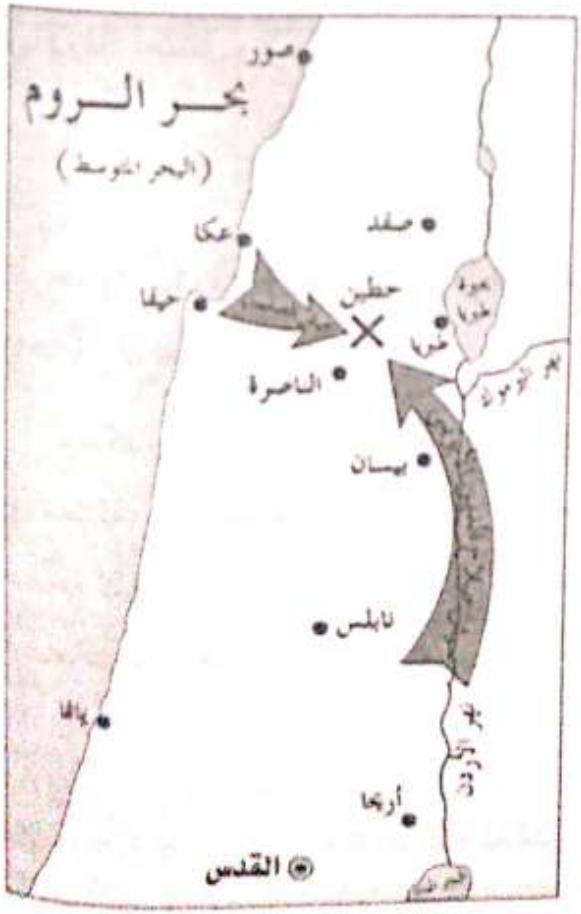

فتح القدس

في عام (٥٨٣هـ= ١١٨٧م) سقطت أغلب مدن وحصون مملكة بيت المقدس في يد صلاح الدين، وبعد ذلك انتصرت جيوش صلاح الدين على القوات الصليبية في موقعة حطين في (٢٤ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ= ٤ من يوليو ١١٨٧م)، وبعد المعركة سرعان ما احتلَّت قوات صلاح الدين وأخيه الملك العادل المدن الساحلية كلها تقريبًا جنوبي طرابلس: عكا، بيروت، صيدا، يافا، قيسارية، عسقلان. وقطع

اتصالات مملكة القدس اللاتينية مع أوربا، وفي النصف الثاني من سبتمبر ١١٨٧م حاصرت قوات صلاح الدين القدس، ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة أن تحميها من ضغط ٦٠ ألف رجل؛ فاستسلمت بعد ستة أيام، وفي ٢٧ من رجب ٥٨٣ هـ= ١٢ من أكتوبر ١١٨٧م فُتحت الأبواب ورُفعت راية السلطان صلاح الدين الصفراء فوق القدس.

وعامل صلاح الدين القدس وسُكَّانها معاملة أرقَّ وأخفَّ بكثير ممَّا عامل الغزاة الصليبيون أهلها حين انتزعوا المدينة من حُكْم مصر قبل ذلك بمائة عام تقريبًا، فلم تقع حوادث قتل وسلب ونهب وتدمير للكنائس، وأدَّى سقوط مملكة القدس إلى دعوة روما إلى بدء التجهيز لحملة صليبية ثالثة لاسترداد القدس، ولكنها باءت بالفشل.

ريتشارد قلب الأسد والحملة الثالثة

حفَّز فتح القدس خروج حملة صليبية ثالثة، مُوِّلت في إنجلترا وأجزاء من فرنسا بضريبة خاصة عُرفت عند الغرب بضريبة صلاح الدين، قاد الحملة ثلاثة من أكبر ملوك أوربا في ذلك الوقت هم ريتشَارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وملك ألمانيا فريدريك بربروسا الإمبراطور الروماني المقدس، إلَّا أن هذا الأخير مات أثناء الرحلة، وانضمَّ الآخران إلى حصار عكا التي سقطت سنة (٥٨٧هـ= ١١٩١م)، وأعدم فيها ثلاثة آلاف سجين مسلم بمَا فيهم من نساء وأطفال، وفي ٧ سبتمبر ١١٩١م اشتبكت

جيوش صلاح الدين مع جيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد في معركة أرسوف التي انهزم فيها صلاح الدين، إلَّا أنَّ الصليبيين لم يتمكَّنُوا من اجتياح الداخل، وبقوا على الساحل، وفشلت كل محاولاتهم لغزو القدس فوقَّع ريتشارد في عام (٥٨٧هـ= ١١٩٢م) معاهدة الرملة مع صلاح الدين؛ مستعيدًا بموجبها مملكة أورشليم الصليبية في شريط ساحلي ما بين يافا وصور، كما فُتحت القدس للحُجَّاج المسيحيين.

وكانت العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد مثالاً للفروسية والاحترام المتبادلين؛ رغم الخصومة العسكرية، فعندما مرض ريتشارد بالحمى أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاصَّ، كما أرسل إليه فاكهة طازجة وثلجًا لتبريد الشراب، وعندما فقد ريتشارد جواده في أرسوف أرسل إليه صلاح الدين اثنين.

ومن المعروف أن صلاح الدين وريتشارد لم يلتقيا أبدًا وجهًا لوجه، وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسل.

وفاته

بلغ صلاح الدين من العمر في عام (٥٨٩ هـ= ١١٩٣م) السابعة والخمسين، غير أن ما تعرَّض له من الإرهاق والتعب طوال مدَّة اصطدامه بالصليبيين أنهك صحَّته، وقد أقام في بيت المقدس إلى أن عَلِمَ برحيل ريتشارد قلب الأسد؛ فالتفت إلى تنظيم الشئون الإدارية لإقليم فلسطين، غير أن العمل أَلَحَّ عليه بضرورة المسير إلى دمشق، وفي الوقت ذاته فإنَّ ما تجمَّع في أثناء السنوات الأربع التي أمضاها في القتال من مشاكل إدارية وتراكم الأعمال التنظيمية، استدعى أن يُؤَجِّل زيارته لمصر، وتأدية فريضة الحجِّ، وتَطَلَّبَ منه بذل مجهودٍ كبيرٍ لتعويض ما خَرَّبته الحروب، وما تهيَّأ له من وقت الفراغ أمضاه في المناقشات مع العلماء في المسائل الدينية، وكان يخرج للصيد أحيانًا، على أنَّ كلَّ مَنْ شاهده ممَّنْ يعرفه -في أواخر الشتاء- أدرك أنَّ صحَّته انهارت، فصار يشكو من التعب والنسيان، ولم يَعُدْ باستطاعته أن يستقبل الناس.

وفي ١٦ من صفر ٥٨٩ هـ= ٢١ من فبراير ١١٩٣م انتابته حُمَّى صفراوية استمرَّت اثني عشر يومًا، وقد تحمَّل أعراض المرض بجَلَدٍ وهدوء، وقد علم أن النهاية اقتربت، وفي ٢٤ من صفر ٥٨٩هـ أول مارس انتابته غيبوبة، وبعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء في ٢٧ من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صفر= ٤ من مارس وبينما كان الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة يتلو أمامه القرآن؛ حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] فتح صلاح الدين عينيه وتبسَّم، وتهلَّل وجهه، وسمعه وهو يقول: «صحيح...». ثم مضى إلى ربِّه في قلعة دمشق؛ فتولَّى تجهيزه القاضي الفاضل والقاضي المؤرخ ابن شدَّاد، وغَسَّلَه خطيب دمشق، واجتمع الناس في القلعة، وصَلَّوْا عليه ودُفِنَ فيها، وعَمَّ الحزنُ الكبارَ والصغارَ، ثم جلس ابنه الملكُ الأفضلُ عليٌّ للعزاء ثلاثة أيام، وأرسل الكتب إلى أخيه العزيز عثمان في مصر، وأخيه الظاهر غازي في حلب، وعمِّه العادل في الكرك، فحضروا، ثم حُصِرَت تَرِكَتُه فكانت دينارًا واحدًا وستةً وثلاثين درهمًا، ولم يُخَلِّفْ من المال سواها ثابتًا أو منقولًا؛ إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات.

وبالرغم من أن الدولة التي أسَّسها صلاح الدين لم تدم طويلًا من بعده، فإنَّ صلاح الدين يُعَدُّ في الوعي الإسلامي مُحَرِّرَ القدس، واستُلْهِمَتْ شخصيَّته في الملاحم والأشعار، حتى مناهج التربية الوطنية في الدول العربية، كما أُلِّفَتْ عشرات الكتب عن سيرته، وتناولتها المسرحيات والتمثيليات والأعمال الدرامية، ولا يزال صلاح الدين يُضرب به المثل على القائد المسلم المثالي، الذي يعمل على مواجهة أعدائه بحسم ليُحَرِّرَ أراضي المسلمين، دون تفريط في الشهامة والأخلاق الرفيعة.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شهاب الدين الغوري

الاسم الكامل	أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	غير معروف
تاريخ الوفاة	٦٠٢ هـ/ ١٢٠٦ م
مكان الوفاة	عند عودته إلى غزنة
الانتماء	الدولة الغورية
أعداؤه	كفار الهند - كفار الأتراك - الزنادقة - الباطنية

هو البطل الشجاع والأمير المُحَنَّك أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري، قائد القبائل الغورية ومُؤَسِّس الدولة الغورية، وهو مَنْ أعاد الدولة الإسلامية إلى هيبتها كما كانت أيام محمود بن سُبُكْتِكِين، وقد جاهد وانتصر في عدَّة جبهات، إلى أن تآمر عليه أعداؤه فأوكلوا الباطنية لقتله، حتى اغتالوه وهو يُصَلِّي في المحراب.

البشتونيون والغزنويون

يرجع أصل القبائل الغورية إلى الجنس البشتوني الأفغاني، وكانت تستوطن جبال الغور وهي بلاد واسعة وباردة وموحشة، تقع بين غزنة وهراة -وسط أفغانستان الآن- مما جعلت طبيعتهم قويَّة وصلبة، وقد دخل بعضهم الإسلام على يد السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين وذلك سنة (٤٠١هـ= ١٠١٠م)، وبعدما حاربهم وعرف قوَّتهم وشجاعتهم حرص كل الحرص على أن يكونوا من جند الإسلام، فدعاهم للدين فدخلوه أفواجًا، فأقرَّهم محمود على أملاكهم، واستعملهم لنصرة الدين، وأرسل إليهم الدعاة والمعلِّمِينَ؛ فحسُنَ إسلامهم، وكانوا من أخلص أعوان محمود بن سُبُكْتِكِين، وساعدوه في كثير من الحروب ببلاد الهند، وكانت أُمُّ السلطان محمود الغزنوي -أيضًا- من قبيلة غلزاي البشتونية من منطقة زَابُل القريبة من قندهار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سقوط الغزنويين

سُنَّة الاستبدال؛ السُّنَّة الربَّانية التي تعمل في الأمم والدول والجماعات؛ حتى الأفراد بلا محاباةٍ ولا جورٍ، فمَنْ ركبَ طريق التمكين وأخذ بأسباب البقاء والقوَّة، ظلَّ باقيًا صامدًا ظاهرًا بإذن الله ﷻ وحده، ومَنْ ركب طريق الفُرقة والاختلاف، وأخذ بأسباب الزوال والذهاب والفشل، حتمًا لا بُدَّ من أن يكون مصيره السقوط والنهاية، وهذا ما حدث بالفعل مع الدولة الغزنوية أو السُّبُكْتِكِينية؛ التي أصابها الوهن، ودبَّ الضعف وحبُّ الدنيا في قلوب ملوكها، واختلفوا فيما بينهم، واقتتلوا على الدنيا، بعدما قاموا بنصب سوق الجهاد ونشروا الإسلام في الهند لعهود طويلة؛ مما سمح لكفَّار الهند أن يرفعوا رءوسهم مرَّة أخرى، ويخلعوا الطاعة، ويطردوا المسلمين من بلادهم، ولأن الله ﷻ ناصرٌ دينه، ومظهرٌ شريعته فإنَّ من مقتضيات هذه السُّنَّة أن يتولَّى أمر الدين قومٌ آخرون؛ يحوطونه بالحماية وينشرونه، ويكونون على مستوى هذا الدين؛ لذلك لما دبَّ الضعف في الدولة الغزنوية استبدلها المولى ﷻ بالدولة الغورية وقائدها الأمير المظفر شهاب الدين الغوري؛ حيث ورث الغوريون الدولة التي سقطت بالكلية سنة (٥٨٢هـ= ١١٨٦م).

إعادة الأمجاد

كانت الدولة الغزنوية قد بلغت أَوْجَ قوَّتها واتِّساعها في عهد سلطانها العظيم محمود، وولده مسعود، وشملت المنطقةَ الشاسعةَ من إيران وشمال الهند كله والسند والبنجاب وحوض الجانج حتى البنغال، ولمَّا أصابها الضعف والوهن أخذت أجزاءٌ كثيرة من هذه الدولة في السقوط في يد الكفَّار مرَّة أخرى ومَنْ عاونهم من الفرق الضالَّة، التي لا تقلُّ كفرًا بل تزيد بنفاقها عن الكفار الأصليين؛ أمثال: فرقة القرامطة، والشيعة الإسماعيلية، وانتزعت الكثير من أملاك الغزنويين؛ حتى بإيران مركز دولتهم.

بدأ شهاب الدين رحلته الجهادية مبكِّرًا، وبدأها كما بدأها من قبلُ محمود بن سُبُكْتِكِين ومن النقطة نفسها من المُلْتَان، وكان هذا الإقليم يقع تحت قبضة القرامطة الكفَّار، وبالفعل استخلص شهاب الدين المُلْتَان من يد القرامطة سنة (٥٧٠هـ= ١١٧٥م)، ثم أعقب ذلك استعادة بيشاور، وأخضع حوض السند جميعه؛ رغم الخسائر الفادحة التي تحمَّلها جيشُه على يد كفَّار الهند وشمالها إلى خليج البنغال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحالف الهندوسي

شعر أمراء الهند بخطورة الأمر وعودة التهديد الإسلامي من جديد بعدما ظهر أسد جديد على الساحة وهو شهاب الدين الغوري، وقرَّرُوا التحالُف فيما بينهم؛ فيما عُرِفَ بتحالُف أمراء منطقة الأنهار الكبرى في شمال شبه الجزيرة الهندية، وهذه المنطقة تُعرف باسم الهندستان؛ وفيها أخصب بلاد الهند، وهي أكثفها سكانًا، وهؤلاء الأمراء دفعهم الحقد على الإسلام وتحريض الكهنة البراهمة وخوفهم على أملاكهم وعروشهم أن يُبادروا المسلمين بالعداوة والقتال؛ مستغلِّينَ بعض الأحداث الداخلية في الدولة الغورية، وانشغال شهاب الدين بالقضاء على بعض الاضطرابات والفتن الداخلية.

جهاد على كل الجبهات

كان شهاب الدين الغوري يَحْلُم بأن تكون بلاد الهند كلُّها مسلمة، وأن يستكمل الدور الرائع الذي قام به من قبل السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين؛ بل كان شهاب الدين يُحِبُّ أن يتشبَّه كثيرًا بمحمود بن سُبُكْتِكِين؛ وظهر هذا جليًّا في العديد من المواقف، ولكن الأمور لم تكن مواتيةً مثلما حدث أيام محمود بن سُبُكْتِكِين؛ ذلك لأن شهاب الدين قد اضطر للجهاد على العديد من الجبهات الداخلية والخارجية، وكان ينتقل من الهجوم إلى الدفاع والكرِّ والفرِّ، من الهند إلى خراسان إلى الصين إلى إيران.. وهكذا، يُقاتل كفار الهند، وكفار الترك، والباطنية الكفار، وأيضًا طُلَّاب الدنيا من المسلمين الطامعين المفسدين؛ لذلك فلقد قضى شهاب الدين حياته كلها لم يعرف بيتًا ولا راحة، ولا يُلاعب ولدًا ولا يهنأ بأسرة واستقرار؛ بل مِنْ على ظهر الخيل إلى ظهر الخيل، ومن ضرب السيف إلى رمى السهم.. وهكذا.

جهاده ضد كفار الهند

كان أمراء الهندوس هم العدوَّ الأكبر والأصلي في معارك شهاب الدين الغوري، وكان لقاؤه الأول معهم في غير صالح المسلمين؛ وترك أثرًا شديدًا على شهاب الدين الغوري، وذلك سنة (٥٩٦هـ= ١١٩٩م) عندما دخل المسلمون مدينة شرستي واحتلُّوها، وكانت من أغنى وأكبر مدن الهند، فهجم التحالُف الهندوسي بقيادة كبيرهم بريتي (والذي تُسَمِّيه المراجع العربية كولة) على المسلمين، ودارت رحى معركة من أشدِّ ما لاقى المسلمون من قتال في الهند، وانهزم بعض الأمراء الغوريين، وفرُّوا من أرض القتال، وظلَّ شهاب الدين يُقاتل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنفسه؛ حتى إنه من شدَّة القتال قتل عدَّة أفيال بسيفه ورمحه، ثم أُصيب إصابةً بالغةً، وتكاثر عليه الكفَّار ليأخذوه؛ فدافع عنه جنوده، وحملوه مصابًا ينزف الدم مسافة أربعين كيلو مترًا حتى خافوا موته، ولَمَّا عاد إلى لاهور أخذَ أمراءَ الغورية المنهزمين من أرض المعركة وعلَّق على كل واحد منهم عليق شعير، وقال لهم: «ما أنتم بأمراء إنما أنتم دواب». وألزمهم المشي حتى غزنة[١].

ظلَّ شهاب الدين يُجهِّز لقتال الهندوس وردِّ الهزيمة، وأخذ العُدَّة اللازمة، وجهَّز جيشًا كبيرًا، وكان ما زال ناقمًا على أمراء الغورية منذُ فرارهم في المعركة السابقة، وعزم على ألَّا يصطحبهم معه في القتال ضدَّ الهندوس، فحاول بعض شيوخ القوم استرضاءه عنهم؛ فقال شهاب الدين كلماتٍ تُعَبِّر عن النفسية المؤمنة الصادقة، التي تستشعر ما عليها من واجباتٍ تجاه نصرة الدين والعمل للإسلام، وتُظهر مدى قوَّة قلب هذا البطل الشجاع وحساسيته الدافقة، قال: «اعْلَمْ أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي على فراش، ولا غيَّرْتُ ثياب البياض عني (أي ثياب الكفن)، وأنا سائر إلى عدوِّي معتمد على ربي ﷻ لا على الغورية ولا على غيرهم، فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه، وإن انهزمنا فلا تطلبوني، فلن أنهزم ولو هلكت تحت حوافر الخيل»[٢].

بعد هذه الرسالة الجلية اهتزَّت قلوب الأمراء الغورية، وحلفوا جميعًا على القتال حتى الموت وعدم الانهزام؛ مهما حدث في أرض المعركة.

عاد شهاب الدين الغوري إلى الهند بجيش بلغ قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل بعد عام واحد من الهزيمة السابقة، فبرز له ملك الهند بريتي في جيش قوامه ثلاثمائة ألف مقاتل أو يزيدون، واستخدم شهاب الدين الغوري حيلة حربية ذكية؛ حيث قَسَّم جيشه إلى جزئين وهجم على الهندوس فجأة عند الفجر، فأمضى المسلمون فيهم القتل، وحاول بريتي الفرار، فقال له أصحابه: «إنك حلفت لنا أنك لا تُخَلِّينَا وتهرب». فنزل من على فرسه وظلَّ يُقاتل حتى وقع أسيرًا في يد المسلمين، وحاول بريتي أن يفدي نفسه بأموال طائلة هائلة، ولكن شهاب الدين علم أن بقتل بريتي يسهل سقوط الهند؛ فرفض قبول الفدية وقتله، وهو يُؤَكِّد

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٤٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ١١٥، ١١٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بذلك على معنى رسالة الجهاد في الإسلام؛ فهو ليس للدنيا ولا للأموال ولا للغنائم ولا لشهوة القتل والتملُّك؛ بل هو لأسمى المطالب لنشر الإسلام وتبليغ الدين، وإزاحة الطواغيت الذين يقفون على آذان الناس، ويصدُّونهم عن سماع الحقِّ.

كان هذا النصر المبين إيذانًا بانهيار سلطان الأمراء الهندوس، وبداية السلطان الحقيقي للإسلام في منطقة الهندستان؛ فلقد استولَى شهاب الدين الغوري على مدن شرستي وكهرام وهنسى وأجمير، وحطم أصنام الهندوسية والبوذية في الهندستان، واستعمل أحجارها في بناء المساجد، وعهد الأمير شهاب الدين الغوري إلى مملوكه وقائد جيوشه قطب الدين أيبك بولاية المدن الهندية المفتوحة، وكان قطب الدين أيبك لا يقلُّ شجاعة ولا إخلاصًا عن أستاذه، فثبَّت أقدام المسلمين هناك، واتخذ دلهي عاصمة له، وبنى الجامع الشهير قطب منار، كما تصدَّى قطب الدين لفلول التحالف الهندوسي، وانتصر عليهم في معركة حامية الوطيس في سهل جندوار سنة (٥٩١ هـ= ١١٩٥م).

في الوقت نفسه الذي كان قطب الدين أيبك يُرَسِّخ أقدام الإسلام بالهندستان، أرسل شهاب الدين الغوري بطلاً آخر من قادة جيوشه واسمه محمد بن بختيار الخَلْجي إلى ناحية الشرق؛ حيث منطقة البنغال، وهي معقل البوذية في الهند كلها، ففتحها وحطَّم معابدها، وأظهر شعائر الإسلام بها، وذلك سنة (٥٩٩هـ= ١٢٠٣م)، وفي نفس السنة استطاع قطب الدين أن يفتح حصن كلنجر أمنع حصون الهند، وبسقوطه لم يبقَ في الهند مكان لم يدخله الإسلام باستثناء صحراء الجنوب.

جهاده ضد كفار الأتراك

الجنس التركي يشمل كل القبائل الواقعة وسط وشرق الهضبة الإيرانية حتى أقصى شرق الصين، وأيضًا بلاد القوقاز ومنغوليا، وهذه القبائل كان منها المؤمن ومنها الكافر، وأمثال القبائل المؤمنة السلاجقة والتركمان والغوريون والخوارزميون، وأمَّا القبائل التركية الكافرة الوثنية فكانت تتجمَّع تحت لواء كبير وتحت أقوى هذه القبائل؛ وهي قبائل القراخطاي، وأصلهم في غرب الصين، وكان نهرا سيحون وجيحون هما الحدَّ الفاصل بين هذه القبائل الكافرة وبلاد الإسلام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت هذه القبائل شديدة البأس كثيرة الفساد؛ تؤذي جيرانها المسلمين، وتفرض عليهم الجزية، وتُكثر من الإغارة عليهم، وكان من الطبيعي أن يتصدَّى لهم بطل الإسلام المقدام في هذه البقعة من الأرض، وتَتَّجه أنظار المسلمين كلها إليه؛ وبالفعل تصدَّى لهم شهاب الدين الغوري، ومنع تقدُّمهم وعبورهم لنهر جيحون؛ ولكن الطامَّة الحقيقية والحقيقة التاريخية الثابتة والمحزنة للقلب حقًّا هي أن هذه القبائل إنما تحرَّكت لحرب شهاب الدين والمسلمين بتحريض من ملك مسلم آخر؛ وهو خوارزم شاه، وكان مُلْكُه متَّسع للهضبة الإيرانية كلها، وقد ورث الرجل ملك دولة السلاجقة العظيمة؛ ولكنه كان رجلًا لا يُبالى إلَّا بمصالحه الخاصة وأملاكه وأمواله، وكان مُلكه المتَّسع وما ورثه من أملاك السلاجقة دافعًا له لأن يطلب من الخليفة العباسي الناصر بالله منصب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى شهاب الدين الغوري يطلب منه أن يمنع خوارزم شاه من التقدُّم لحرب الخليفة، وعندها خاف خوارزم شاه من قوَّة شهاب الدين الغوري، وأرسل إلى ملوك القراخطاي الكفار وأغراهم بالهجوم على الدولة الغورية، وكان شهاب الدين قد أخذ من قبل بعض بلاد القراخطاي، فقويت عزائمهم على حرب شهاب الدين والمسلمين.

استغلَّ الكفار خروج شهاب الدين الغوري للغزو في بلاد الهند وهجموا بأعداد كبيرة على بلاد الغور، وعظمت المصيبة على المسلمين لغياب شهاب الدين وضخامة العدوِّ، ولكن الله ﷻ - الذي وعد بحفظ دينه، ونُصرة جنده- قيَّض للمسلمين عدَّة أبطال من أعوان شهاب الدين؛ مثل: الأمير محمد بن جربك، والحسين بن خرميل، وحروش الغوري، واجتمع عندهم المجاهدون والمتطوِّعون من كل مكان، وهجموا على جيش القراخطاي ليلاً، ووضعوا فيهم السيف، واشتدَّ القتال بين الفريقين، واسْتُشهد حروش الغوري، وكان شيخًا مسنًّا، فالتهبت مشاعر المسلمين، وألقَوُا السهام والرماح، وصار القتال بالسيوف والفئوس فقط، وانتصر المسلمون انتصارًا هائلاً؛ جعل عقل ملك القراخطاي يطيش وينقلب على خوارزم شاه، ويطلب منه ديةً لكلِّ قتيل كافر عشرة آلاف دينار ذهبًا؛ وهذا ما جعل خوارزم شاه يطلب العفو والصفح من شهاب الدين، الذي قبل العفو شريطة دخول خوارزم شاه في طاعة الخليفة العباسي، فوافق خوارزم الذي كان يُغَيِّر ولاءه ويقلبه حسب هواه وأطماعه، ووقعت كراهيته في قلوب كل المسلمين شرقًا وغربًا، والعجيب أن هذا الرجل النكبة عاد وحالف القراخطاي من جديد، وأغراهم بشهاب الدين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودلَّهم على أماكن ضعفه؛ فهزموا شهاب الدين في معركة رهيبة سنة (٦٠٠هـ= ١٢٠٤م) كاد يُقتل فيها شهاب الدين وتنهار دولة الإسلام في الهند بسبب ذلك.

جهاده ضد الزنادقة والباطنية والفرق الضالة

كانت منطقة الهضبة الإيرانية وبلاد الهند مرتعًا خصبًا وواسعًا للأفكار الضالَّة والعقائد المنحرفة؛ حيث كانت مهبط ومعدن الفلسفة والمنطق والتأمُّلات البراهمية والعقائد المجوسية والفارسية، فلا عجب أن تبقى آثار تلك العقائد الضالَّة في تلك البقاع؛ ولذلك كان السلطان العظيم محمود بن سُبُكْتِكِين شديد الاهتمام بتطهير كلِّ بلدٍ يفتحه أو يملكه من آثار تلك العقائد والفرق الضالَّة، وقضى على كل المذاهب المخالفة لأهل السُّنَّة والجماعة، وسار على دربه الأمير شهاب الدين الغوري، الذي كما قُلنا من قبل شديد الشبه بمحمود بن سُبُكْتِكِين، ودائم الاقتداء به؛ فقد كان شهاب الدين الغوري شافعيًّا على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، شديد الحبِّ والإيمان بالإسلام، يكره أهل البدع والفساد، شديدًا على الفرق الضالَّة؛ خاصة فرقة الإسماعيلية الباطنية، فقد كان يقتل مَنْ يجده منهم، ويُخَرِّب قراهم، ويُلزمهم بالدخول في الإسلام وإظهار شعائره، وكان شهاب الدين الغوري على يقين أن الملاحدة والزنادقة من أتباع الفرق الضالَّة هم الخطر الأكبر؛ الذي يُهَدِّد سلامة الأُمَّة الإسلامية، وينخر في جسدها، وأنهم يتربصون بهذه الأُمَّة الدوائر، وأن عداوتهم وكفرهم أشدُّ وطأة وأذًى على المسلمين من الكفار الأصليين.

عندما تحالف الخائن خوارزم شاه مع قبائل القراخطاي ضدَّ شهاب الدين والمسلمين ودلَّهم على عورات جيش شهاب الدين، ووقعت الهزيمة على المسلمين، سرت شائعة في البلاد أن شهاب الدين قد قُتل في المعركة، وعندها تطاول كلُّ ملحد وزنديق ومجرم ومفسد وطامع في الدنيا؛ ومن هؤلاء أحد مماليك شهاب الدين واسمه أيبك بال، الذي نَصَّب نفسه سلطانًا على المسلمين مكان شهاب الدين، وأعانه على ذلك أحدُ الزنادقة ويُدعى عمرو بن يزان، وأخذ أيبك بال في ظُلم الناس وسفك دماءهم وأخذ أموالهم، وتجمَّع حوله كلُّ اللصوص وقُطَّاع الطرق، واتَّسع المجال للزنادقة والملاحدة في نشر أفكارهم وعقائدهم، ولمَّا عاد شهاب الدين الغوري من القتال ووجد الأمر هكذا أمر بالقبض على هؤلاء المفسدين والزنادقة، وأمر بقتلهم، ثم تلا قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وشنَّ شهاب الدين الغوري حملة واسعة وشاملة على قرى وبلاد الإسماعيلية؛ حتى الموجودة خارج نطاق مملكته؛ ليُطَهِّر بلاد الإسلام كلها من هذا الجنس الخبيث.

كانت الشائعة التي سرت بعد هزيمة شهاب الدين من القراخطاي عن مقتله السببَ في كشف مكنون صدور الكثيرين، وسبحان الله كما قال ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فقد كانت الهزيمة كريهة وأليمة على نفس المسلمين عمومًا، وشهاب الدين خاصةً؛ ولكنها كشفت حقيقة كثيرين ممَّن كانوا حول المسلمين؛ من هؤلاء كان أمير منطقة الجودي واسمه دانيال، وكان قد أسلم خوفًا من بطش شهاب الدين، فلمَّا وصلته شائعة مقتل شهاب الدين ارتدَّ عن الإسلام مرَّة أخرى، وحالف قبيلة تركية كافرة اسمها قبيلة بني كوكر ومساكنهم في جبال لاهور والمُلْتَان؛ وهي حصينة ومنيعة، وقام هذا التحالف بالإغارة على بلاد المسلمين، وقطعوا السبيل، ونهبوا قوافل التجارة، وكان شهاب الدين في هذه الفترة يُجَهِّز الجيوش لمحاربة القراخطاي وردِّ الهزيمة، فلمَّا وقف على حقيقة الوضع غَيَّر عزمه وقرَّر البدْءَ بهؤلاء المرتدِّين والكافرين في مملكته، وهذا يُوَضِّح فهم شهاب الدين لترتيب الأولويات؛ والبدء بالعدو الأقرب، الذي هو عادة أخطر.

أعدَّ شهاب الدين جيوشه بسرعة من اتجاه الشرق إلى الشمال، وهجم كالأسد الضاري على الخونة والمرتدِّين يوم الخميس ٢٥ من ربيع الأول سنة (٦٠٢هـ= ١٢٠٦م)، واشتدَّت مقاومة الكفار، وكان شهاب الدين قد قَسَّم جيشه إلى جزئين: جزء يقوده هو بنفسه ويتولَّى الاصطدام المباشر مع الكفار، وجزء آخر يقوده أنجب تلاميذ شهاب الدين الأمير البطل قطب الدين أيبك؛ يكون كمينًا يظهر في اللحظة الحاسمة، وبالفعل ظهر قطب الدين بجيشه عند اشتداد القتال، وتنادَوْا بشعار الإسلام: الله أكبر. وحملوا حملة صادقة على الكفار الذين انهزموا، وأمْعَن المسلمون فيهم القتل، وفرَّ الكفار وصعدوا إلى تلال، وهناك أضرموا فيها النار؛ فكان أحدهم يقول لصاحبه: «لا تترك المسلمين يقتلونك»[1]. ثم يُلقي بنفسه في النار. فعمَّهم الفناء

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٢١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قتلاً وحرقًا، وغنم المسلمون غنيمة هائلة؛ حتى إنَّ كلَّ خمسة أسرى يُباعون بدينار، واشتدَّ هذا النصر المبين على كل كافر وملحد وزنديق ومرتدٍّ في هذه البقعة من الأرض.

شهيد المحراب

وجد أعداء الإسلام -على اختلاف مشاربهم وأهوائهم- أنه لا سبيل للانتصار على هذا الدين إلَّا باغتيال رأس المسلمين وبطلهم المقدم، الذي يستطيع أن يجمع الجيوش ويشحذ الهمم، ويُنافح عن دين الإسلام، ولم يجد أعداء الإسلام أفضل من الباطنيين الكفرة ليُوكلوهم في تلك المهمَّة القذرة؛ فالباطنيون خبراء في أساليب الاغتيال، وبالفعل تسلَّل نفر من الباطنية الإسماعيلية إلى جيش شهاب الدين الغوري وهو خارج لقتال قبائل القراخطاي الكافرة، وأظهر هؤلاء الباطنية أنهم من جملة الجيش حتى كانت ليلة غرَّة شعبان سنة (٦٠٢هـ= ١٢٠٦م)، وكان شهاب الدين في خيمته يُصَلِّي قيام الليل وحده، حيث دخل عليه الكفار، وضربوه بالسكاكين؛ حتى قتلوه شهيدًا وهو يُصَلِّي، فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مُصَلَّاه قتيلاً وهو ساجد، فأمسكوا بهؤلاء الكفرة وقتلوهم جميعًا، وحمله أصحابه إلى غزنة حيث دفنوه بها، وهكذا كانت نهاية هذا البطل العظيم، الذي هو من أعظم أبطال الإسلام، ويا لها من حُسن خاتمة لرجل طالما تعرَّض لمواطن الشهادة، وباشر القتال بنفسه؛ حتى إنه من شدَّة قتاله كان يقتل الفيل بسيفه!

يستشهد بطلنا وهو يُصَلِّي ساجدًا قائمًا لربه ﷻ، وهو خارج لقتال الكافرين، وهكذا تكون خاتمة الأبطال وما أروعها من خاتمة!

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قطـــز

الاسم الكامل	محمود بن ممدود بن خوارزم شاه
اللقب	الملك المظفر سيف الدين قطز
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	الدولة الخوارزمية
تاريخ الوفاة	٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م
مكان الوفاة	أثناء العودة لمصر
الانتماء	دولة المماليك
أعداؤه	التتار

هو الملك المظفَّر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي سلطان مصر المملوكي، يُعتبر أبرز ملوك الدولة المملوكية على الرغم أن فترة حكمة لم تدم سوى عام واحد؛ لأنه استطاع أن يُوقف زحف المغول؛ الذي كاد أن يقضي على الدولة الإسلامية، وهزمهم هزيمة منكرة في معركة عين جالوت، ولاحق فلولهم حتى حرَّر الشام.

أصله ونشأته

وُلد قطز أميرًا مسلمًا في ظلِّ الدولة الخوارزمية؛ فهو محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وُلِدَ في بلاد خوارزم شاه لأب اسمه ممدود، وأُمُّه التي كانت أخت الملك جلال الدين بن خوارزم شاه، وكان جدُّه من أعظم ملوك خوارزم شاه، وقد دخل جدُّه في حروب طويلة مع جنكيزخان ملك التتار، إلَّا أنه هُزم وتولَّى نجم الدين الحُكْمَ، وكانت بداية حكمه رائعة، وانتصر على التتار في كثير من المعارك، إلَّا أنه بعد ذلك قام بعدَّة سقطات إلى أن وصل التتار إلى عاصمة حُكْمِه، وتمَّ اختطافه عقب انهيار الدولة الخوارزمية عام (٦٢٨هـ= ١٢٣١م) على يد المغول، وحُمل هو وغيره من الأطفال إلى دمشق، وتمَّ بيعهم في سوق الرقيق، وأُطلق عليه اسم قطز، ظلَّ قطز عبدًا يُباع ويُشترى إلى أن انتهى به المطاف في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يد عز الدين أيبك، أحد أمراء مماليك البيت الأيوبي بمصر.

ويروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن سيف الدين قطز: «لمَّا كان في رِقِّ موسى بن غانم المقدسي بدمشق، ضربه سيِّده وسبَّه بأبيه وجدِّه، فبكى ولم يأكل شيئًا سائر يومه، فأمر ابن الزعيم الفرَّاش أن يترضَّاه ويُطعمه، فروى الفرَّاش أنه جاءه بالطعام، وقال له: كُلْ هذا البكاء من لطمة؟ فقال قطز: إنما بكائي من سَبِّه لأبي وجدِّي وهما خير منه. فقلتُ: مَنْ أبوك؟ واحد كافر؟! فقال: والله! ما أنا إلَّا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك. فسكتُّ وترضَّيْتُه». كما يُرْوَى أنه أخبر في صغره أحدَ أقرانه أنه رأى رسول الله ﷺ وقد بشَّره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار، وهذا يعني أن الرجل كان يعتبر نفسه صاحب مهمَّة، وأنه من الصلاح بحيث رأى رسول الله واصطفاه الله بذلك. ولا شكَّ أن قطز رحمه الله كان مبعوث رحمة الله ومبعوث العناية الإلهية بالأُمَّة العربية والإسلامية وبالعالم؛ كي يُخَلِّصَ العالم من شرِّ وخطر التتار إلى الأبد، وكان وصوله إلى حكم مصر من حُسن حَظِّها وحظِّ العالَمَيْنِ العربي والإسلامي.

وقد وُصف قطز بأنه كان شابًّا أشقر، كثَّ اللحية، بطلًا شجاعًا عفًّا عن المحارم، مترفِّعًا عن الصغائر، مواظبًا على الصلاة والصيام وتلاوة الأذكار، تزوَّج من بني قومه، ولم يخلِّف ولدًا ذكرًا؛ بل ترك ابنتين لم يسمع عنهما الناس شيئًا بعده.

وصايته على الحكم

قام الملك عزُّ الدين أيبك بتعيين قطز نائبًا للسلطنة، وبعد أن قُتل الملك المعزُّ عزُّ الدين أيبك على يد زوجته شجر الدر، وقُتلت من بعده زوجته شجر الدر على يد جواري الزوجة الأولى لأيبك، تولَّى الحكم السلطان نور الدين علي بن أيبك، وتولَّى سيف الدين قطز الوصاية على السلطان الصغير، الذي كان يبلغ من العمر ١٥ سنة فقط.

وأحدث صعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم اضطرابات كثيرة في مصر والعالم الإسلامي، وكانت أكثر الاضطرابات تأتي من قِبَل بعض المماليك البحرية؛ الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع مَنْ هرب منها أيام الملك المعزِّ عزِّ الدين أيبك، وتزعَّم أحد هؤلاء المماليك البحرية واسمه سنجر الحلبي الثورة، وكان يرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل عزِّ الدين أيبك، فاضطر قطز إلى القبض عليه وحبسه، كذلك قبض قطز على بعض رءوس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثورات المختلفة، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام؛ وذلك ليلحقوا بزعمائهم الذين فرُّوا قبل ذلك إلى هناك أيام الملك المعزِّ، ولمَّا وصل المماليك البحرية إلى الشام شجَّعُوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء؛ ومنهم «مغيث الدين عمر» أمير الكرك، الذي تقدَّم بجيشه لغزو مصر.. ووصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، وخرج له قطز فصدَّه عن دخول مصر، وذلك في ذي القعدة من سنة (٦٥٥هـ= ١٢٥٧م)، ثم عاد مغيث الدين تراوده الأحلام لغزو مصر من جديد، ولكن صدَّه قطز مرَّة أخرى في ربيع الآخر سنة (٦٥٦ هـ= ١٢٥٨م).

تولِّيه الحكم

كان قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه يُدير الأمور فعليًّا في مصر، ولكن الذي كان يجلس على كرسي الحكم سلطان طفل، فرأى قطز أن هذا يُضعف من هيبة الحُكْم في مصر، ويُزَعْزع من ثقة الناس بملكهم، ويُقَوِّي من عزيمة الأعداء؛ إذ يرون الحاكم طفلًا؛ فقد كان السلطان الطفل مهتمًّا بمناقرة الديوك، ومناطحة الكباش، وتربية الحمام، وركوب الحمير في القلعة، ومعاشرة الأراذل والسوقة، تاركًا لأُمِّه ومَنْ وراءها تسيير أمور الدولة في تلك الأوقات العصيبة، وقد استمرَّ هذا الوضع الشاذُّ قُرابة ثلاث سنوات، على الرغم من تعاظم الأخطار وسقوط بغداد بيد المغول، وكان من أشدِّ المتأثِّرين بذلك والمدركين لهذه الأخطار الأمير قطز، الذي كان يحزُّ في نفسه ما كان يراه من رعونة الملك، وتحكُّم النساء في مقدرات البلاد، واستبداد الأمراء، وإيثارهم مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد والعباد.

هنا اتَّخذ قطز القرار الجريء، وهو عزل السلطان الطفل نور الدين علي، وتولَّى عرش مصر، حدث هذا الأمر في ٢٤ من ذي القعدة (٦٥٧هـ= ١٢٥٩م)؛ أي: قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام، ومنذ أن صَعِد قطز إلى كرسي الحكم وهو يُعِدُّ العُدَّة للقاء التتار.

عندما تولَّى قطز الحكم كان الوضع السياسي الداخلي متأزِّمًا للغاية، فقد جلس على كرسي الحُكْم في مصر خلال عشرة أعوام تقريبًا ستة حُكَّام؛ وهم: الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولده توران شاه، شجر الدر، الملك المعز عز الدين أيبك، السلطان نور الدين علي بن أيبك، وسيف الدين قطز. كما كان هناك الكثير من المماليك الطامعين في الحُكْم، ويقومون بالتنازُع عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما كانت هناك أزمة اقتصادية طاحنة تمرُّ بالبلاد من جرَّاء الحملات الصليبية المتكرِّرة، ومن جرَّاء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جرَّاء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي.

فعمل قطز على إصلاح الوضع في مصر خلال إعداده للقاء التتار.

الإعداد للقاء التتار

قطع قطز أطماع المماليك في الحُكْم عن طريق توحيدهم خلف هدف واحد، وهو وقف زحف التتار ومواجهتهم، فقام بجمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر، وقال لهم في وضوح: «**إني ما قصدت** (أي ما قصدت من السيطرة على الحُكْم) **إلَّا أنْ نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير مَلِكٍ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدوَّ، فالأمرُ لكم، أقيموا في السلطة مَنْ شئتم**». فهدأ معظم الحضور ورضوا بذلك، كما قَبِلَ قطز الصلح مع بيبرس؛ الذي أرسل الرُّسُل لقطز كي يَتَّحدا للتصدِّي لجيوش المغول؛ التي كانت قد دخلت دمشق آسرةً الناصر يوسف مَلِكَها، وعظَّم قطز من شأن بيبرس كثيرًا، وأنزله دار الوزارة، وأقطعه قليوب وما حولها من القرى، وعامله كأمير من الأمراء المُقَدَّمين، بل وجعله على مُقَدِّمَة الجيوش في معركة عين جالوت.

واستعدادًا للمعركة الفاصلة مع التتار فقد راسل قطز أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر، أمَّا المغيث عمر صاحب الكرك وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقد فضَّلَا التحالف مع المغول والخيانة، وأمَّا الملك السعيد حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضًا قاطعًا، بل انضمَّ بجيشه إلى قوَّات التتار ليُساعدهم في محاربة المسلمين.

اقترح قطز أن تُفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية؛ لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلَّا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أمَّا فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلَّا في ظروف خاصة جدًّا، ولا بُدَّ من وجود سند شرعي يُبيح ذلك؛ فاستفتى قطز الشيخ العز بن عبد السلام؛ فأفتى قائلاً: «**إذا طرق العدوُّ البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يُؤخذ من الرعية ما يُستعان به على جهازهم؛ بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممتلكات والآلات، ويقتصر كلٌّ منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامَّة، وأمَّا أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا»[1].

قَبِلَ قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأ بنفسه، فباع كلَّ ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتمَّ تجهيز الجيش كله.

وصول رسل التتار

بينما كان قطز يُعِدُّ الجيش والشعب للقاء التتار وصل رسل هولاكو يحملون رسالة تهديد لقطز؛ جاء فيها: «بسم إله السماء الواجب حقُّه، الذي مَلَّكَنا أرضه، وسلَّطنا على خلقه، الذي يعلم به الملك المظفر الذي هو من جنس المماليك، صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها. إنَّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على مَنْ حلَّ به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتَّعظوا بغيركم، وسلِّمُوا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم مَنْ بكى، ولا نرقُّ لمن اشتكى، فتحنا البلاد، وطَهَّرنا الأرض من الفساد. فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب؛ فأيُّ أرضٍ تأويكم؟ وأيُّ بلادٍ تحميكم؟ وأيُّ ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاصٌ، ولا من أيدينا مناصٌ؛ فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال؛ فالحصون لدينا لا تُمنع، والجيوش لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع؛ لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردِّ السلام، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان؛ فأبشروا بالمذلَّة والهوان ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. وقد ثبت أنا نحن الكفرة وأنتم الفجرة، وقد سلَّطنا عليكم مَنْ بيده الأمور المدبّرة، والأحكام المقدّرة. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المذلَّة ما للوككم علينا من سبيل، فلا تُطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردَّ الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوري شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًّا، ولا كتابًا ولا حرزًا، إذ أزَّتْكُم رماحنا أزًّا، وتُدْهَوْنَ منَّا بأعظم داهية، وتُصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية، فقد

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٨/ ٤٥، والسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنصفناكم إذ أرسلنا إليكم، ومننَّا برسلنا عليكم»[١].

جمع قطز القادة والمستشارين وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الاستسلام للتتار وتجنُّب ويلات الحرب، فما كان من قطز إلَّا أن قال: «**أنا ألقى التتار بنفسي، يا أمراء المسلمين؛ لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّهٌ، فمَنِ اختار الجهاد يصحبني، ومَنْ لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، وإنَّ الله مُطَّلِع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخِّرين عن القتال**».

فتحمَّس القواد والأمراء لرؤيتهم قائدهم يُقَرِّر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلًا من أن يُرسل جيشًا ويبقى هو.

ثم وقف يُخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول: «**يا أمراء المسلمين؛ مَنْ للإسلام إن لم نكن نحن**».

فقام الأمراء يُعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن؛ وقد زاد من عزيمة المسلمين وصول رسالة من صارم الدين الأشرفي الذي وقع أسيرًا في يد المغول أثناء غزوهم الشام، ثم قبل الخدمة في صفوفهم وأوضح لهم فيها قلَّة عددهم، وشجَّعهم على قتالهم، وأن لا يخافوا منهم.

وقام قطز بقطع أعناق الرسل الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وعلَّق رءوسهم في الريدانية في القاهرة، وأبقى على أحدهم ليحمل الأجساد لهولاكو. وأرسل الرسل في الديار المصرية تُنادي بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله، وكان العز بن عبد السلام يُنادي في الناس بنفسه فهبَّ نفرٌ كثير ليكونوا قلب وميسرة جيش المسلمين، أمَّا القوَّات النظامية من المماليك فكوَّنت الميمنة، واختبأت بَقِيَّتُها خلف التلال لتحسم المعركة.

في أرض المعركة

التقى الفريقان في المكان المعروف باسم عين جالوت في فلسطين في ٢٥ من رمضان ٦٥٨هـ= ٣ سبتمبر ١٢٦٠م، وكانت الحرب ضاريةً؛ أخرج التتار فيها كلَّ إمكانياتهم، وظهر تفوُّق الميمنة التترية التي كانت تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات

(١) انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٥١٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشهداء يسقطون، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفُّون حول الجيش الإسلامي.

كان قطز يقف في مكان عالٍ خلف الصفوف يُراقب الموقف بكامله، ويُوَجِّه فِرَق الجيش إلى سدِّ الثغرات، ويُخَطِّط لكلِّ كبيرة وصغيرة، وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بآخر الفرق النظامية من خلف التلال، ولكنَّ الضغط التتري استمرَّ.

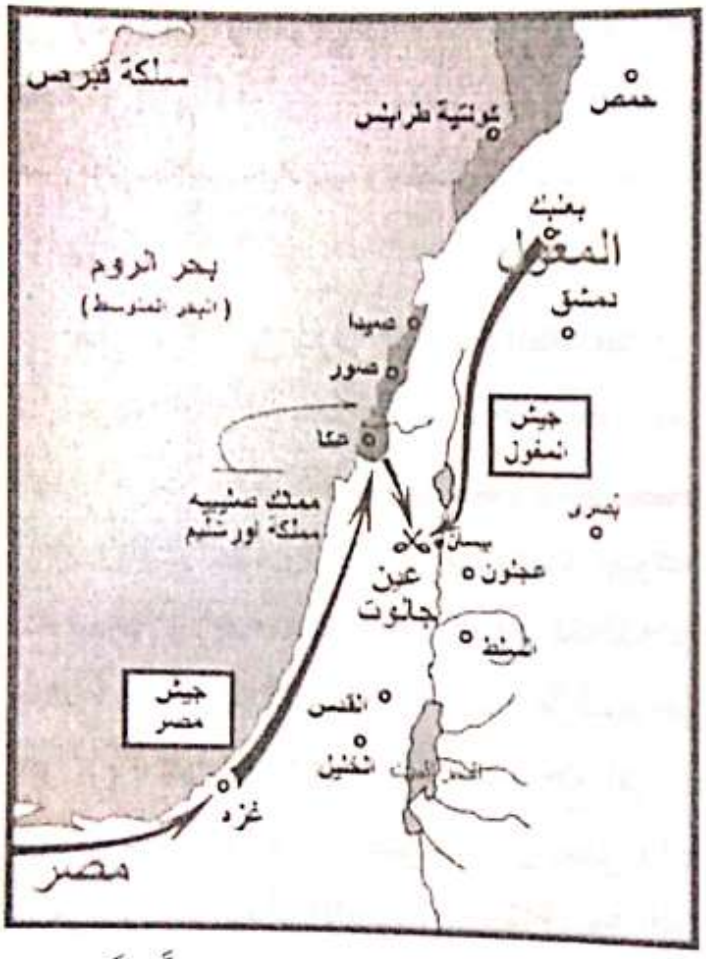

فما كان من قطز إلَّا أن نزل ساحة القتال بنفسه؛ وذلك لتثبيت الجنود ورفع روحهم المعنوية، ألقى بخوذته على الأرض تعبيرًا عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة: «وا إسلاماه!».

وقاتل قطز مع الجيش قتالًا شديدًا، حتى صَوَّب أحدُ التتر سهمه نحو قطز فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز، فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجَّل قطز على الأرض، وقاتل ماشيًا لا خيل له، ورآه أحد الأمراء وهو يُقاتل ماشيًا، فجاء إليه مسرعًا، وتنازل له عن فرسه، إلَّا أنَّه امتنع، وقال: «ما كنت لأحرم المسلمين نفعك!». وظلَّ يُقاتل ماشيًا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية، وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: «لِمَ لمْ تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك».

فقال قطز: «أمَّا أنا كنت أروح إلى الجنة، وأمَّا الإسلام فله ربٌّ لا يُضيعه، وقد قُتل فلان وفلان وفلان... حتى عدَّ خلقًا من الملوك (مثل عمر وعثمان وعلي ﷺ) فأقام الله للإسلام مَنْ يحفظه غيرهم، ولم يضع الإسلام».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانتصر المسلمون ولاحق قطز فلولهم وطَهّر المسلمون بلاد الشام بكاملها في غضون بضعة أسابيع، وعادت من جديد أرض الشام إلى ملك الإسلام والمسلمين، وفُتحت دمشق، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفُرقة؛ وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطب لقطز رحمه الله على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خُطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات.

وبدأ قطز يُوَزِّع الولايات الإسلامية على الأمراء المسلمين، وكان من حكمته رحمه الله أنه أرجع بعضًا من الأمراء الأيوبيين إلى مناصبهم؛ وذلك ليضمن عدم حدوث الفتنة في بلاد الشام، ولم يخشَ قطز رحمه الله من خيانتهم، وخاصة بعد أن تبيَّن لهم أنه لا طاقة لهم بقطز وبجنوده الأبرار.

مقتله

قَتَل ركنُ الدين بيبرس السلطان المظفر قطز في ذو القعدة ٦٥٨هـ= ٢٤ أكتوبر ١٢٦٠م أثناء عودة الجيش إلى مصر، والسبب أن السلطان قطز قد وعد بيبرس بمنحه حُكم حلب بعد انتهاء الحرب، وبعد ذلك فَكَّر السلطان قطز بالتخلِّي عن السلطنة وإكمال حياته في طريق الزهد وطلب العلم وتَرْكِ قيادة البلاد لقائد جيوشه ركن الدين بيبرس، وبالتالي تراجع عن منح بيبرس ولاية حلب؛ بما أنه سيُصبح ملكًا للبلاد كلها، فاعتقد بيبرس أن السلطان قطز قد خدعه، وبدأ رفاقُه يُصَوِّرُون له ذلك ويُحَرِّضُونه على الخروج على السلطان وقتله، فلمَّا قفل قطز من استعادة دمشق من يد التتار أجمع المماليك البحرية ومنهم بيبرس أن يغتالوه في طريقهم لمصر؛ فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيَّد، وسارت الرواحل على الطريق فاتَّبَعُوه، وتقدَّم إليه أنز الأصبهاني شفيعًا في بعض أصحابه، فشفَّعه فهَوَى يُقَبِّل يده فأمسكها، وعلاه بيبرس بالسيف فخرَّ صريعًا لليدين والفم، ورشقه الآخرون بالسهام فقتلوه، ثم حُمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة فدُفن بها.

ويبدو للناظر في كتب التاريخ التي حفظت لنا هذه القصة أن سيف الدين قطز قد جاء لأداء مهمَّة تاريخية محدَّدة، فما أن أنجزها حتى توارى عن مسرح التاريخ؛ بعد أن جذب الانتباه والإعجاب الذي جعل دوره التاريخي -على الرغم من قِصَر فترته الزمنية- كبيرًا وباقيًا.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيبرس

الاسم الكامل	بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي
اللقب	ركن الدين - أبو الفتوح - القاهر - الظاهر
تاريخ الميلاد	٦٢٠ هـ/ ١٢٢١ م
مكان الميلاد	كازاخستان أو القوقاز
تاريخ الوفاة	٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م
مكان الوفاة	دمشق - سورية
الانتماء	الدولة المملوكية
أعداؤه	التتار- الصليبيون

هو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البندقداري الصالحي النجمي، سلطان مصر وسورية، وقد لُقِّبَ بأبي الفتوح، وهو رابع سلاطين الدولة المملوكية ومُؤَسِّسها الحقيقي؛ بدأ مملوكًا يُباع في أسواق بغداد والشام، وانتهى به الأمر كأحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط، لَقَّبَه الملك الصالح أيوب في دمشق بركن الدين، وبعد وصوله إلى الحكم لَقَّب نفسه بالملك الظاهر؛ حقق بيبرس العديد من الانتصارات على الصليبيين والمغول ابتداءً من معركة المنصورة ومعركة عين جالوت، وقد قضى على إمارة أنطاكية الصليبية أثناء حُكْمه.

حكم مصر بعد رجوعه من معركة عين جالوت واغتيال السلطان سيف الدين قطز؛ حيث خُطب له بالمساجد يوم الجمعة ٦ ذي الحجة ٦٥٨هـ= ١١ نوفمبر ١٢٦٠م، أحيا خلال حُكمه الخلافة العباسية في القاهرة بعدما قضى عليها المغول في بغداد، وأنشأ نظمًا إداريةً جديدة في الدولة، واشتُهر بذكائه العسكري والدبلوماسي، وكان له دور كبير في تغيير الخريطة السياسية والعسكرية في منطقة البحر المتوسط؛ حكم ١٧ سنة وشهرين.

أصله ونشأته

مختلف في أصله، فبينما تذكر جميع المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركي من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القبجاق (كازاخستان حاليًا)؛ فإن بعض الباحثين المسلمين في العصر الحديث يُشيرون إلى أن مُؤَرِّخي العصر المملوكي من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك، وأنهم كانوا ينسبون أيَّ رقيق مجلوب من مناطق القوقاز والقرم إليهم، وذكر المقريزي بأنه وصل حماة مع تاجر، وبيع إلى الملك المنصور محمد حاكم حماة، لكن لم يُعجبه وأرجعه، فذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وهو في الرابعة عشر من عمره، وباعه هناك بثمانمائة درهم لكن الذي اشتراه أرجعه إلى التاجر؛ لأنه كان به عيب خلقي في إحدى عينيه (مياه بيضاء)، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة، وأعتقه الملك الصالح، ومنحه الإمارة؛ فصار أميرًا، كان بيبرس طويلاً، وصوته جهوري، وعيناه كانت فيها زرقة، ويُوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء.

حملة لويس

برز بيبرس عندما قاد جيش المماليك في معركة المنصورة ضدَّ الصليبيين في رمضان من عام (٦٤٧ هـ= ١٢٤٩م)؛ فقد شنَّ الفرنجة هجومًا مباغتًا على الجيش المصري؛ مما تسبَّب في مقتل قائد الجيش «فخر الدين بن الشيخ»، وارتبك الجيش، وكادت أن تكون كسرة؛ لولا خطَّة معركة أو مصيدة المنصورة التي رَتَّبها بيبرس القائد الجديد للمماليك الصالحية أو البحرية، وبموافقة شجر الدر الحاكمة الفعلية لمصر في تلك الفترة بعد موت زوجها سلطان مصر الصالح أيوب؛ فقد قاد الهجوم المعاكس في تلك المعركة ضدَّ الفرنج، وتسبَّب في نكبتهم الكبرى في المنصورة؛ التي تمَّ فيها أسر الملك الفرنسي لويس التاسع، وحَبَسَهُ في دار ابن لقمان.

مقتل توران شاه

وبعد وفاة السلطان الصالح أيوب استدعت شجر الدر ابنه توران شاه من حصن حيفا، ونَصَّبته سلطانًا على مصر؛ ليقود الجيش المصري ضدَّ القوات الصليبية الغازية؛ لكنْ ما إن انتهت الحرب، حتى بدأ توران شاه بمضايقة شجر الدر، وظلَّ يُطالبها بردِّ أموال ومجوهرات والده، وفي الوقت نفسه توعَّد وهدَّد مماليك أبيه، واستبعدهم من المناصب، ووضع مكانهم أصحابه الذين أَتَوْا معه من حصن حيفا؛ مما حدا بالمماليك بالإسراع في قتله قبل خروج الفرنج من دمياط، فقُتل بمشاركة بيبرس وفارس الدين أقطاي في فارسكور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قيام دولة المماليك

وبعد مقتل توران شاه نَصَّبَ المماليك شجر الدر سلطانة باعتبارها أرملة السلطان الصالح أيوب، وأم ابنه خليل الذي مات صغيرًا، وطلبوا من أمراء الأيوبية في الشام الاعتراف بسلطنتها؛ فرفض الأيوبيون في الشام هذا التنصيب؛ لأن ذلك معناه نهاية لدولتهم في مصر، وأيضًا لم يُوافق الخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد؛ الذي اعترض على ولاية امرأة، فتَسَلَّم السلطنة عزُّ الدين أيبك، الذي تزوجها لكي يتمكَّن من الحكم، ولكنَّ الأيوبيين لم يُوافقوا على ذلك، وتمَّ إرسال جيش إلى مصر بقيادة صاحب حلب ودمشق الناصر يوسف لاحتلالها وتحريرها من المماليك، ولكنَّهم هُزموا أمام المماليك، وفرُّوا هاربين إلى الشام؛ مما مكَّن المماليك من تثبيت حُكْمِهم في مصر.

صراع المماليك

بعد استتباب الأمر للمماليك في حُكْم مصر بقيادة السلطان أيبك، بدأ أمر أقطاي يستفحل، وأحسَّ السلطان عزُّ الدين أيبك بزيادة نفوذه، خاصة بعدما طلب من أيبك أن يُفْرِدَ له مكانًا في قلعة الجبل، ليسكن به مع عروسه، فقرَّر قتله بالتعاون مع مملوكه سيف الدين قطز والمماليك المعزية، فاستدرجه إلى قلعة الجبل واغتاله، وألقى برأسه إلى المماليك البحرية، الذين تجمَّعُوا تحت القلعة مطالبين بالإفراج عنه، وكان ذلك سنة (٦٥٢هـ= ١٢٥٤م)؛ ففر المماليك البحرية من مصر إلى سورية والكرك وسلطنة الروم السلاجقة وأماكن أخرى، وكان في مُقَدِّمَتِهم: بيبرس، وقلاوون الألفي، وبلبان الرشيدي، وسنقر الأشقر؛ الذين فَرُّوا إلى دمشق.

فرح الناصر يوسف بما حصل ورحَّب بهم، وحاول أن يستخدمهم ضدَّ أيبك، فأرسل الناصر يوسف جيشه للهجوم على مصر، وذلك بمساعدة المماليك البحرية الذين معه في هذه المرَّة، ولكن ما إن وصل حدود مصر حتى اضطر إلى أن ينسحب ويُوافق على شروط أيبك؛ التي كان من ضمنها إبعاد البحرية عن سورية؛ فرحلوا إلى الكرك، فاستقبلهم صاحب الكرك المغيث عمر أحسن استقبال، وفَرَّق فيهم الأموال، وحاول الهجوم على مصر بدعم المماليك البحرية، ولكنه مُنِيَ بهزيمة أمام أيبك، وكرَّ راجعًا وكان ذلك سنة (٦٥٦هـ= ١٢٥٨م)، وأثناء عودة المماليك منهزمين من مصر هاجموا غزة؛ التي كانت تُعَدُّ تابعة للناصر يوسف،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهزموا الحامية التي بها، فقوي أمرهم.

وفي أثناء تحرُّك البحرية في جنوب الشام، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية، التي فرَّت من العراق تحت ضغط التتار، فاتفقوا معهم وتزوَّج بيبرس امرأة منهم؛ لتوثيق الاتفاق بالمصاهرة؛ وهذا ما حرَّك المخاوف عند الناصر تجاههم، فحرَّك عساكره إليهم، فهزم البحرية عسكر الشام، فركب الناصر بنفسه وبكلِّ جيشه، ففرَّت البحرية إلى الكرك والشهرزورية إلى مصر، فتابع تحرُّكه نحو الكرك وحاصرها، فأراد المغيث حلَّ القضية سلميًّا مع الناصر، فوافق الناصر على شرط تسليمه المماليك، وفي أثناء الحصار شعر بخطورة الموقف أحد مُقَدِّمي البحرية، وربما أذكاهم وأكثرهم أهلية للقيادة -وكان هو الظاهر بيبرس- الذي يُعرف بدقَّة أين يجب أن يكون في كل ظرف، فتسلَّل من قلعة الكرك ولجأ إلى الناصر يوسف؛ الذي استقبله وعفا عنه، أمَّا باقي المماليك فقد تَسَلَّمهم الناصر من المغيث، وأودعهم سجن قلعة حلب، وبقوا فيها حتى فتح التتار حلب وأخذوهم منها.

الزحف المغولي

بعد توجُّه المغول إلى حلب واستيلائهم عليها وتدميرهم لها؛ ممَّا أثار موجة من الرعب في قلوب المسلمين وحُكَّامهم؛ فمنهم مَنْ هرب إلى مصر كما فعل صاحب حماة، ومنهم مَنْ فضَّل الاستسلام حقنًا للدماء كما فعل حاكم حمص، ولم يبقَ من المدن المهمَّة سوى دمشق؛ التي جمع حاكمها الناصر الجيوش لمواجهة المغول، ثم ما لبث أن انفضَّت تلك الجيوش من حوله؛ وذلك بأنه كان متحيِّرًا فيما يفعل تجاه المغول، فما كان من المماليك الرافضين لتصرُّفاته المتردِّدَة إلَّا أن حاولوا قتله وتولية أخيه الملك الظاهر مكانه، فاكتشف الناصر تلك المؤامرة ففرَّ ليلًا من المعسكر إلى قلعة دمشق وتحصَّن بها، فلمَّا علم مماليكه بهربه وافتضاح أمرهم ساروا نحو غزَّة برفقة بيبرس البندقداري، ومن غزَّة اتَّصل بسلطان المماليك الجديد قطز؛ فدعاه إلى العودة، وأقطعه قليوب، وأنزله بدار الوزارة، وعظم شأنه لديه.

عين جالوت

عاد بيبرس إلى مصر بعد أن ولَّاه سيف الدين قطز منصب الوزارة عام (٦٥٨هـ= ١٢٦٠م) ليشتركا معًا في محاربة المغول؛ الذين كانوا في طريقهم إلى مصر بعد اجتياحهم المشرق الإسلامي ثم العراق، وإسقاطهم الدولة العباسية في بغداد، وقد أرسل هولاكو رُسُلًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقطز يحملون كتابًا فيه تهديدٌ ووعيدٌ إن لم يخضعوا له، فعقد سيف الدين قطز اجتماعًا مع وُجهاء الدولة وعلمائها، وتمَّ الاتفاق على التوجُّه إلى قتال المغول؛ إذ لا مجال لمداهنتهم، وقد اختلى قطز ببيبرس البندقداري، الذي كان أمير الأمراء، واستشاره في الموضوع، فأشار عليه بأن: «اقتل الرسل، وأن نذهب إلى كتبغا متضامنين، فإن انتصرنا أو هُزمنا، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين». فاستصوب قطز هذا الكلام، وقام بقتل رسل المغول؛ بعد ذلك تحرَّك الجيش لمواجهة التتار، وقام قطز بتقسيم جيشه إلى مقدِّمة بقيادة بيبرس، وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة كقوات دعم، أو لتنفيذ هجوم مضادٍّ أو معاكس، وفي (٢٥ من رمضان ٦٥٨هـ= ٣ من سبتمبر ١٢٦٠م) بدأت المعركة، وقامت مقدِّمة الجيش بقيادة بيبرس بهجوم سريع، ثم انسحبت متظاهرة بالانهزام؛ لسحب خيالة المغول إلى الكمين، وانطلت الحيلة على كتبغا؛ فحمل بكل قوَّاته على مقدِّمة جيش المسلمين واخترقه، وبدأت المقدمة في التراجع إلى داخل الكمين، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش، وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا؛ فعندئذٍ اشتدَّ القتل، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى هُزم الجيش المغولي، وقُتل معظمهم بمن فيهم قائدهم كتبغا، ولاحق قطز وبيبرس فلولَ التتار وطَهَّر المسلمون بلاد الشام بكاملها في غضون بضعة أسابيع، وعادت من جديد أرض الشام إلى ملك الإسلام والمسلمين، وفُتحت دمشق، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته.

مقتل قطز

أثناء عودة الجيش إلى مصر قَتَل ركنُ الدين بيبرس السلطانَ المظفَّرَ قطز؛ وذلك أن السلطان قطز قد وعد بيبرس بمنحه حُكْم حلب بعد انتهاء الحرب، وبعد ذلك فكَّر السلطان قطز في التخلِّي عن السلطنة وإكمال حياته في طريق الزهد وطَلَبِ العلم، وتَرْكِ قيادة البلاد لقائد جيوشه ركن الدين بيبرس، وبالتالي تراجع عن منح بيبرس ولاية حلب بما أنه سيُصبح ملكًا للبلاد كلها؛ فاعتقد بيبرس أن السلطان قطز قد خدعه وبدأ رفاقُه يُصَوِّرُون له ذلك ويُحَرِّضُونه على الخروج على السلطان وقتله، فلمَّا قفل قطز من استعادة دمشق من يد التتار؛ أجمع المماليك البحرية ومنهم بيبرس على أن يغتالوه في طريقهم إلى مصر، فلما قارب مصر ذهب في بعض أيامه يتصيَّد، وسارت الرواحل على الطريق، فاتَّبَعُوه، وتقدَّم إليه أنز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأصبهاني شفيعًا في بعض أصحابه، فشفَّعه فهَوَى يُقَبِّل يده فأمسكها، وعلاه بيبرس بالسيف فخرَّ صريعًا لليدين والفم، ورشقه الآخرون بالسهام؛ فقتلوه وتبادروا إلى المخيم، وقام دون فارس الدين أقطاي على ابن المعز أيبك وسأل: مَنْ تولَّى قتله منكم؟ فقالوا: بيبرس. فبايع له واتَّبعه أهل المعسكر ولقَّبُوه بالقاهر، وبعثوا بالخبر إلى القلعة بمصر، فأخذ له البيعة على مَنْ هناك، ووصل القاهر ودخل القلعة فجلس على كرسيه، ولكنه غيَّر لقبه إلى الظاهر، وكتب إلى الأقطار بذلك، ورتَّب الوظائف وولى الأمراء، وقد عمد أولًا إلى القضاء على الاضطرابات الداخلية، وتصفية معارضيه الذين احتجُّوا على مقتل السلطان قطز، ومنهم الأمير علم الدين سنجر الحلبي؛ الذي استنابه قطز على دمشق، والذي نادى بنفسه سلطانًا على دمشق، وركب بشعار السلطنة، وأمر بالخطبة له على المنابر، وضرب السكة باسمه، وقد أرسل بيبرس حملة عسكرية إليه، وتمكَّنت من القضاء عليه وإعادة دمشق تابعة إلى مصر، ثم أرسل إلى الأمراء بحلب وحماة بوجوب طاعته.

ثورة الكوراني

تمكَّن الظاهر بيبرس -أيضًا- من القضاء على التمرُّدات الفاطمية في القاهرة، التي أثارها رجل يُدْعَى الكوراني، وهو فارسي الأصل من نيسابور، وكان يهدف إلى قلب نظام الحكم وإرجاع الفاطميين، وقد أدَّت تلك الحركة إلى إعلان العصيان على بيبرس، والمسير في شوارع القاهرة ليلًا، ثم الهجوم على مخازن السلاح والإصطبلات وأَخْذِ ما بها من السيوف والخيل، إلَّا أنَّ الظاهر بيبرس تمكَّن بقوَّاته الخاصة من الإحاطة بالمتمرِّدِينَ والقبض على جميع زعمائهم ومنهم الكوراني؛ حيث أمر السلطان بصلبه على باب زويلة بالقاهرة، وبها انتهت جميع محاولات الفاطميين بالتمرُّد والعودة إلى سُدَّة الحُكْم.

إحياء الخلافة العباسية

أراد بيبرس أن يُضفي على حكمه نوعًا من الزعامة والنفوذ على البلاد الإسلامية، ولكي يمنح دولته الفتية نوعًا من الشرعية عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة؛ ليُقِيلَهَا من الانتكاسة التي أصابتها في بغداد على يد المغول، وعليه فقد أرسل في طلب أحد أبناء البيت العباسي، فوصل إلى القاهرة القاسم أحمد في رجب ٦٥٩هـ= يونيو ١٢٦١م؛ حيث قُوبل بالتكريم والاحترام، وبعدها بأيام عقد السلطان بيبرس مجلسًا عامًّا بالديوان الكبير بالقلعة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستدعى كلَّ أعيان البلد، ثم قام السلطان أمام الجميع فبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الجهاد في سبيل الله. فتبعه الجميع بالمبايعة، ولقب الخليفة المستنصر بالله؛ وبذلك أُحييت الخلافة العباسية للمرَّة الثانية في القاهرة، غير أن الخلافة لم تتدخَّل في الشئون المملوكية؛ حيث إن السلطة الفعلية في يد الظاهر بيبرس والمماليك من بعده.

مدَّ بيبرس نفوذه وسلطانه إلى الحجاز؛ حيث يُوجد الحرمان الشريفان، وتخلَّص من الملك المغيث عمر بن العادل الأيوبي حاكم الكرك، الذي كان يُناوئ السلطان بيبرس، ويرى في المماليك دخلاء اغتصبوا العرش الأيوبي في مصر والشام دون وجه حقٍّ، فعمل على منازعتهم، وتطوَّر الأمر به إلى أن راسل هولاكو زعيم المغول الإيلخانيين، وحرَّضه على غزو مصر، لكنَّ بيبرس حين علم بهذه المكاتبات قبض عليه وقتله في سنة (٦٢٢هـ= ١٢٦٣م) واستولى على الكرك، وعيَّن بها واليًا من قِبَلِه.

ترميم القلاع وطرق الإمداد

عمد السلطان بيبرس إلى تأمين وصول قوَّاته إلى بلاد الشام بالسيطرة على كلِّ المدن والقلاع الممتدَّة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة له، والتفت -أيضًا- إلى تحصين الأطراف والثغور وعمارة القلاع التي خَرَّبها المغول في الشام، وأخذ يُزَوِّدُها بالرجال والسلاح من مصر وبعض مدن الشام القوية، كما عمل على تقوية الأسطول والجيش، وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها الموجودة في الفسطاط والإسكندرية ودمياط، ولم يكتفِ بهذا العمل لتأمين وصول قوَّاته إلى الشام ومنع أيِّ التفاف حولها من الخلف؛ بل عمد -أيضًا- إلى التحالف مع بعض القوى الخارجية ليتفرَّغ للصليبيين.

الجهاد في جبهتين

حرص بيبرس على القضاء على بقية الوجود الصليبي في الشام، فبعد أن اطمأنَّ إلى تماسك جبهته الداخلية اتَّجه ببصره إلى القوى الخارجية المتربِّصة بدولته، وتطلَّع إلى أن ينهض بمسئوليته في الدفاع عن الإسلام، ولم يكن هناك أشدّ خطرًا عليه من خطر المغول والصليبيين، وقبل أن ينهض لعمله أعدَّ العُدَّة لذلك؛ فعقد معاهدات واتفاقيات مع القوى الدولية المعاصرة له؛ حيث سعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، وعقد معاهدات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع «مانفرد بن فردريك الثاني» إمبراطور الدولة الرومانية، وأقام علاقات ودية مع «ألفونسو العاشر» ملك قشتالة الإسباني؛ حتى يضمن حياد هذه القوى حين يشنُّ غاراته على الإمارات الصليبية في الشام، ويستردّ ما في أيديهم من أراضي المسلمين.

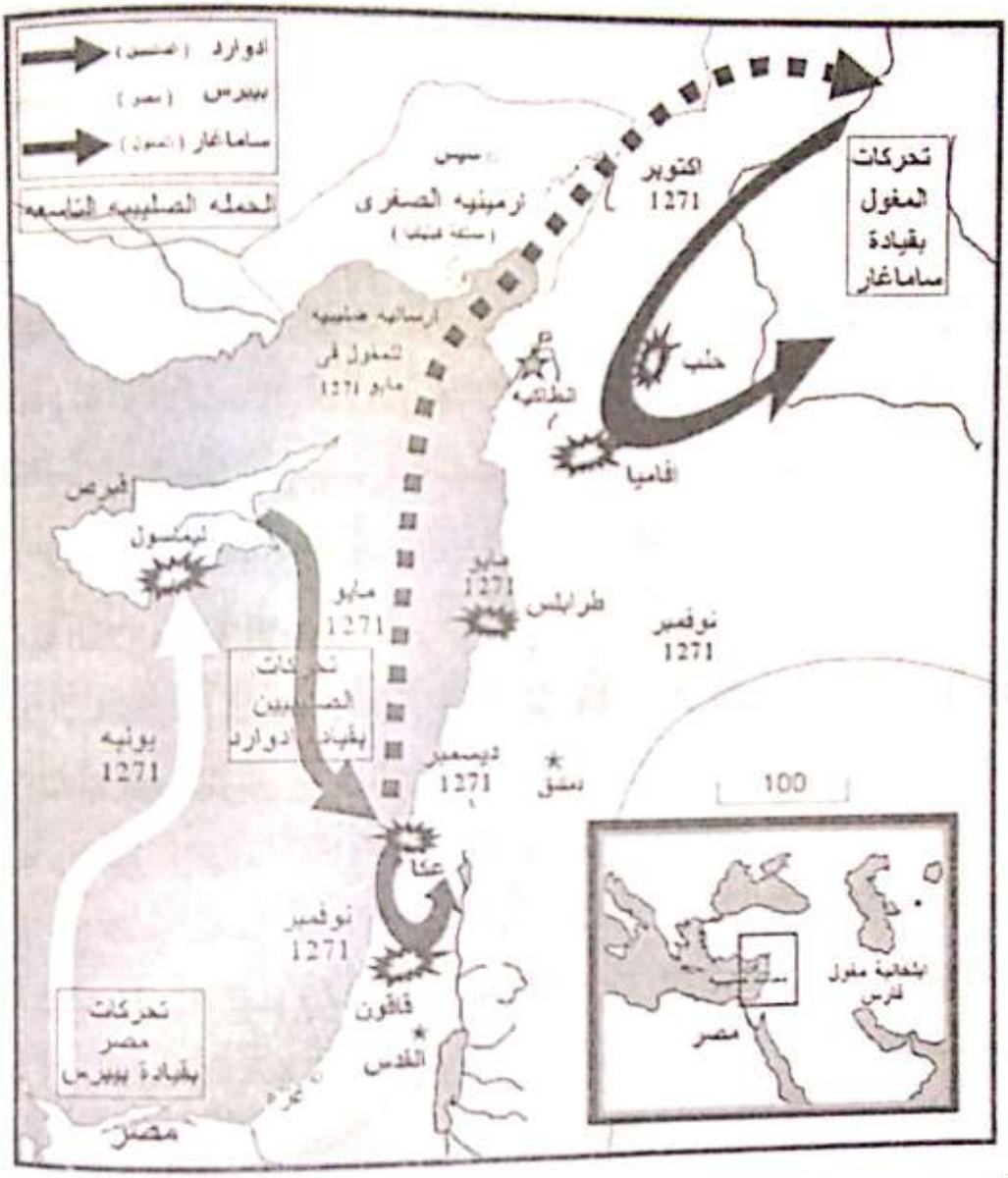

واتَّبع بيبرس -أيضًا- هذه السياسة في الجبهة المغولية؛ حيث تحالف مع «بركة خان» زعيم القبيلة الذهبية المغولية؛ وكان قد اعتنق الإسلام، وقد امتدَّت بلاده من تركستان شرقًا إلى شمال البحر الأسود غربًا، وهي التي تُعرف ببلاد القبجاق. ولكي يزيد من قوَّة الرابطة بينه وبين بركة خان أمر بالدعاء له على منابر دولته، وتزوَّج من ابنته، وكان هذا الحلف مُوَجَّهًا إلى عدوِّهما المشترك المتمثِّل في دولة إيلخانات فارس، التي كان يحكمها هولاكو وأولاده، وكانت تشمل العراق وفارس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الوقت نفسه أعدَّ لتحقيق هدفه جيشًا قويًّا، وأسطولاً ضخمًا، وأعاد تحصين القلاع والحصون، وأمدَّها بالذخيرة والأقوات، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة لرصد نشاط العدوِّ عُرفت باسم المنائر، وأفسد الطرق والوديان المؤدِّية إلى الشام؛ كي لا يجد المغول في أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من أقوات أو أعلاف لدوابهم.

وأثمرت هذه السياسة الحازمة عن تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين، منذ أن بدأت حملاته الظافرة في سنة (٦٦٣ هـ= ١٢٦٥م)، ففتح قيسارية، وأرسوف، وقلعة صفد، ويافا، ثم توَّج جهوده بفتح إنطاكية المدينة الحصينة؛ التي ظلَّت رهينة الأسر الصليبي أكثر من قرن ونصف من الزمان، وذلك في ٥ من رمضان ٦٦٦هـ= ١٩ من مايو ١٢٦٨م، وكان سقوطها أعظم فتح حقَّقه المسلمون على الصليبيين منذ معركة حطين سنة (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)، وعلى الجبهة الأخرى نجح السلطان بيبرس في الدفاع عن بلاده أمام هجمات المغول المتتالية، وفي تحقيق عدَّة انتصارات عليهم في «الْبِيرَة» و«حرَّان»، وعلى الرغم من إخفاق مغول فارس في توسيع دولتهم على حساب دولة المماليك؛ فإنهم كانوا يُعاوِدُون الهجوم؛ حتى ألحق بهم بيبرس هزيمةً ساحقة عند بلدة «أَبُلُسْتَيْن» بآسيا الصغرى سنة (٦٧٥هـ= ١٢٧٧م)؛ وبذلك أمَّن بيبرس حدود دولته من الجبهتين الشرقية والشمالية.

النهضة المعمارية والتعليمية

شهد عهد بيبرس نهضة معمارية وتعليمية كبيرة؛ حيث اهتمَّ بتجديد الجامع الأزهر، فأعاد للأزهر رونقه، فشنَّ عليه حملات من الترميم والتجميل إلى أن عاد له جماله ومكانته مرَّة أخرى، وأعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر بعد أن هُجر طويلاً، ونَصَّب أربعة قضاة شرعيين، واحدًا من كل مذهب من مذاهب السُّنَّة الأربعة بعد أن كان القضاء مقتصرًا على قاضي قضاة شافعي، وعمل على إنشاء العديد من المؤسَّسَات التعليمية فأنشأ المدارس بمصر ودمشق، كما أنشأ عام (٦٦٥هـ= ١٢٦٧م) جامعًا عُرف باسمه إلى اليوم في مدينة القاهرة، وهو جامع الظاهر بيبرس، والذي ما زال قائمًا إلى اليوم، كما عَمِلَ بيبرس على إنشاء الجسور والقناطر والأسوار، وحفر الترع والخلجان، وأنشأ مقياسًا للنيل، وغيرها العديد من الأعمال، ونَظَّم البريد وخصَّص له الخيل، وبنى كثيرًا من العمائر، وكافح الخمر والمفاسد.

وفي خارج مصر قام بعدد من الإصلاحات في الحرم النبوي بالمدينة المنورة، وقام بتجديد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسجد إبراهيم عليه السلام في الخليل، كما قام بتجديد قبة الصخرة وبيت المقدس، وعمل على إقامة دار للعدل للفصل في القضايا والنظر في المظالم.

صفاته

أهمُّ ما كان يتَّصف به بيبرس: الشجاعة والإقدام والدهاء، والكرم، وحُبّ الخير، والإحسان إلى الفقراء، وإكرام العلماء وسماع نصائحهم، والسكوت على مخاشنتهم له في النصح، كما كان يفعل معه عزُّ الدين بن عبد السلام، والنووي.

وُصِفَ بيبرس بأنه كان يتنقَّل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره إلَّا وهو بينهم، وقيل عنه: إنه ما كان يتوقَّف عن شيء لبلوغ غايته؛ ليحمل قوى الحصون على الاستسلام له، وكان نجاحه يعتمد على تنظيمه وسرعته وشجاعته المتناهية، وكان شعار دولته الأسد، وقد نقش صورته على الدراهم.

وفاته

تُوُفِّيَ الظاهر بيبرس يوم الخميس (٢٧ من المحرم ٦٧٦هـ= ٢ من مايو ١٢٧٧م) عن ٥٤ عامًا؛ وذلك بعد رجوعه من معركة أَبُلُسْتَيْن ضد المغول سنة (٦٧٥هـ= ١٢٧٧م)، ودُفِنَ في المكتبة الظاهرية في دمشق بعد حُكم دام ١٧ سنة.

❊ ❊ ❊

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنصور قلاوون

الاسم الكامل	المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي
اللقب	الملك المنصور قلاوون
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	غير معروف
تاريخ الوفاة	٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م
مكان الوفاة	القاهرة – مصر
الانتماء	دولة المماليك
أعداؤه	المغول - الصليبيون

هو المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، أحدُ أشهر سلاطين المماليك البحرية، ورأسُ أسرةٍ حكمت مصر والمشرق العربي ما يزيد على قرن من الزمان، كان من رجال الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأبلى بلاءً حسنًا في معركة المنصورة، وعلا شأنه بعد ذلك، فكان من كبار الأمراء أصحاب النفوذ في دولة بيبرس، وبُويع له بالسلطنة في الحادي عشر من رجب سنة ٦٧٨هـ خلفًا للملك الصغير العادل بدر الدين سُلامش.

قبل الولاية

بعد وفاة الظاهر بيبرس سنة (٦٧٦هـ=١٢٧٨م) خلفه على الحكم اثنان من أولاده؛ هما: بركة خان، وبدر الدين سلامش؛ لكنهما لم يستمرَّا طويلًا في الحكم؛ لصغر سنِّهما وعدم أهليتهما لممارسة أعباء الحكم؛ فالأوَّل كان في السابعة عشر من عمره عندما تولَّى الحكم، وكان على النقيض من أبيه: شابًّا مستهترًا، يميل إلى اللهو والشراب، سيِّئ الرأي والتدبير، فنفر منه كبار الأمراء وقاموا بخلعه، وأمَّا الآخر فكان طفلاً حدثًا في السابعة من عمره، لا يعرف معنى السلطة، ولا يقدر على حمل شيء من تبعاتها؛ فقام الأمير قلاوون بالوصاية على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السلطان الصغير وإدارة أمور الدولة نيابة عنه؛ حتى إذا أمسك زمام الأمور بيده، وصار الحكم طوع بنانه أقدم على ما لا بُدَّ منه، فخلع السلطان الطفل -الذي لا يعرف لماذا أُقيم على السلطنة؟ ولِمَ خُلع؟- وأعلن نفسه سلطانًا على البلاد.

تولي قلاوون الحكم

كان الأمير سيف الدين قلاوون أحدَ المماليك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر بألف دينار، فعُرف قلاوون بالألفي، ولمَّا تُوُفِّي الأمير علاء الدين انتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب، ثم أهَّلته مواهبه وملكاتُه لأن يبرز على الساحة في الفترة التي خرجت فيها دولة المماليك البحرية إلى الوجود، ولمع في عهد السلطان الظاهر بيبرس؛ الذي أولاه ثقته؛ لرجاحة عقله وشجاعته، ونصاهرا؛ حيث تزوج بركة خان ابن السلطان بيبرس من ابنة قلاوون؛ تأكيدًا على رُوح المحبَّة والصداقة بينهما.

ولما ساءت سلطنة بركة خان وفشل في القيام بأعباء الحكم لخفَّته ورعونته وسُوء نصرُه؛ أجبره الأمراء على خلع نفسه من الحكم، وكان لقلاوون يد ظاهرة في هذا الخلع، وتطلَّع إلى الحكم وهو به جدير، لكنه انتظر الفرصة المناسبة ليَثِبَ على الحكم دون أن يُنازعه أحدٌ، فلمَّا واتته الفرصة اقتنصها وعزل السلطان الصغير، وتولَّى هو الحكم في (رجب ٦٧٨هـ = نوفمبر ١٢٧٩م)، وبايعه الأمراء وأرباب الدولة، وتلقَّب بالملك المنصور.

وأجمع المؤرِّخون على وصف السلطان قلاوون بأطيب الصفات وأنبلها، ولعلَّ من أبلغ هذه الأوصاف ما قاله بيبرس المنصوري: «كان حليمًا عفيفًا في سفك الدماء، مقتصدًا في العقاب، كارهًا للأذى».

غير أن قلاوون لم يَسْلَمْ من اعتراض كبار أمراء المماليك على تولِّيه الحكم، وكان بعضهم يرى نفسه أحقَّ بالسلطنة منه؛ فَهُمْ على درجات متقاربة من القوَّة والنفوذ، لكنَّ قلاوون نجح -بالقوَّة أحيانًا وبالسياسة أحيانًا أخرى- في أن يُمسك بزمام الأمور، ويقضي على الثورات التي قامت في وجهه.

ونجح قلاوون في استمالة قلوب الناس إليه؛ لرأفته ولينه، وميله إلى رفع ما يزيد من معاناتهم، فألغى كثيرًا من الضرائب التي كانت تُفرض على الناس، وأبطل كثيرًا من المظالم التي عانى الشعب منها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جهاده ضد المغول

في السابع والعشرين من جُمَادَى الآخرة (٦٨٠هـ= ١٢٨١م) وصل الخبر بقدوم منكوتمر بن هولاكو بجيشه إلى عنتاب، فخرج إليه السلطان وعسكر في حمص، واستقدم سنقر الأشقر وقوَّاته، ودخل التتار حماة فخرَّبوا فيها، ثم وصلوا إلى حمص حيث التقى الجمعان في موقعة حمص في (١٤ من رجب ٦٨٠ هـ=٣٠ من أكتوبر ١٢٨١م)؛ حيث اضطربت ميمنة المسلمين في البداية، ثم الميسرة، وثبت السلطان ومَنْ معه ثباتًا عظيمًا؛ مما حمل الأمراء والقادة على الانقضاض على التتار وكسروهم كسرة عظيمة، وجرحوا ملكهم، وقتلوا منهم الكثير، وكانت مقتلة تفوق الوصف، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين انتصارًا مظفَّرًا، ودخل السلطان المنصور دمشق في أُبَّهة النصر في ٢٢ من شعبان، وبين يديه الأسرى حاملين رءوس قتلاهم على الرماح، ثم تحسَّنت العلاقات نسبيًّا بين دولة المغول والمماليك بعد أن تولَّى الحكم تكودار بن هولاكو خلفًا لأخيه أبغا، وأعلن إسلامه، وكان شديد الرغبة في إقامة علاقات ودِّيَّة مع المماليك، لكنَّ هذا التحسُّن لم يدم طويلاً؛ فسرعان ما أطاح به وبآماله «أرغون» ابن أخيه عن حُكْم المغول، وعاد التوتُّر بين الدولتين من جديد، دون أن يحسم قلاوون أمره مع المغول، فظلُّوا خطرًا محدقًا بدولته، وإن نجح في كبح جماح هذا الخطر.

الجهاد ضد الصليبيين

لم يصبر قلاوون على انتهاء المعاهدة التي عقدها مع الصليبيين، وكانوا لا يزالون خطرًا على الدولة، يحتلُّون أجزاءً من أراضيها، ولا يحترمون عهدًا ولا ذمَّة إذا ما سنحت لهم فرصة، أو اشتدَّت بهم قوَّة، فهاجم قلاوون حصن المرقب، وهو من أمنع الحصون الصليبية في الشام؛ وذلك في سنة (٦٨٤هـ= ١٢٨٥م)، ونجح في الاستيلاء عليه، ولم يبقَ للصليبيين من إماراتهم سوى طرابلس التي يحكمها أمراء النورمان، وعكا التي أصبحت مقرَّ مملكة بيت المقدس، بالإضافة إلى بعض الحصون؛ مثل حصني المَرْقَب وطَرَسُوس.

ولم تكن الجبهة الصليبية متماسكة البناء؛ بل كانت الخلافات تَفْتِكُ بها، فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة للانقضاض على الإمارات الصليبية المتبقِّية، فأرسل حملة عسكرية تمكَّنت من الاستيلاء على اللاذقية سنة (٦٨٦هـ= ١٢٨٧م)، وبعد سنتين خرج السلطانُ بنفسه إلى طرابلس على رأس قوَّة كبيرة قوامها أكثر من أربعين ألف جندي، وحاصرها أربعة وثلاثين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يومًا استسلمت بعدها في ربيع الآخر ٦٨٨ هـ= أبريل ١٢٨٩م، وعلى إثرها سقطت المدن الأخرى المجاورة؛ مثل: بيروت، وجبلة، وانحصر الوجود الصليبي في عكا وصيدا وصور وغيليت، بعد أن كانت الممالك الصليبية تمتدُّ على طول الساحل الشامي للبحر المتوسط، وتُوُفِّيَ السلطان المنصور دون أن يتحقَّق أمله في فتح عكا آخر الإمارات الصليبية، غير أن الأقدار شاءت أن ينال ابنه خليل قلاوون شرف إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، بعد أن نجح في اقتحام أسوار عكا المنيعة في ١٧ من جُمَادَى الآخرة ٦٩٠ هـ= ١٨ من مايو ١٢٩٠م، وبعد عكا سقطت بقية المعاقل الصليبية في الشام، وطُوِيَتْ آخر صفحة من صفحاتها.

النشاط الحضاري

على الرغم من انشغال السلطان بمجابهة الخطر الصليبي والمغولي، وإعداد الحملات العسكرية التي استنفدت المال والجهد، فإنَّ السلطان لم يغفل عن تنشيط الحركة العلمية، ومواصلة البناء والعمارة، وإقامة المدارس والمساجد، وكانت القاهرة قد أصبحت موئلًا للعلم، ومركزًا للحضارة بعد سقوط بغداد وازدياد سقوط دول الإسلام في الأندلس على يد الإسبان، فتوافد إليها العلماء واتخذوها قبلة لهم، ووجدوا في كنف سلاطين المماليك كل رعاية واهتمام.

ويذكر التاريخ للسلطان قلاوون ما قام به من إنشاءات عظيمة ارتبطت بها نهضة علمية ونشاط وافر؛ فأقام عددًا من المدارس التي امتلأت بالشيوخ وطلبة العلم، وفي مُقَدَّمَتِهَا المدرسة المنصورية، التي أوقفها لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان يتولَّى التدريس بها كبار الأئمة وأعيان الفقهاء والمُحَدِّثين. وتتضمَّن حُجَّة الوقف التي كتبها قلاوون إشارات كثيرة تتعلَّق بتنظيم العملية التعليمية داخل المدرسة؛ وذلك من حيث مقرِّ الدراسة، وجلوس أهل المذاهب الأربعة بها، وأماكن سكن المدرِّسين الفقهاء وأجورهم ورواتبهم.. وغير ذلك من الشروط، وتُعَدُّ المدرسة من أروع المدارس المملوكية التي شُيِّدت بالقاهرة لعمارتها الراقية، وزخارفها الرائعة.

ولم تكن القبة المنصورية التي أقامها لتكون مدفنًا له مقصورة على هذا الغرض؛ بل جعل منها مدرسة ومسجدًا، ورتَّب بها خمسين مقرئًا؛ يقرءون القرآن ليلاً ونهارًا، وخصَّص لها إمامًا للصلاة، وعالمًا لتفسير القرآن للطلاب الذين يؤمون القبة، وجعل بها خزانة للكتب، وخازنًا يقوم بأمرها، وهذه القبة من أجمل القباب الباقية بمدينة القاهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أفضل إنشاءات المنصور قلاوون البيمارستان الذي أقامه لتقديم الرعاية الصحية والاجتماعية للمرضى، وافتتحه السلطان في حفل كبير شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء، وتضمَّنَتْ حُجَّة وقف هذا الصرح الطبي أنه مفتوح طوال اليوم لتقديم العلاج للمرضى؛ دون نظر إلى طبقاتهم أو جنسياتهم، ودون مقابل أو أجر.

ولم يقتصر دور البيمارستان على تقديم العلاج، بل تعدَّاه إلى تدريس الطبِّ للطلَّاب، وهو ما يُشبه الآن المستشفيات التعليمية التابعة لكليات الطبِّ؛ حيث يُتاح للطلَّاب ممارسة الطبِّ تحت إشراف أساتذتهم.

ولم يبقَ من منشآت قلاوون الكثيرة سوى المجموعة المعمارية التي تتضمَّن القبة والمسجد والبيمارستان؛ وهي شاهدة على ما بلغته الدولة المملوكية من تقدُّم وازدهار شمل مناحي الحياة كلها.

وفاة السلطان قلاوون

كان السلطان قلاوون يرجو أن ينال شرف إنهاء الوجود الصليبي، فاستعدَّ لذلك، لكنَّ القدر لم يُمهله، فتُوُفِّيَ السلطان قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ= ١١ من نوفمبر ١٢٩٠م، وفيها غُسِّل وكُفِّن، ثم حُمل إلى تربته الملحقة بمدرسته العظيمة بين القصرين (شارع المعز) فدُفن فيها، ولا تزال المدرسة شامخة شاهدة على عظمة هذا السلطان وازدهار عهده.

خلف السلطان المنصور ولده السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، الذي استكمل رحلة الجهاد، وفتح فتوحًا عظيمة؛ كان أهمها فتحه لعكا، ومن بعده أخوه الناصر محمد بن قلاوون، وظلَّ الحكم في ولد قلاوون نحو قرنٍ من الزمان.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عثمان بن أرطغرل

الاسم الكامل	عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه
اللقب	السلطان عثمان بن أرطغرل
تاريخ الميلاد	٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م
مكان الميلاد	بلدة سوغود - تركيا
تاريخ الوفاة	٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م
مكان الوفاة	تركيا
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه مُؤَسِّس الدولة العثمانية وأوَّل سلاطينها وإليه تُنسب؛ فلقد تعاقب على إمارة السلطنة العثمانية قبل أن تُعلن نفسها خلافة إسلامية سلاطين أقوياء، ويُعتبر عثمان بن أرطغرل هو مُؤَسِّس الدولة وبانيها، وكانت وصاياه لابنه دستورًا سار عليه سلاطين الدولة العثمانية بعده.

نشأته

وُلِدَ عثمان بن أرطغرل سنة (٦٥٦هـ= ١٢٥٨م)، وشهدت سنةُ مولده غزو المغول بقيادة هولاكو لبغداد وسقوط الخلافة العباسية.

لقد كان الخطب عظيمًا والحدث جللاً، والأُمَّة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها؛ ولذلك سَلَّط الله ﷻ المغول عليها، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخَرَّبُوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأُمَّة وُلِدَ عثمان مُؤَسِّس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألَا وهو بداية الأُمَّة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط، تلك هي بداية الصعود نحو العزَّة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله ﷻ وإرادته ومشيئته النافذة، ولا شكَّ أن الله تعالى قادر على أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يُمكِّن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها؛ بل في طرفة عين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فلا يستعجل أهل الحقِّ موعود الله ﷻ لهم بالنصر والتمكين، فلا بُدَّ من مراعاة السُّنَنِ الشرعية والسُّنَنِ الكونية، ولا بُدَّ من الصبر على دين الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]. والله ﷻ إذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابه، وأتى به شيئًا فشيئًا بالتدرُّج لا دفعة واحدة؛ وبدأت قصَّة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان؛ الذي وُلِدَ في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

أعماله

لقد بدأ عثمان يُوَسِّع إمارته؛ فتمكَّن من أن يضمَّ إليه عام (٦٨٨هـ= ١٢٨٩م) قلعة قره حصا (القلعة السوداء)، أو أفيون قرة حصار؛ فسُرَّ الملك علاء الدين سلطان السلاجقة بهذا كثيرًا، فمنحه لقب (بك)، والأراضي التي يضُمُّها إليه كافَّة، وسمح له بضرب العملة، وأن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام (٦٩٩هـ= ١٣٠٠م) أغار المغول على إمارة علاء الدين، ففرَّ من وجههم، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة، وتُوُفِّيَ هناك في العام نفسه، وإن قيل: إنَّ المغول قد تمكَّنُوا من قتله، وتولية ابنه غياث الدين مكانه. ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففسح المجال لعثمان؛ إذ لم تَعُدْ هناك سلطة أعلى منه تُوَجِّهُه أو يرجع إليها في المهمَّات؛ فبدأ يتوسَّع، وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت)، وأزنيق (نيقية) رغم محاصرتهما، واتخذ مدينة (يني شهر) -أي المدينة الجديدة- قاعدة له، ولقَّب نفسه باديشاه آل عثمان، واتخذ راية له وهي علم تركيا اليوم، ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أَبَوْا فعليهم أن يدفعوا الجزية، فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن يُنجدوهم منه، غير أن عثمان قد جهَّز جيشًا بإمرة ابنه أورخان، الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيَّره إلى قتال المغول فشتَّت شملهم.

ثم عاد واتَّجه إلى مدينة (بورصة)؛ فاستطاع أن يدخلها عام (٧١٧هـ= ١٣١٧م)، وتُعَدُّ بورصة من الحصون الرومية المهمَّة في آسيا الصغرى، فأمَّن أهلها، وأحسن إليهم، فدفعوا له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثلاثين ألفًا من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها أفرينوس، فمنحه عثمان لقب (بك)، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين.

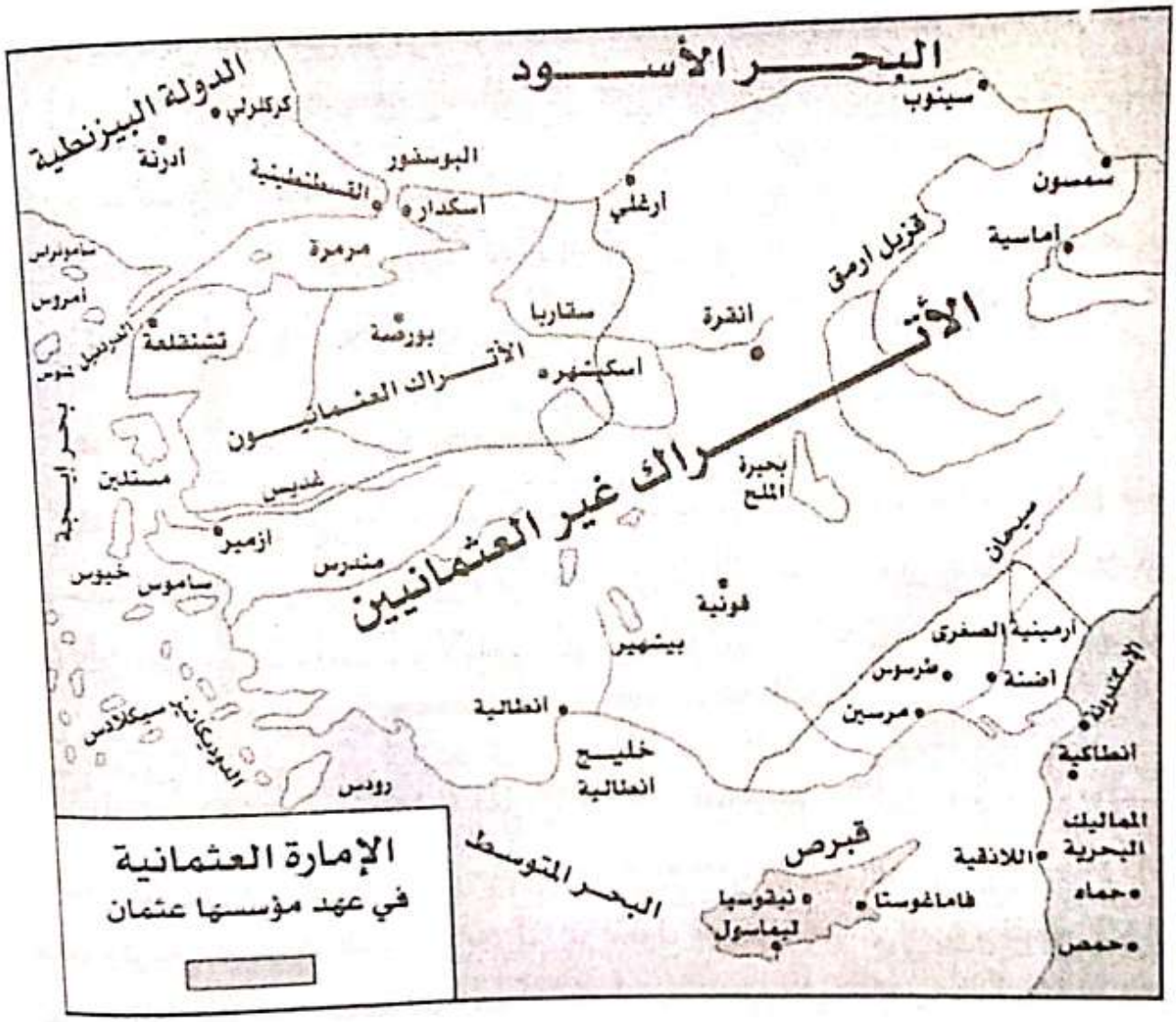

أهم الصفات القيادية في عثمان

١- **الشجاعة:** عندما تنادى أمراء المسيحيين البيزنطيين في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله في عام (٧٠٠هـ= ١٣٠١م)؛ وذلك لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان، واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا -تَقَدَّم عثمان بجنوده، وخاض الحروب بنفسه، فشتَّت الجيوش الصليبية، وظهرت منه شجاعة أصبحت مضرب المثل.

٢- **الحكمة:** لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضدَّ النصارى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وساعده في افتتاح جملةٍ من مدن منيعة، وعدَّة قلاع حصينة؛ ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين، وسمح له بِسَكِّ العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحت يده.

٣- **الإخلاص:** عندما لمس سكان الأرضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين؛ تحرَّكوا لمساندته والوقوف معه؛ وذلك لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سدًّا منيعًا أمام الدول المعادية للإسلام والمسلمين.

٤- **الصبر:** وظهرت هذه الصفة في شخصيَّته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان؛ ففتح في سنة (٧٠٧هـ= ١٣٠٨م) حصن كته، وحصن لفكة، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار، وفي سنة (٧١٢هـ= ١٣١٢م) فتح صحن كبوء وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكور بيكاري.. وغيرها من الحصون، وقد توَّج فتوحاته هذه بفتح مدينة بورصة في عام (٧١٧هـ= ١٣١٧م)؛ وذلك بعد حصار صعب وشديد دام عدَّة سنوات، كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته.

٥- **الجاذبية الإيمانية:** وتظهر هذه الصفة عندما احتكَّ به أفرينوس قائد بورصة فاعتنق الإسلام، وأعطاه السلطان عثمان لقب (بك)، وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعدُ، وقد تأثَّر كثيرٌ من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه، الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم؛ بل إن كثيرًا من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية؛ كجماعة غزياروم (أي غزاة الروم)، وهي جماعة إسلامية كانت تُرابط على حدود الروم وتصدُّ هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وجماعة الإخيان (أي الإخوان)؛ وهم جماعة من أهل الخير يُعينُون المسلمين ويستضيفونهم، ويُصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة، ويتولَّوْنَ إقامة المساجد والتكايا والفنادق، وجماعة حاجيات روم (أي حجاج أرض الروم)؛ وكانت جماعة على فقهٍ بالإسلام ومعرفة دقيقة بتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عمومًا والمجاهدين خصوصًا وغير ذلك من الجماعات.

٦- **عدله:** تروي معظم المراجع التركية التي أرَّخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد إلى ابنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عثمان مُؤَسِّس الدول العثمانية بولاية القضاء في مدينة قرة جه حصار؛ وذلك بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام (٦٨٤هـ= ١٢٨٥م)، وأنَّ عثمانَ حَكَمَ لبيزنطيٍّ نصرانيٍّ ضدَّ مسلمٍ تركيٍّ، فاستغرب البيزنطيُّ؛ وسأل عثمان: «كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك؟!» فأجابه عثمان: «بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ». فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام، لقد استخدم عثمان العدل مع رعيَّتِه وفي البلاد التي فتحها، فلم يُعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجوار، أو التعسُّف أو التجبر، أو الطغيان أو البطش.

٧- **الوفاء:** كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أميرُ قلعة أولوباد البيزنطية -حين استسلم للجيش العثماني- أن لا يمرَّ من فوق الجسر أيُّ عثمانيٍّ مسلم إلى داخل القلعة، التزم بذلك، وكذلك مَنْ جاء بعده.

٨- **التجرُّد:** فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كانت فرصة لتبليغ دعوة الله ونشر دينه؛ ولذلك وصفه المؤرِّخ أحمد رفيق في موسوعته المطبوعة باللغة التركية (التاريخ العام الكبير) بقوله: «**كان عثمان متدينًا للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس، وكان مالكًا لفكر سياسي واسع متين، ولم يُؤَسِّس عثمان دولته حبًّا في السلطة؛ وإنما حبًّا في نشر الإسلام**». ويقول المؤرخ التركي قادر مصر أوغلو في كتابه مأساة بني عثمان: «**لقد كان عثمان بن أرطغرل يُؤمن إيمانًا عميقًا بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعًا بكل حواسِّه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف**».

لقد كانت شخصية عثمان مُتَّزنة وخلَّابة؛ وهذا لإيمانه العظيم بالله واليوم الآخر؛ ولذلك لم تَطْغَ قوَّتُه على عدالته، ولا سلطانُه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقًّا لتأييد الله وعونه؛ ولذلك أكرمه الله بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، فجعل له مكنة وقدرة على التصرُّف في آسيا الصغرى؛ وذلك من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة؛ ولذلك فتح له باب التوفيق، وحقَّق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفاته ووصاياه التي سار عليه العثمانيون

تُوُفِّيَ الغازي عثمان عام (٧٢٦هـ= ١٣٢٦م)، وقد عهد لابنه أورخان بالحُكم من بعده، وقد كانت حياة عثمان جهادًا ودعوةً في سبيل الله، وكان علماء الدين يُحيطون بالأمير، ويُشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعدُ، يقول عثمان في وصيته: «يا بني؛ إيَّاك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله ربُّ العالمين، وإذا واجهتْكَ في الحُكْم معضلة فاتَّخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.. يا بني؛ أحطْ مَنْ أطاعك بالإعزاز، وأَنعِمْ على الجنود، ولا يغرَّك الشيطان بجندك[1] وبمالك، وإيَّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة!.. يا بني؛ إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله ربِّ العالمين، وأنَّ بالجهاد يَعُمُّ نور ديننا كل الآفاق، فتَحْدُثُ مرضاة الله ﷻ.. يا بني؛ لسنا من هؤلاء الذين يُقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد؛ فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل».

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: «اعلم يا بني أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله ﷻ عنها».

وفي كتاب (مأساة بني عثمان) نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان؛ تقول: «يا بني؛ إنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلًا في الرعيَّة، مجاهدًا في سبيل الله، لنشر دين الإسلام.. يا بني؛ أُوصيك بعلماء الأُمَّة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم؛ فإنهم لا يأمرون إلَّا بخير.. يا بني؛ إيَّاك أن تفعل أمرًا لا يُرضي الله ﷻ! وإذا صَعُب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة؛ فإنهم سيدلُّونك على الخير.. واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلَّاب جاهٍ ولا دنيا».

وفي (التاريخ العثماني المصور) عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: «وصيتي لأبنائي وأصدقائي: أديموا علوَّ الدين الإسلامي الجليل بإدامةِ الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية

(١) ذُكِرَتْ في بعض المصادر: "بجهدك".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، اخدموا الإسلام دائمًا؛ لأن الله ﷻ قد وظَّف عبدًا ضعيفًا مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البُلْدَان بجهادكم في سبيل الله، ومَنِ انحرف من سلالتي عن الحقِّ والعدل حُرِمَ من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.. يا بني؛ ليس في الدنيا أحدٌ لا يخضع رقبته للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله ﷻ أُسَلِّمك هذه الدولة، وأستودعك المولى ﷻ، اعدل في جميع شئونك».

لقد كانت هذه الوصية منهجًا سار عليه العثمانيون، فاهتمُّوا بالعلم وبالمؤسسات العلمية، وبالجيش والمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد -الذي أوصل فتوحًا إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم- وبالإمارة وبالحضارة.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أورخان بن عثمان

الاسم الكامل	أورخان بن عثمان بن أرطغرل
اللقب	السلطان أورخان غازي بن عثمان
تاريخ الميلاد	٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م
مكان الميلاد	تركيا
تاريخ الوفاة	٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م
مكان الوفاة	تركيا
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

هو أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل مُؤَسِّس الجيش العثماني، ومُؤَسِّس جيش الانكشارية، ومُنهي نفوذ البيزنطيين في بلاد آسيا الصغرى، وفي عهده بدأت الفتوحات الإسلامية في الشرق الأوربي.

نشأته

وُلِدَ أورخان عام (٦٨٧هـ= ١٢٨٨م) في السنة التي تولَّى أبوه فيها الحُكْم، وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السنِّ، لكن يبدو أنه كان أكثرهم نباهة، وأشجعهم، فنال بذلك الملك.

نشأ أورخان في كنف أبيه السلطان عثمان الغازي مُؤَسِّس الدولة العثمانية؛ التي إليه تُنسب، وحرص أبوه على إعداده لتولِّي المسئولية ومهامِّ الحكام؛ فعهد إليه بقيادة الجيوش التي كان يُرسلها إلى حدود الدولة البيزنطية، وكان أورخان عسكريًّا من الطراز الأول.

السلطان أورخان

لم يكد أورخان ينجح في فتح مدينة بورصة حتى استدعاه والده؛ الذي كان في مرض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموت، وأوصى له بالحُكْم من بعده في (٢١ من رمضان ٧٢٦هـ= ٢١ من أغسطس ١٣٢٦م)، وترك له وصية سجَّلها المؤرخ العثماني عاشق الحلبي؛ جاء فيها: «**يا بني؛ أحِطْ مَنْ أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، لا يغرنَّك الشيطان بجهدك وبمالك، وإيَّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة! يا بني؛ لسنا من هؤلاء الذين يُقيمون الحروب لشهوة حُكْم، أو سيطرة أفراد؛ فنحن بالإسلام نحيا، وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له. يا بني؛ إنك تعلم أنَّ غايتنا هي إرضاء ربِّ العالمين، وأنه بالجهاد يعمُّ نور ديننا كلَّ الآفاق؛ فتَحْدُث مرضاة الله ﷻ**».

وعلى الرغم من أن أورخان لم يكن أكبر أبناء عثمان الغازي؛ فإن أخاه الأكبر علاء الدين لم يُعلن العصيان أو يُعارض وصية أبيه؛ بل إنه قدَّم الصالح العامَّ للدولة على الصالح الخاص له، وجعل نفسه في خدمة أهداف الدولة العليا، وقد عَيَّن أورخان أخاه علاء الدين في الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء)؛ فقام بتدبير الأمور الداخلية، على حين تفرَّغ أورخان للفتوحات العثمانية.

فتوحاته في الأناضول

كان أول عمل قام به أورخان هو أن نقل عاصمة دولته إلى مدينة بورصة؛ نظرًا لموقعها الاستراتيجي، وأرسل أورخان قُوَّاد جيوشه لفتح ما تبقَّى من بلاد آسيا الصغرى الخاضعة لنفوذ البيزنطيين؛ ففتحوا أهم مدنها، وفتح السلطان بنفسه مدينة «أزميد»؛ وهي مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى، ولم يَبْقَ من المدن المهمَّة بتلك المنطقة سوى مدينة «أزنيك»؛ فحاصرها وضيَّق عليها الحصار حتى دخلها بعد سنتين، وانتهى بذلك نفوذ البيزنطيين في بلاد آسيا الصغرى.

اتَّبع أورخان في البلاد المفتوحة سياسة اللين والرفق؛ وهو ما جذب إليه قلوب الأهالي، حيث لم يُعارضهم في إقامة شعائر دينهم، وسمح لهم بحُرِّيَّة الحركة والتنقُّل ونحو ذلك.

وقد أدَّتْ هذه السياسية السمحة إلى أن الغالبية العظمى من الروم البيزنطيين -الذين كانوا يسكنون هذه المناطق- دخلوا الإسلام طوعًا، وأفتى الفقهاء -الذين كان السلاطين يستشيرونهم في كلِّ ما يتَّصل بتشريعات الدولة ونظمها- بأنَّ كلَّ مَنْ أسلم بأهله من السكان صار من أهل الدولة. وهذه الفتوى سَهَّلت على العثمانيين فتح إمارة «قرة سي» الواقعة على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحر سنة (٧٣٦هـ= ١٣٣٦م)؛ وبهذا سيطر الأتراك العثمانيون على الركن الشمالي الغربي لآسيا الصغرى.

تسامع الأتراك في شرقي آسيا بانتصارات بني عمومتهم؛ فتوافدوا عليهم ألوفًا، وانضمُّوا إلى جيوشهم، فتضاعفت أعداد الأتراك العثمانيين مرَّات كثيرة.

أعمال نظامية حضارية

أمضى أورخان -بعد استيلائه على إمارة قرة سي- عشرين سنة دون أن يقوم بأيِّ حروب؛ بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها، وإقامة المنشآت العامة الشاسعة؛ مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه، وحكمته وبُعد نظره، فإنه لم يشنّ الحرب تلو الحرب طمعًا في التوسُّع؛ وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يُتاح له ضمُّها، وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي؛ وبذلك تُصبح جزءًا لا يتجزأ من أملاكهم؛ بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرَّة، وهذا يدلُّ على فَهْم واستيعاب أورخان لسُنَّة التدرُّج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

ولقد اهتمَّ أورخان بتوطيد أركان دولته وبالقيام بالأعمال الإصلاحية والعمرانية، وقد نَظَّم شئون الإدارة، وقوَّى الجيش، وبنى المساجد، وأنشأ المعاهد العلمية وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون، وكانوا يحظَوْنَ بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام في الدولة، وكانت كلُّ قرية بها مدارسها، وكلُّ مدينة بها كليتها التي تُعَلِّم النحو والتراكيب اللغوية، والمنطق وفقه اللغة، وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة، والهندسة والفلك، وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه، والسُّنَّة والفقه والعقائد.

تأسيس الجيش العثماني الإسلامي

كان من أهمِّ أعمال أورخان تأسيسه للجيش الإسلامي، وقد حرص على إدخال نظامٍ جديد للجيش وتطويره وتحديثه؛ حتى يُؤَدِّيَ دوره على أحسن وجه؛ فقام بتقسيم الجيش إلى وَحَدَات، كل وَحْدَة تتكوَّن من عَشَرَة أشخاص، أو مائة، أو ألف، وخَصَّصَ خُمُسَ الغنائم للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشًا دائمًا وليس استثنائيًّا؛ فقد كان قبل ذلك لا يجتمع إلَّا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقت الحرب، كما أنشأ كذلك مراكز خاصَّةً يتمُّ فيها تدريب الجيش والارتقاء بالجنود، وتعليمُهم مهارات القتال.

لقد احتلَّ الجيش مكانة بالغة الأهمية في حياة الدولة العثمانية؛ فهو أداةٌ للحُكْم والحرب معًا؛ إذ كانت الحكومة العثمانية جيشًا قبل أي شيء آخر، وكان كبار موظَّفي الدولة هم في الوقت نفسه قادة الجيش، ومن هنا جاء القول الشائع بأن الحكومة العثمانية والجيش العثماني وجهان لعملة واحدة.

لقد استطاع أورخان أن يُؤَسِّس جيشًا إسلاميًّا نظاميًّا دائم الاستعداد للجهاد، وقد كان هذا الجيش يتكوَّن من فرسان عشيرته، ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يُسارعون لإجابة داعي الجهاد، ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم، وحَسُن إسلامهم.

وقد عمل أورخان كذلك على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومحاربة البيزنطيين، فاختار عددًا من شباب الأتراك، وعددًا من شباب البيزنطيين؛ الذين أسلموا وحَسُن إسلامهم، فضمَّهم إلى الجيش، واهتمَّ بهم اهتمامًا كبيرًا، وربَّاهم تربية إسلامية جهادية، ولم يلبث الجيش الجديد أن تزايد عدده، وأصبح يضمُّ الآلاف من المجاهدين في سبيل الله، وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف، أطلقوا عليه اسم ذي الفَقَار تيمُّنًا بسيف الإمام علي ﷺ.

إنشاء جيش الانكشارية

أنشأ أورخان فرقة الانكشارية بناءً على اقتراح من أحد قادة الجيش يدعى «قرة خليل»؛ وقد كان هؤلاء الجنود يُختارون في سنٍّ صغيرة من أبناء المسلمين الذين تَرَبَّوْا تربية صوفية جهادية، أو من الأولاد الذين أُسِروا في الحروب أوِ اشْتُرُوا بالمال.

وكان هؤلاء الصغار يُرَبَّون في معسكرات خاصَّة بهم؛ يتعلَّمُون اللغة والعادات والتقاليد التركية، ومبادئ الدين الإسلامي، وفي أثناء تعليمهم يُقَسَّمون إلى ثلاث مجموعات: الأولى تُعَدُّ للعمل في القصور السلطانية، والثانية تُعَدُّ لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة، والثالثة تُعَدُّ لتشكيل فرق المشاة في الجيش العثماني، ويُطلق على أفرادها الانكشارية؛ أي: الجنود الجدد، وكانت هذه المجموعة هي أكبر المجموعات الثلاث وأكثرها عددًا. وقد كانوا فرقة من المشاة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحترفين، وكانت لهم امتيازاتهم الخاصة، وقد تلَقَّوْا تدريبًا وتعليمًا خاصًّا؛ حتى أصبحوا من أهمِّ فرق الجيش العثماني، وكانوا يقومون بخدمة السلطان بغَيْرة وحماس.

وقد اكتسبت هذه الفرقة صفة الدوام والاستمرار في عهد السلطان مراد الأول بداية من سنة (٧٦١هـ= ١٣٦٠م)، وكانت قبل ذلك تُسرَّح بمجرد الانتهاء من عملها.

وامتاز الجنود الانكشاريون بالشجاعة الفائقة، والصبر في القتال، والولاء التامّ للسلطان العثماني باعتباره إمام المسلمين.

وقد ازدادت مكانة الانكشاريين في عهد السلطان محمد الفاتح؛ فقد جعل لقائدها حقَّ التقدُّم على بقية القوَّاد، فهو يتلقَّى أوامره من الصدر الأعظم، الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

عبور الشاطئ الأوربي

في سنة (٧٥٦هـ= ١٣٥٥م) استنجد الإمبراطور البيزنطي «جان باليولوج» بالسلطان أورخان؛ طالبًا الدعم والمساعدة لصدِّ غارات ملك الصرب «إستفان دوشان»، الذي أصبح يُهَدِّد القسطنطينية نفسها، فأجاب أورخان طلب الإمبراطور البيزنطي؛ فأرسلا لدوشان جيشًا كبيرًا، لكنَّ دوشان عاجلته المنيَّة قبل وصوله بجيوشه إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فتوقَّفت حملته، وتخلَّص البيزنطيون من تهديده، وفي الوقت نفسه عاد الجيش العثماني من حيث أتى دون قتال.

غير أن العثمانيين بعد عبورهم للشاطئ الأوربي تيقَّنُوا من حالة الضعف التي حَلَّت بالإمبراطورية البيزنطية؛ وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة النبي ﷺ في فتح القسطنطينية؛ ووضع خطة استراتيجية تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آنٍ واحد، ولتحقيق ذلك بدأ أورخان يُجَهِّز الكتائب لاجتياز البحر واحتلال بعض النقاط على الشاطئ الأوربي؛ لتكون مركزًا لأعمال العثمانيين في أوربا؛ فاجتاز سليمان باشا -أكبرُ أبناء السلطان أورخان- مضيقَ الدردنيل ليلًا مع أربعين رجلًا من فرسان الإسلام سنة (٧٥٨هـ= ١٣٥٧م) ولمَّا أدركوا الضفة الغربية، استولَوْا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية؛ إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك؛ حيث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده، أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوربي؛ حيث فتحوا ميناء قلعة ترنب، وغاليبولي التي فيها قلعة (جنا قلعة) و(أبسالا) و(رودستو)، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها مَنْ جاء بعده في فتح القسطنطينية؛ ولذا يُعَدُّ أورخان أول سلطان عثماني يمتدُّ ملكه إلى داخل أوربا.

ويُعَدُّ دخول الأتراك العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوربية من الوقائع التاريخية المهمَّة؛ حيث غيَّرَتْ وجه التاريخ الأوربي ومصير الدول الأوربية، وكان ذلك بداية لتقدُّمٍ عثمانيٍّ سريع في البلقان.

وفاته

تُوُفِّيَ السلطان أورخان سنة (٧٦١هـ= ١٣٦٠م) بعد حُكْم دام ٣٨ سنة، وقد بلغت مساحة الأراضي العثمانية في هذا التاريخ ٩٥٠٠٠ كم٢، وهي تُمَثِّل ٦ أضعاف ما كانت عليه عند جلوس السلطان أورخان على كرسي الحُكْم.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراد الأول

الاسم الكامل	مراد بن أورخان بن عثمان
اللقب	السلطان مراد الأول
تاريخ الميلاد	٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م
مكان الميلاد	تركيا
تاريخ الوفاة	٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م
مكان الوفاة	قوصوه (كوسوفا)
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان، استولى العثمانيون في عهده على مدينة أدرنة (٧٦٢هـ= ١٣٦٠م)، وجعلها عاصمةً لدولته، وهزم التحالف البيزنطي البلغاري في معركتي مارتيزا عام (٧٦٤هـ= ١٣٦٣م)، كما انتصر على التحالف الصليبي في قوصوه (كوسوفا) عام (٧٩١ هـ= ١٣٨٩م)، وفيها اسْتُشهد.

نشأته وتولّي الحكم

وُلِدَ السلطان مراد الأول عام (٧٢٦هـ= ١٣٢٦م)، وهو العام الذي تولَّى فيه والده الحُكم؛ تولَّى الحُكم بعد وفاة أبيه أورخان بن عثمان عام (٧٦١هـ= ١٣٦٠م)، وكان ابن ٣٦ عامًا وقتها، واستمرَّ حكمه ٣٠ سنة.

كان مراد الأول شجاعًا مجاهدًا، كريمًا متديِّنًا، وكان محبًّا للنظام متمسِّكًا به، عادلًا مع رعاياه وجنوده، مشغوفًا بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكانت بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين؛ شَكَّل منهم مجلسًا لشورته، وتوسَّع في آسيا الصغرى وأوربا في وقت واحد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتوحاته

في أوربا هاجم السلطان مراد الأول أملاك الدولة البيزنطية، ثم استولى على مدينة أدرنة في عام (٧٦٢هـ= ١٣٦٠م)، وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ= ١٣٦٦م)؛ وبذلك انتقلت العاصمة العثمانية من آسيا إلى أوربا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة عدَّة أمور؛ منها:

١- استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقُربها من مسرح العمليات الجهادية.

٢- رغبة مراد في ضمِّ الأقاليم الأوربية التي وصلوا إليها في جهادهم وثَبَّتوا أقدامهم فيها.

٣- جمع مراد في هذه العاصمة كل مُقَوِّمات النهوض بالدولة وأصول الحُكم؛ فتكوَّنت فيها فئاتُ الموظفين، وفِرَقُ الجيشِ، وطوائفُ رجال القانون وعلماء الدين، وأُقيمت دور المحاكم، وشُيِّدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية.

واستمرَّت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني؛ حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ= ١٤٥٣م)، فأصبحت عاصمة لدولتهم.

تحالف صليبي ضد مراد

مضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوربا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكوَّن تحالف أوربي بلقاني صليبي باركه البابا أوربا الخامس، وضمَّ الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشًا بلغ عدده ستين ألف جندي، تصدَّى لهم القائد العثماني (لالا شاهين) بقوَّة تقل عددًا عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من «تشيرمن» على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت، أمَّا السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلًا بالقتال في بلاد آسيا الصغرى؛ حيث فتح عدَّة مدن، ثم عاد إلى مقرِّ سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبُلْدَان، كما هو شأن القائد الحكيم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمَّة؛ منها:

١- تمَّ لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا، ووصلوا إلى جنوبي بلغاريا وإلى شرقي صربيا.

٢- أصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف.

أول معاهدة بين الدولة العثمانية والدول المسيحية

لما اشتدَّ ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصًا الضعفاء منهم، فبادرت جمهورية راجوزه -وهي جمهورية تطلُّ على البحر الأدرياتيكي- وأرسلت إلى السلطان مراد رسلًا ليعقدوا مع السلطان مراد معاهدة ودية وتجارية؛ تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهبًا، وهذه أول معاهدة عُقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية.

معركة قوصوه (كوسوفا)

كان السلطان مراد قد توغَّل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قوَّاده؛ مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرَّة استغلال غياب السلطان عن أوربا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها؛ ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تُذكر على العثمانيين؛ فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار، وأعدُّوا جيشًا أوربيًّا صليبيًّا كثيفًا لحرب السلطان، الذي كان

قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعدادًا قويًّا إلى منطقة كوسوفو في البلقان، ومن الأحداث التي تُذكر أن وزير السلطان مراد كان يحمل معه مصحفًا فتحه عن غير قصد، فوقع نظره على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]. فاستبشر بالنصر، واستبشر معه المسلمون، ولم يلبث أن نَشِبَ القتال بين الجمعين، وحمي وطيسه، واشتدَّت المعركة، وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصارًا باهرًا حاسمًا.

استشهاد السلطان مراد

بعد الانتصار في قوصوه (كوسوفا) قام السلطان مراد يتفقَّد ساحة المعركة، ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم، كما كان يتفقَّد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان، فتمكَّن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يُريد محادثة السلطان، ويُريد أن يُعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يُطلقوه، فتظاهر بأنه يُريد تقبيل يد السلطان، وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان، فاستُشهد رحمه الله في (١٥ من شعبان ٧٩١هـ=٣٠ من يوليو ١٣٨٩م)، فقتل الانكشاريةُ الجنديَّ الصربيَّ مباشرةً.

الكلمات الأخيرة للسلطان مراد

اسْتُشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عامًا، وكانت آخر كلماته: «لا يسعُني حين رحيلي إلَّا أن أشكر الله؛ إنه علام الغيوب المتقبِّل دعاء الفقير، أشهد أنْ لا إله إلَّا الله، وليس يستحقُّ الشكر والثناء إلَّا هو، لقد أوشكتْ حياتي على النهاية، ورأيتُ نصر جند الإسلام. أطيعوا ابني يزيد، ولا تُعَذِّبُوا الأسرى، ولا تُؤذونهم، ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله، فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء».

لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكلِّ حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره؛ قال المؤرِّخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول: «قام مراد بأعمال مهمة كثيرة، دخل ٣٧ معركة سواء في الأناضول أو في البلقان، وخرج منها جميعًا ظافرًا، وكان يُعامل رعيته معاملة شفيقة دون النظر إلى فوارق العرق والدين».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقول عنه المؤرِّخ الفرنسي كرينارد: «كان مراد واحدًا من أكبر رجالات آل عثمان، وإذا قوَّمناه تقويمًا شخصيًّا، نجده في مستوى أعلى من كلِّ حُكَّام أوربا في عهده».

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠ كيلو متر مربع، وعند استشهاده تَسَلَّم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع؛ بمعنى أنها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان.

دعاء السلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصوه

كان السلطان مراد يعلم أنه يُقاتل في سبيل الله، وأنَّ النصر من عنده؛ ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله، والتضرُّع إليه، والتوكُّل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدلُّ على معرفة السلطان مراد لربِّه، وتحقيقه لمعاني العبودية؛ يقول السلطان مراد في مناجاته لربه: «يا الله؛ يا رحيم، يا رب السموات، يا مَنْ تتقبَّلُ الدعاء لا تُخْزِني، يا رحمن، يا رحيم، استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرَّة، أَرْسِلِ السماء علينا مدرارًا، وبدِّد سحب الظلام فنرى عدوَّنا، وما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرِّع، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تُخفي الصدور، ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم، فأنا لا أطمع إلَّا في رضاك يا الله يا عليم يا موجود في كل الوجود، أفديك روحي فتقبَّل رجائي، ولا تجعل المسلمين يَبُوُّ بهم الخذلان أمام العدوِّ، يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سببًا في موتهم؛ بل اجعلهم المنتصرين، إن روحي أبذلها فداءً لك يا رب إني وددت وما زلت دومًا أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا تُرِنِي يا إلهي محنتهم، واسمح لي يا إلهي هذه المرَّة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك».

وفي رواية: «يا إلهي؛ إنني أُقسم بعزَّتك وجلالك أنني لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، ولكنني أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك يا إلهي، إنني أُقسم بعزَّتك وجلالك أنني أُجاهد في سبيلك، فزدني تشريفًا بالموت في سبيلك».

وفي رواية: «يا إلهي ومولاي؛ تقبَّل دعائي وتضرُّعي، وأنزل علينا برحمتك غيثًا يُطفئ من حولنا غبار العواصف، واغمرنا بضياءٍ يُبَدِّد من حولنا الظلمات؛ حتى نتمكَّن من إبصار مواقع عدونا؛ فنقاتله في سبيل إعزاز دينك العزيز.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلهي ومولاي؛ إن المُلك والقوَّة لك، تمنحها لَمَنْ تشاء من عبادك، وأنا عبدك العاجز الفقير، تعلم سرِّي وجهري، أُقسم بعزَّتِك وجلالك إنني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية، ولكني أبتغي رضاك ولا شيء غير رضاك.

إلهي ومولاي؛ أسألك بجاه وجهك الكريم، أن تجعلني فداءً للمسلمين جميعًا، ولا تجعلني سببًا في هلاك أحد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم.

إلهي ومولاي؛ إن كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك؛ لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك.

إلهي ومولاي؛ لقد شرَّفتني بأن هديتني إلى طريق الجهاد في سبيلك، فزدني شرفًا بالموت في سبيلك».

telegram: @mbooks90

إنَّ هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد بالله ﷻ، وعلى أنه حقَّق شروطَ كلمةِ التوحيد (لا إله إلا الله)، ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه وحياته.

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الإيمان وكلمة التوحيد، وذاق آثارها في حياته، فنشأت في نفسه أنفة وعزَّة مستمدَّة من الإيمان بالله، فأيقن أنه لا نافع إلَّا الله ﷻ؛ فهو المحيي والمميت، وهو صاحب الحُكْم والسلطة والسيادة؛ ومن ثَمَّ نزع من قلبه كلَّ خوفٍ إلَّا منه سبحانه، فلم يُطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق، ولا يتضرَّع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته؛ لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم، ولقد أكسبه الإيمان بالله قوَّة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات، والتوكُّل والتطلُّع إلى معالي الأمور؛ ابتغاء مرضاته ﷻ، فكان في المعارك التي خاضها ثابتًا كالجبال الراسية، وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله ﷻ؛ ولذلك لم يُبَالِ بأن يُضَحِّيَ في سبيل مرضاة ربِّه بكلِّ غالٍ ورخيصٍ.

إن السلطان مرادًا عاش حقيقة الإيمان؛ ولذلك اندفع إلى ساحات الجهاد، وبذل ما يملكه من أجل دعوة الإسلام.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بايزيد الأول

الاسم الكامل	بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان
اللقب	سلطان الروم - صاعقة الإسلام - الفاتح الكبير - المجاهد العظيم
تاريخ الميلاد	غير معروف
مكان الميلاد	تركيا
تاريخ الوفاة	٨٠٥ هـ/ ١٤٠٣ م
مكان الوفاة	في الأسر
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

السلطان بايزيد الأول سلطان الروم وصاعقة الإسلام، والفاتح الكبير والمجاهد العظيم، كان علمًا من أعلام الجهاد، بلغت الدولة في عهده من العزَّة والمجد ما ذَكَّر المسلمين بأيام الصحابة والرسول ﷺ؛ فهو صاحب النصر في معركة نيكوبوليس التي كانت من أيام المسلمين الخالدة.

نشأته

كان في غاية الشجاعة والحماسة للجهاد في سبيل الله ﷻ، غير أنه امتاز عمَّن سبقوه بسرعة الحركة وقوَّة الانقضاض على أعدائه؛ حتى لُقِّب بالصاعقة أو يلدرم باللغة التركية، وكان مجرَّد ذكر اسم يلدرم يُوقع الرعب في نفوس الأوربيين عمومًا، وأهل القسطنطينية خصوصًا، تولَّى بايزيد الحُكم بعد استشهاد أبيه مراد الأول في معركة (قوصوه) كوسوفا سنة (٧٩١هـ= ١٣٨٩م).

فتوحاته في الأناضول

كانت دائمًا منطقة الأناضول أو آسيا الصغرى هي منطقة الانطلاق لأي سلطان عثماني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جديد؛ ذلك لأن هذه المنطقة منقسمة على نفسها إلى عدَّة إمارات صغيرة؛ يحكمها أمراء متغلِّبُونَ على رقاب المسلمين فيها، وقد سعى السلطان مراد الأول إلى توحيد الأناضول بعدَّة وسائل، ولم يَكَدْ ينجح في ذلك حتى انفرط الْعِقْد مرَّة أخرى، فقد ثار هؤلاء الأمراء على العثمانيين، وسبَّبُوا لهم الكثير من المتاعب، وكانت ثوراتهم المتكرِّرة سببًا في صرف جهود العثمانيين عن حرب أوربا؛ وهذا ما جعل الأوربيين يلتقطون أنفاسهم، ويُشَكِّلُون تحالفات صليبية متكرِّرة لمحاربة العثمانيين، وفي سنة (٧٩٣هـ= ١٣٩١م) استطاع بايزيد أن يضمَّ إمارات: منتشا، وآيدين، وصاروخان دون قتال؛ وذلك بِنَاءً على رغبة سكان هذه الإمارات، وقد لجأ حُكَّام هذه الإمارات إلى إمارة إصفنديار، كما تنازل له أمير القرمان علاء الدين عن جزء من أملاكه بدلًا من ضياعها كلها، وقد اشتهر علاء الدين هذا بالغدر والخيانة، وأخبارُ جرائمه أيام السلطان مراد الأول مشهورة؛ لذلك فلم يكن مستغربًا على هذا الرجل أن يثور مرَّة أخرى أيام بايزيد؛ مستغلًّا انشغاله بالجهاد في أوربا؛ حيث قام علاء الدين بالهجوم على الحاميات العثمانية وأَسَرَ كبار قادة العثمانيين، واستردَّ بعض الأراضي، فعاد بايزيد بسرعته المعهودة وانقضَّ كالصاعقة على علاء الدين، وفَرَّق شمله، وضمَّ إمارة القرمان كلها إلى الدولة العثمانية، وتبعتها إمارة سيواس وتوقات، ثم شقَّ بايزيد طريقه إلى إمارة إصفنديار؛ التي تحوَّلت إلى ملجأ للأمراء الفارِّين، وطلب بايزيد من أمير إصفنديار تسليم هؤلاء الثوَّار فأبى؛ فانقضَّ عليه بايزيد وضمَّ بلاده إليه، والتجأ الأمير ومَنْ معه إلى تيمورلنك.

فتوحاته في أوربا

بعدما فرغ بايزيد من ترتيب الشأن الداخلي، والقضاء على ثورات الأناضول؛ اتَّجه إلى ناحية أوربا وبدأ أُولى خطواته هناك، وذلك بإقامة حِلْفٍ ودِّيٍّ مع الصرب، وتزوَّج بايزيد من أوليفير أخت الملك أصطفان بن لازار ملك الصرب؛ وبذلك أصبحت صربيا بمنزلة الحاجز القوي بين الدولة العثمانية وإمبراطورية المجر، التي كانت وقتها أقوى الممالك الأوربية، وتُلَقَّبُ بحامية الصليب، وكانت عَلاقة المجر والصرب متوتِّرة، فاستغلَّ بايزيد ذلك للتفرُّغ للدولة البيزنطية.

كان بايزيد يهدف من محالفته للصرب إلى التفرُّغ للوسط الأوربي والقسطنطينية؛ لذلك فقد قام بتوجيه ضربة خاطفة إلى بلغاريا وفتحها سنة (٧٩٧هـ= ١٣٩٤م)، وأصبحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلغاريا من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية، وفرض بايزيد على إمبراطور بيزنطة مانويل عدَّة شروط؛ منها:

١- إنشاء محكمة إسلامية، وتعيين قضاة مسلمين بها؛ للفصل في شئون الرعية المسلمة بها.

٢- بناء مسجد كبير بها، والدعاء فيه للخليفة العباسي بمصر، ثم السلطان بايزيد، وذلك يوم الجمعة.

٣- تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها.

٤- زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية.

معركة نيكوبوليس

كان سقوط بلغاريا وقبول مانويل للشروط السابقة كجرس الإنذار القوي لكلِّ الأوربيين؛ خاصَّة ملك المجر سيجسموند والبابا بونيفاس التاسع، فاتَّفق عزمُ الرجلين على تكوين حلف صليبي جديد لمواجهة العثمانيين، واجتهد سيجسموند في تضخيم حجم هذا الحلف وتدويله، باشتراك أكبر قدرٍ ممكن من الجنسيات المختلفة؛ وبالفعل جاء الحلف ضخمًا يضمُّ مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلَف الجنسيات؛ مثل: ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وأسكتلندا، وسويسرا، وإيطاليا، ويقود الحلف سيجسموند ملك المجر، تحرَّكت الحملة الصليبية، وانحدروا مع نهر الدانوب، حتى وصلوا إلى مدينة نيكوبوليس في شمال البلقان، ولم يَكَدِ الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر بايزيد ومعه مائة ألف مقاتل، وانتهت المعركة بنصر مبين للمسلمين، ذَكَّرَهُمْ بأيام المسلمين الأولى كبدرٍ واليرموك.

وعلى الرغم من القضاء على القوات الصليبية فإن السلطان بايزيد انزعج لكثرة قتلى المسلمين في المعركة؛ التي قُدِّرَتْ بـ(٣٠٠٠٠) بثلاثين ألف قتيل! وتذكَّر السلطان بايزيد ما فعله الصليبيون بالحاميات الإسلامية في بلغاريا والمجر، فأمر السلطان بايزيد بقتل الأسرى كلهم (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف أسير وفي رواية أخرى (١٠٠٠٠) عشرة آلاف، ولم يُبْقِ إلَّا أكابر وعلية القوم؛ وذلك للحصول على فدية ضخمة منهم، وممَّن وقع في الأسر «الكونت دي نيفر»، أحد أكبر الأمراء في الجيش الصليبي، الذي أقسم بأغلظ الأيمان ألَّا يعود إلى محاربة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسلمين، وكاد أن يُقَبِّل قدم السلطان، لكنْ كان ردُّ السلطان بايزيد الأول المعتزّ بدينه، أن قال له: «إني أُجيز لك ألَّا تحفظ هذا اليمين؛ فأنت في حلٍّ من الرجوع إلى محاربتي وقت ما شئتَ». ثم استطرد قائلاً كلمته الشهيرة التي خَلَّدها له التاريخ، وكتبها من حروف من ذهب: «إذ إنه ما من شيء أحبّ إليَّ من محاربة جميع مسيحيِّي أوربا والانتصار عليهم».

نزل خبر الهزيمة على مسيحيِّي أوربا مثل الصاعقة، وانتظر المسيحيون سقوط الممالك المسيحية واحدة تلو الأخرى في قبضة السلطان بايزيد؛ وعلى النقيض أرسل السلطان بايزيد الرسائل إلى ملوك وسلاطين المسلمين في القاهرة وبغداد وبلاد ما وراء النهر، ومعها بعض الأسرى كدليل مادِّيٍّ على النصر المبين، وخلع عليه الخليفة في القاهرة أبو عبد الله محمد بن المعتضد المتوكل على الله لقب «سلطان الروم»، فأضاف بذلك شرعية جهاده ضد المسيحيين في أوربا.

وتُعتبر معركة نيكوبوليس بالنسبة إلى المسيحيين أعظم كارثة على الإطلاق في العصور الوسطى، وبلغ السلطان بايزيد قمَّة مجده بعد تلك المعركة، وفي نشوة الفرح والانتصار أعلن السلطان: «أنه سيفتح إيطاليا بإذن الله، وسيُطعم حصانه الشعير على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما».

كارثة تيمورلنك

ظهرت أثناء تلك الفترة قوَّة بشرية ضخمة يقودها تيمورلنك؛ حيث استطاع هذا الرجل أن يُؤَسِّس إمبراطورية ضخمة مترامية الأطراف؛ فضمَّ بلاد ما وراء النهر وبلاد الشام والهند وموسكو وآسيا الصغرى.

وكان تيمورلنك يُؤْمِن أنه ما دام يُوجد في السماء إلهٌ واحد، فيجب أن يُوجد في الأرض ملكٌ واحد؛ فكان يَحْلُم بالسيطرة على العالم!

وما فرح ملوك أوربا بشيءٍ مثل فرحهم بظهور تيمورلنك؛ الذي وجدوا فيه خلاصهم الوحيد من السلطان بايزيد الأول، كما ارتحل كثير من أمراء الأناضول -الذين طردهم السلطان بايزيد الأول- إلى خدمة تيمورلنك واحتموا به، وبلغ ذلك إمبراطور بيزنطة وأمراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوربا؛ فأرسلوا إلى تيمورلنك يستنجدون به من السلطان بايزيد الأول، وأوقدوا العداوة بينهما، وبالفعل طمع تيمورلنك في أملاك الدولة العثمانية، وبدأ بالهجوم على أطرافها في آسيا الصغرى، وانضمَّ إليه الأمراء الفارِّين من بايزيد الأول.

وهذا ما أزعج السلطان بايزيد إلى حدٍّ كبير؛ فصمَّم على ملاقاة هذا الطاغية وقتله، وخصوصًا بعد رسالة تيمورلنك إلى السلطان بايزيد؛ حيث أهانه ضمنيًّا حين ذَكَّره بغموض أصل أسرته، واستصغار شأنه، ولكنه ختم الرسالة بأن عرض عليه العفو على اعتبار الخدمات الجليلة التي قام بها آل عثمان لخدمة الإسلام!

فصمَّم السلطان بايزيد على محاربة الطاغية تيمورلنك، ثم يتفرَّغ بعد ذلك إلى فتح القسطنطينية، الذي كان وشيكًا جدًّا.

معركة أنقرة

في عام (٨٠٤ هـ= ١٤٠٢م) احتلَّ تيمورلنك سيواس في الأناضول، وأباد حاميتها هناك؛ التي كان يقودها أرطغرل ابن السلطان بايزيد، ولم يكتفِ بذلك بل أخذ الفرسان وأحنى رءوسهم بين أرجلهم، وألقاهم في خنادق واسعة وردمهم بالتراب!

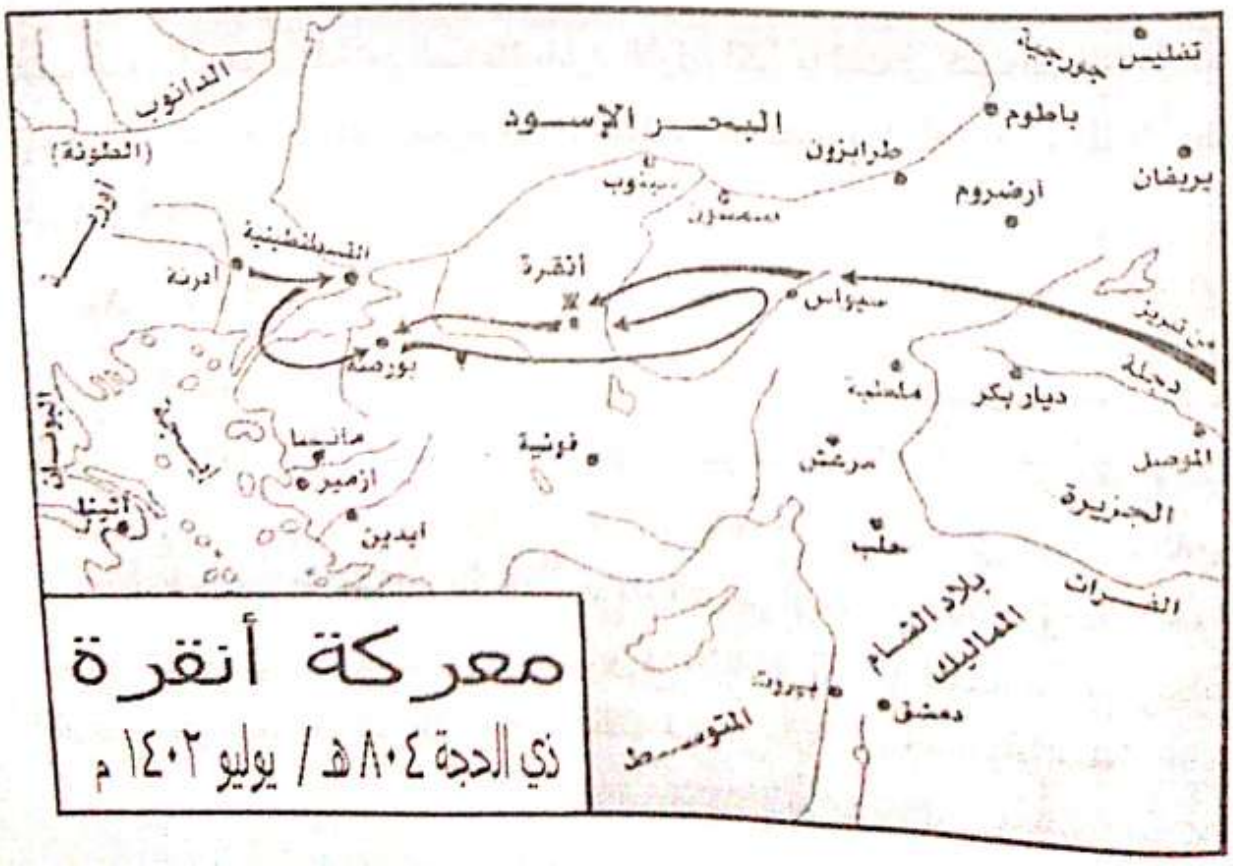

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انزعج السلطان بايزيد واستصوب رفع الحصار عن القسطنطينية وملاقاة هذا الطاغية؛ فاجتمع الجيشان في سهل أنقرة في (١٩ من ذي الحجة ٨٠٤هـ= ٢٠ يوليو ١٤٠٢م)، وقد كان في جيش بايزيد الأول آلاف من التتر، وكان قد أرسل لهم تيمورلنك سرًّا كتابًا يُخبرهم بأن ينضمُّوا إليه ويتركوا السلطان بايزيد، وأخبرهم: «نحن جنس واحد، وهؤلاء تركمان ندفعهم من بيننا، ويكون لكم الروم عوضهم». فأجابوه وواعدوه أنهم عند اللقاء يكونون معه!

ولم يَكَدْ يلتقي الجيشان في أنقرة حتى فرَّ الجنود التتر الذين كانوا في جيش بايزيد وجنود الإمارات الآسيوية التي فتحها منذ عهد قريب، وانضمُّوا إلى جيش تيمورلنك، فانتصر المغول، وكانت من ضمن أسباب الهزيمة اندفاع وعجلة بايزيد، فلم يُحسن اختيار المكان الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل، بينما كان جيش خصمه لا يقلُّ عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشًا لقلَّة الماء، وكان الوقت صيفًا شديد القيظ، ووقع في المعركة السلطان بايزيد الأول في الأسر، واختلفت الروايات في كيفية معاملة تيمورلنك للسلطان المجاهد العظيم بايزيد الأول؛ فمنهم مَنْ قال: إنه أهانه ووضعه في قفص وأخذ يطوف به البلاد. ومنهم مَنْ يقول: إنه أكرمه وعظَّم شأنه. ولا ندري حقيقة كيف عُومل السلطان المجاهد الصاعقة بايزيد الأول، لكنْ ما ثبت في كتب التاريخ عمَّا فعله تيمورلنك عند وفاة السلطان بايزيد الأول يدلُّنا على أن تيمورلنك أحسن معاملة السلطان بايزيد في أسره.

وفاة الصاعقة

مات السلطان بايزيد بعد ثمانية شهور كمدًا في أسره في ١٥ من شعبان ٨٠٥هـ= ١٠ من مارس ١٤٠٣م)، فظلَّ يرسف في أغلاله حتى مات رحمه الله تعالى، لم يتحمَّلِ الذلَّ والهوان والأسر، ولِمَ لا وهو السلطان المجاهد العظيم الصاعقة؛ الذي تَعَوَّد على النصر، والذي لم يركن إلى الراحة يومًا واحدًا، وظلَّ في جهادٍ دام أكثر من أربعة عشر عامًا، ووصلت جيوشه أماكن لم تُرفع فيها راية للمسلمين من قبلُ، ورُفع الآذان في عهده في القسطنطينية التي كادت أن تُفتح على يديه، وهو السلطان الذي ارتعدت فرائص ملوك الروم عند ذِكْر اسمه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما مات السلطان بايزيد الأول سمح تيمورلنك لابنه الأمير موسى بأخذ جثمان أبيه، ودفنه العثمانيون بجوار مسجده في مدينة بروصة في الأناضول، وقبره بها ما زال معلومًا إلى الآن، مات السلطان بايزيد الأول وقد بلغ من العمر ٤٤ عامًا.

لقد كانت الصدمة شديدةً جدًّا على المسلمين في أنحاء الأرض؛ حتى إن تيمورلنك قام بفتح بعض البلاد الساحلية الصليبية وانتزعها من أيدي فرسان القديس يوحنا؛ محاولًا بذلك أن يُبَرِّر موقفه أمام الرأي العام الإسلامي، الذي اتهمه بأنه وَجَّه ضربة قاضية وشديدة للإسلام حين قضى على الدولة العثمانية وقضى على السلطان المجاهد العظيم الصاعقة بايزيد الأول.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مراد الثاني

الاسم الكامل	مراد الثاني بن محمد جلبي بن بايزيد الأول
اللقب	السلطان مراد الثاني
تاريخ الميلاد	٨٠٦ هـ/ ١٤٠٤ م
مكان الميلاد	تركيا
تاريخ الوفاة	٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م
مكان الوفاة	أدرنة – تركيا
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

هو السلطان مراد الثاني السلطان الزاهد، الذي قضى على التمرُّد الداخلي، وانتصر على التحالف الصليبي في معركة فارنا، وهو السلطان الوحيد الذي تنازل عن الحكم لابنه مرَّتين ليتفرَّغ لعبادة الله ﷻ.

نشأته

وُلِدَ السلطان مراد الثاني عام (٨٠٦هـ= ١٤٠٤م)، ونشأ في بيت الدولة العثمانية، التي غرست في أبنائها حبَّ العلم والجهاد في سبيل الله، فنشأ السلطان مراد الثاني نشأة إسلامية صحيحة؛ وهذا ما أهَّلهُ لتولي السلطنة وعمره ثمانية عشر عامًا، كان معروفًا لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة، وكان محبًّا للجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوربا.

تولي السلطانة والقضاء على التمردات الداخلية

تولَّى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه محمد جلبي عام (٨٢٤هـ= ١٤٢١م)، واستطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرُّد الداخلية التي قام بها عمُّه مصطفى، والتي كانت تُدعم من قِبَلِ أعداء الدولة العثمانية، وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرَّض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عمَّ السلطان مراد بالمساعدات؛ حتى استطاع مصطفى أن يُحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له، إلَّا أن السلطان مرادًا قبض على عمِّه وقدَّمه إلى المشنقة. ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان، واحتضن شقيقًا لمراد الثاني، ووضعه على رأس قوَّة استولت على مدينة نيقية في الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضي على قوَّاته، واضطر خصمه للاستسلام ثم قُتل؛ ومن ثَمَّ صمَّم السلطان مراد أن يُلَقِّنَ الإمبراطور درسًا عمليًّا، فأسرع باحتلال سلولنيك، فهاجمها ودخلها عَنْوة في ٨٣٤هـ= مارس ١٤٣١م، وأصبحت جزءًا لا يتجزَّأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يُوَجِّه الضربات الموجعة لحركات التمرُّد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار، واتَّجه الجيش العثماني نحو الشمال لإخضاع إقليم ولاشيا، وفَرَضَ عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد ستيف لازار ميتش إلى الخضوع للعثمانيين، والدخول تحت حكمهم، وجدَّد ولاءه للسلطان، واتَّجه جيش عثماني نحو الجنوب؛ حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان، ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي وقام بالقضاء على العوائق في كلٍّ من ألبانيا والمجر.

فتوحاته

استطاع العثمانيون في عهد مراد الثاني أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ= ١٤٣١م)، وركَّزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد، أمَّا شمالي ألبانيا فقد خاض العثمانيون فيه جهادًا مريرًا، وتمكَّن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبَّد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضدَّ العثمانيين؛ وخصوصًا من حكومة البندقية، التي كانت تُدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم المهمِّ بشاطِئَيْه وموانيه البحرية، التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي، وأن العثمانيين في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك، وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقرارًا للحكم العثماني في ألبانيا.

وأمَّا ما يتعلَّقُ بجبهة المجر فقد استطاع مراد الثاني في عام (٨٤٢هـ= ١٤٣٨م) أن يهزم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجريين، ويأسر منهم سبعين ألف جندي، وأن يستولي على بعض المواقع، ثم تقدَّم لفتح بلجراد عاصمة الصرب؛ ولكنَّه أخفق في محاولته وسرعان ما تَكَوَّنَ حلفٌ صليبيٌّ كبير باركه البابا، استهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربا كلية، وشمل الحلف البابوية والمجر، وبولندا، والصرب، وبلاد الأفلاق (رومانيا)، وجنوة والبندقية، والإمبراطورية البيزنطية، ودوقية برجنديا، وانضمَّت إلى الحلف -أيضًا- كتائب من الألمان والتشيك، وأُعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هونياد؛ وقد قاد هونياد القوات الصليبية البرية، وزحف جنوبًا، واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦هـ= ١٤٤٢م)، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح، وأُبرمت معاهدة صلح لمدَّة عشر سنوات في سيزجادن؛ وذلك في شهر يوليو عام (٨٤٨هـ= ١٤٤٤م) تنازل فيها عن الصرب، واعترف بجورج برانكوفيتش أميرًا عليها، كما تنازل السلطان مراد عن الأفلاق (رومانيا) للمجر، وافتدى زوج ابنته محمود شلبي -الذي كان قائدًا عامًّا للجيوش العثمانية- بمبلغ ٦٠ ألف دوقية، وقد حُرِّرت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية والمجرية، وأقسم لاديسلاس ملك المجر على الإنجيل كما أقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تُراعى شروط المعاهدة بذمَّة وشرف.

التنازل عن السلطنة

حين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوربيين عاد إلى الأناضول، وفُجِعَ بموت ابنه الأمير علاء، واشتدَّ حزنه عليه، وزهد في الدنيا والمُلْكِ، وتنازل عن السلطنة لابنه محمد الثاني، وكان إذ ذاك في الرابعة عشر من عمره؛ ولصغر سنِّه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته، ثم ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى؛ ليقضِيَ بقيَّة حياته في عُزلة وطمأنينة، ويتفرَّغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله ﷻ، والتأمُّل في ملكوته؛ وذلك بعد أن اطمأنَّ إلى استتباب الأمن والسلام في أرجاء دولته، ولم يستمتع السلطان طويلًا بهذه الخلوة والعبادة؛ حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم عن أوربا؛ خاصةً وأن العرش العثماني قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى، الذي لا خبرة له ولا خطر منه، وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية، وطلب من النصارى نقض العهد ومهاجمة المسلمين، وبَيَّنَ للنصارى أن المعاهدة التي عُقدت مع المسلمين باطلة؛ لأنها عُقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض، وكان الكاردينال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيزاريني عظيمَ النشاط، دائمَ الحركة، لا يكلُّ عن العمل، يجِدُّ ويسعى للقضاء على العثمانيين؛ ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعمائهم، ويُحَرِّضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين، ويُقنع كلَّ مَنْ يعترض عليه لنكث المعاهدة، ويقول له: «إنه باسم البابا يُبرئ ذمَّتهم من نكثها، ويُبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يَتَّبِعُوا طريقه؛ فإنه طريق المجد والخلاص، ومَنْ نازعه ضميرُه بعد ذلك وخشي الإثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه».

الصليبيون ينقضون العهد

لقد نقض الصليبيون عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتي كانت قد تحرَّرَتْ على أيدي المسلمين. ونَقْضُ العهود هو سِمَة ظاهرة لأعداء هذا الدين؛ ولذلك أوجب الله ﷻ على المسلمين قتالهم يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، لا عهود ولا مواثيق يرعَوْنَها، كما هو طابعهم دائمًا، إنهم لا يتورَّعُون عن مهاجمة أيِّ أُمَّة، أيّ إنسان يلمحون فيه ضعفًا، يقتلون ويذبحون.

العودة للجهاد

عندما تحرَّك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية، وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب، وبعث رجال الدولة إلى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر، وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضدَّ الخطر الصليبي، واستطاع مراد أن يَتَّفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفًا من الجيش العثماني من آسيا إلى أوربا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكلِّ جندي.

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل إلى فارنا في اليوم نفسه الذي وصل فيه الصليبيون، وفي اليوم التالي نَشِبَت المعركة بين الجيشين النصراني والإسلامي، وكانت عنيفة حامية، وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح؛ ليُشهدهم ويُشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان، وليزيد حماس جنده، واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركةٌ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رهيبةٌ كاد يكون فيها النصر للنصارى نتيجة حميَّتهم الدينية وحماسهم الزائد، إلَّا أنَّ تلك الحمية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك لاديسلاس -ناقض العهود- مع السلطان مراد الوفي بالعهود وجهًا لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة في (٢٨ من رجب ٨٤٨هـ= ١٠ من نوفمبر ١٤٤٤م)، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجري النصراني، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه، أسقطته من على ظهر جواده، فأسرع بعض المجاهدين وجَزُّوا رأسه ورفعوه على رمح مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ فرحين، وصاح أحد المجاهدين في العدوِّ: «أيها الكفار هذا رأس ملككم». وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بَدَّدَتْ شملهم، وهزموهم شرَّ هزيمة، وولَّى النصارى مدبرين، يدفع بعضهم بعضًا، ولم يُطارد السلطان مراد عدوَّه، واكتفى بهذا القدر من النصر، وإنه لنصر عظيم.

وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضدَّ العثمانيين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العودة إلى العزلة والتعبد

لم يُفارق السلطان مراد زهده في الدنيا والمُلك، فنزل على العرش مرَّة أخرى لابنه محمد، وعاد إلى عزلته في مغنيسيا، كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه.

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأُبَّهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش، ولكن لم يذكر لنا أحدًا منهم نزل عن العرش مرَّتين غير السلطان مراد، فإنه لم يَكَدْ يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية في أدرنة وشغبوا، وهاجوا وماجوا، وتمرَّدُوا، وطغوا، وأفسدوا، وكان السلطان محمد الثاني فتى يافعًا حديث السنِّ، وخشي بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر، ويعظم الخطر، ويتفاقم الشرُّ، وتسوء العاقبة، فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولَّى الأمر بنفسه، وجاء السلطان مراد وقبض على زمام الأمر، وخضع له الانكشارية، وأرسل ابنه محمدًا إلى مغنيسيا حاكمًا عليها بالأناضول، وبقي السلطان مراد الثاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، وقد قضاها في الغزو والفتح.

مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير

يقول محمد حرب: «مراد الثاني وإن كان مُقِلًّا وكان ما لدينا من شعره قليلًا، لصاحبُ فضلٍ على الأدب والشعر لا يُجْحَدُ؛ لأن نعمته حلَّتْ على الشعراء، الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين في كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذون بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح، وكثيرًا ما كان يسدُّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر، أو بإيجاد حرفة لهم تدرُّ الرزق عليهم؛ حتى يفرغوا من هموم العيش، ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيرًا من الشعراء».

لقد حوَّل مراد الثاني القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية، ووصل به الأمر أن كان الشعراء يُرافقونه في جهاده، ومن أشعاره: «**تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين في الدنيا**».

لقد كان سلطانًا عالمًا عاقلًا عادلًا شجاعًا، وكان يُرسل لأهالي الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، وكان يعتني بشأن العلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعلماء والمشايخ والصالحين، مَهَّد الممالك، وأمَّن السبل، وأقام الشرع والدين، وأذلَّ الكفَّار والملحدين، وقال عنه يوسف آصاف: «كان تقيًّا صالحًا، وبطلًا صنديدًا، محبًّا للخير، ميَّالًا للرأفة والإحسان».

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس، وقصور وقناطر؛ فمنها جامع أدرنة ذو ثلاثة شرف، وبنى بجانب هذا الجامع مدرسة وتكية يُطعم فيها الفقراء والمساكين.

وفاته ووصيته

تُوُفِّيَ السلطان في قصر أدرنة في (١٦ من المحرم ٨٥٥هـ= ١٨ من فبراير ١٤٥١م) عن عمر يُناهز ٤٧ عامًا، وبِنَاءً على وصيته رحمه الله دُفِنَ في جانب جامع مرادية في بورصة، ووصى بأن لا يُبْنَى على قبره شيء، وأن يُبنى أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفَّاظ لقراءة القرآن الكريم، وأن يدُفن في يوم الجمعة فنُفِّذَتْ وصيَّته.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمد الفاتح

الاسم الكامل	محمد الثاني بن مراد الثاني بن محمد جلبي
اللقب	السلطان الغازي محمد الفاتح
تاريخ الميلاد	٨٣٥ هـ/ ١٤٣٢ م
مكان الميلاد	أدرنة، تراقيا، تركيا
تاريخ الوفاة	٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م
مكان الوفاة	دريقا، كوكالي، تركيا
الانتماء	الدولة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية البيزنطية

السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح وبالتركية العثمانية: فاتح سلطان محمد خان ثاني، هو سابع سلاطين الدولة العثمانية وسلالة آل عثمان، يُلَقَّب -إلى جانب «الفاتح»- بأبي الفتوح وأبي الخيرات، وبعد فتح القسطنطينية أُضيف لقب «قيصر» إلى ألقابه وألقاب باقي السلاطين الذين تلوه.

يُعرف هذا السلطان بأنه قضى نهائيًّا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرَّت أكثر من أحد عشر قرنًا.

حَكَمَ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وتابع السلطان محمد فيها فتوحاته في آسيا، فوحَّد ممالك الأناضول، وتوغَّل في أوربا حتى بلجراد، من أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية المتوسِّعة آنذاك.

مولده ونشأته

وُلد محمد الثاني في (٢٧ من رجب ٨٣٥هـ= ٣٠ من مارس ١٤٣٢م) في مدينة أدرنة، عاصمة الدولة العثمانية آنذاك، ونشأ في كنف أبيه السلطان مراد الثاني سادس سلاطين الدولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العثمانية، الذي تعهَّده بالرعاية والتعليم؛ ليكون جديرًا بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها؛ فأتم حفظ القرآن، وقرأ الحديث، وتعلَّم الفقه، ودرس الرياضيات والفلك وأمور الحرب، وإلى جانب ذلك تعلَّم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية.

عهد إليه أبوه بإمارة مغنيسيا -وهو صغير السن- ليتدرَّب على إدارة شئون الدولة وتدبير أمورها، تحت إشراف مجموعة من كبار علماء عصره؛ مثل: الشيخ «آق شمس الدين»، و«المُلَّا الكوراني»؛ وهو ما أثَّر في تكوين شخصية الأمير الصغير، وبناء اتجاهاته الفكرية والثقافية بناءً إسلاميًّا صحيحًا.

وبرز دور الشيخ «آق شمس الدين» في تكوين شخصية محمد الفاتح، وبثَّ فيه منذ صغره أمرين؛ هما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية، والإيحاء دومًا لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي الذي ورد في مسند أحمد بن حنبل: حدَّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، وسمعته أنا من عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، قال: حدَّثنا زيد بن الحباب، قال: حدَّثني الوليد بن المغيرة المعافريُّ، قال: حدَّثني عبد الله بن بشر الخثعميُّ، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ»[1]. لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث نبي الإسلام، فشبَّ طامح النفس، عالي الهمَّة، موفور الثقافة، رهيف الحسِّ والشعور، أديبًا شاعرًا، فضلًا عن إلمامه بشئون الحرب والسياسة؛ فقد اشترك مع أبيه السلطان مراد في حروبه وغزواته.

تولي الحكم

تولَّى محمد الفاتح السلطنة بعد وفاة أبيه في (٥ من المحرم ٨٥٥هـ = ٧ من فبراير ١٤٥١م)، وبدأ في التجهيز لفتح القسطنطينية، ليُحقِّق الحُلْم الذي يُراوده، وفي الوقت نفسه يُسهِّل لدولته الفتية الفتوحات في منطقة البلقان، ويجعل بلاده متصلة لا يفصلها عدوٌّ يتربَّص بها، وليكون هو محلَّ البشارة النبوية، واستعدَّ السلطان سياسيًّا وعسكريًّا لذلك الفتح؛ فمن الإجراءات السياسية أنه جدَّد المعاهدات واتفاقيات الهدنة مع جميع جيرانه، ومَن تربطهم علاقات معينة

(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٩٧٧)، والحاكم في المستدرك (٨٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير (١٢١٧)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٢٢٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالدولة كالبندقية وجنوة والصرب، وفرسان القديس يوحنا وغيرهم، وكان الهدف هو عزل الدولة البيزنطية عن جيرانها سياسيًّا وعسكريًّا، ثم حشد الفاتح أكثر من ربع مليون جندي أحدقوا بالقسطنطينية من البَرِّ، واستمرَّ حصار المدينة ثلاثة وخمسين يومًا، تمَّ خلالها بناء منشآت عسكرية ضخمة، واستقدام خيرة الخبراء العسكريين، ومن بينهم الصانع المجري الشهير «أوربان»، والذي استطاع صُنْعَ مدافع عظيمة تقذف كرات هائلة من الحجارة والنار على أسوار القسطنطينية، وقد بذل البيزنطيون قصارى جهدهم في الدفاع عن المدينة، واستُشهِد عدد كبير من العثمانيين في عمليات التمهيد للفتح، وكان من بين العقبات الرئيسية أمام الجيش العثماني تلك السلسلة الضخمة؛ التي وضعها البيزنطيون ليتحكَّمُوا بها في مدخل القرن الذهبي، والتي لا يمكن فتح المدينة إلَّا بتخطِّيها، وقد حاول العثمانيون تخطِّي هذه السلسلة دون جدوى؛ فنقل سبعين سفينة بعد أن مُهِّدت الأرض وسُوِّيت في ساعات قليلة، وتمَّ دهن الألواح الخشبية ووضعها على الطريق تمهيدًا لجرِّ السفن عليها مسافة ثلاثة أميال، وقد تمَّ كل هذا في ليلة واحدة، وبعيدًا عن أنظار العدوِّ، فتمَّ استكمال حصار المدينة من كل الجبهات.

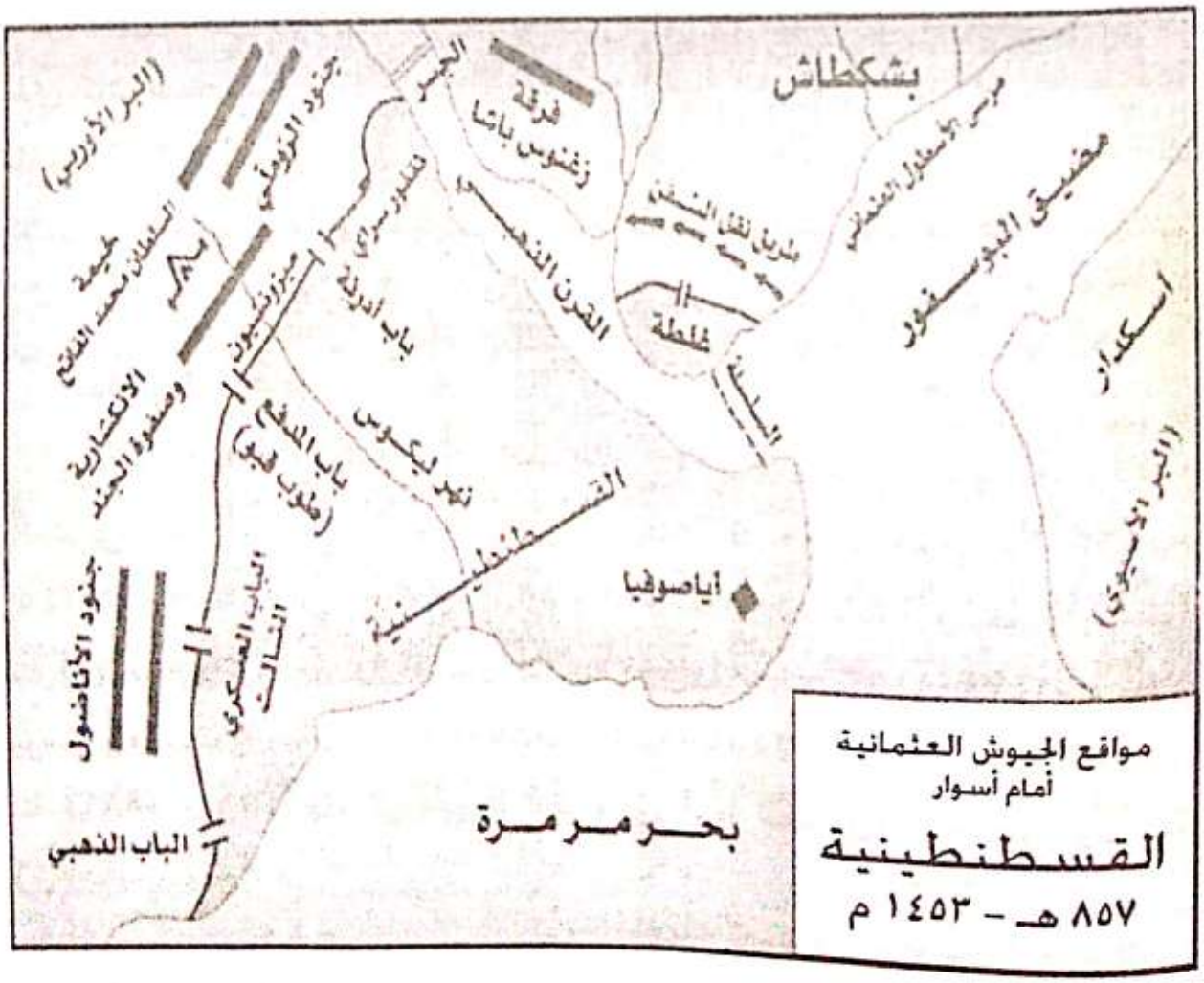

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أبرز ما استعدَّ له لهذا الفتح المبارك أن صبَّ مدافع عملاقة لم تشهدها أوربا من قبل، وقام ببناء سفن جديدة في بحر مرمره؛ لكي تسدَّ طريق الدردنيل، وشيَّد على الجانب الأوربي من البوسفور قلعة كبيرة عُرفت باسم قلعة روملي حصار؛ لتتحكم في مضيق البوسفور.

فتح القسطنطينية

بعد أن أتمَّ السلطان كل الوسائل التي تُعينه على فتح القسطنطينية، زحف بجيشه البالغ ٢٦٥ ألف مقاتل من المشاة والفرسان، تصاحبهم المدافع الضخمة، واتَّجهوا إلى القسطنطينية، وفي فجر يوم الثلاثاء الموافق (٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ= ٢٩ من مايو ١٤٥٣م) نجحت قوَّات محمد الفاتح في اقتحام أسوار القسطنطينية؛ وذلك في واحدة من العمليات العسكرية النادرة في التاريخ، وقد لُقِّب السلطان محمد الثاني من وقتها بمحمد الفاتح وغلب عليه، فصار لا يُعرف إلَّا به.

ولما دخل المدينة ترجَّل عن فرسه، وسجد لله شكرًا، ثم توجَّه إلى كنيسة آيا صوفيا، وأمر بتحويلها إلى مسجدٍ، وأمر بإقامة مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي كان ضمن صفوف المحاولة الأولى لفتح المدينة العريقة، وقرَّر اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته، وأطلق عليها اسم إسلام بول؛ أي دار الإسلام، ثم حُرِّفت بعد ذلك واشْتُهرت بإسطنبول، وانتهج سياسة متسامحة مع سُكَّان المدينة، وكفل لهم ممارسة عباداتهم في حرية كاملة، وسمح بعودة الذين غادروا المدينة في أثناء الحصار إلى منازلهم.

استكمال الفتوحات

بعد إتمام هذا الفتح الذي حَقَّقه محمد الثاني -وهو لا يزال شابًّا لم يتجاوز الخامسة والعشرين- اتَّجه إلى استكمال الفتوحات في بلاد البلقان، ففتح بلاد الصرب سنة (٨٦٣هـ= ١٤٥٩م)، وبلاد المورة باليونان عام (٨٦٥هـ= ١٤٦٠م)، وبلاد الأفلاق والبغدان (رومانيا) سنة (٨٦٦هـ= ١٤٦٢م)، وألبانيا بين عامي (٨٦٧-٨٨٤هـ= ١٤٦٣-١٤٧٩م)، وبلاد البوسنة والهرسك بين عامي (٨٦٧-٨٧٠هـ= ١٤٦٣-١٤٦٥م)، ودخل في حرب مع المجر سنة (٨٨١هـ= ١٤٧٦م)، كما اتجهت أنظاره إلى آسيا الصغرى؛ ففتح طرابزون سنة (٨٦٦هـ= ١٤٦١م).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد كان من بين أهداف محمد الفاتح أن يكون إمبراطورًا على روما، وأن يجمع فخارًا جديدًا إلى جانب فتحه القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية؛ ولكي يُحقِّق هذا الأمل الطموح كان عليه أن يفتح إيطاليا، فأعدَّ لذلك عُدَّتَه، وجهَّز أسطولًا عظيمًا، وتمكَّن من إنزال قوَّاته وعدد كبير من مدافعه بالقرب من مدينة «أوترانت»، ونجحت تلك القوات في الاستيلاء على قلعتها، وذلك في (جمادى الأولى ٨٨٥هـ= يوليو ١٤٨٠م).

وعزم محمد الفاتح على أن يَتَّخذ من تلك المدينة قاعدة يزحف منها شمالًا في شبه جزيرة إيطاليا؛ حتى يصل إلى روما، لكن المنيَّة وافته في (٤ من ربيع الأول ٨٨٦هـ=٣ من مايو ١٤٨١م).

محمد الفاتح رجل الدولة وراعي الحضارة

لم تكن ميادين الجهاد والحرب التي خاضها محمد الفاتح خلال مدَّة حكمه -التي بلغت ثلاثين عامًا- هي أبرز إنجازاته؛ حيث اتسعت الدولة العثمانية اتساعًا عظيمًا لم تشهده من قبل، وإنما كان محمد الفاتح رجل دولة من طراز رفيع، فقد استطاع بالتعاون مع الصدر الأعظم قرة مانلي محمد باشا، وكاتبه ليث زاده محمد جلبي وضع الدستور المسمَّى باسمه، وقد بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول في الدولة العثمانية حتى عام (١٢٥٥هـ= ١٨٣٩م).

واشتهر محمد الفاتح بأنه راعٍ للحضارة والأدب، وكان شاعرًا مجيدًا له ديوان شعر، وقد نشر المستشرق الألماني «ج. جاكوب» أشعاره في برلين سنة (١٣٢٢هـ= ١٩٠٤م)، وكان الفاتح يُدَاوم على المطالعة وقراءة الأدب والشعر، ويُصاحب العلماء والشعراء، ويصطفي بعضهم ويُوليهم مناصب الوزارة.

ومن شغفه بالشعر عهد إلى الشاعر شهدي أن يُنَظِّم ملحمة شعرية تُصَوِّر التاريخ العثماني على غرار «الشاهنامة» التي نظمها الفردوسي، وكان إذا سمع بعالم كبير في فنٍّ من الفنون قدَّم له يد العون والمساعدة بالمال، أو باستقدامه إلى دولته للاستفادة من علمه، مثلما فعل مع العالم الفلكي الكبير «علي قوشجي السمرقندي»، وكان يُرسل كلَّ عامٍ مالًا كثيرًا إلى الشاعر الهندي «خواجه جيهان»، والشاعر الفارسي «عبد الرحمن جابي».

واستقدم محمد الفاتح رسامين من إيطاليا إلى القصر السلطاني؛ لإنجاز بعض اللوحات الفنية، وتدريب بعض العثمانيين على هذا الفنِّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من انشغال الفاتح بالجهاد؛ فإنه عُني بالإعمار وتشييد المباني الراقية، فعلى عهده أنشئ أكثر من ثلاثمائة مسجد؛ منها ١٩٢ مسجدًا وجامعًا في إسطنبول وحدها، بالإضافة إلى ٥٧ مدرسة ومعهدًا، و٥٩ حمامًا.

ومن أشهر آثاره المعمارية مسجد السلطان محمد، وجامع أبي أيوب الأنصاري، وقصر «سراي طوب قبو».

لقد كان الفاتح مسلمًا ملتزمًا بأحكام الشريعة الإسلامية، تقيًّا ورعًا؛ وذلك بفضل النشأة التي نشأها وأثَّرت فيه تأثيرًا عظيمًا، أمَّا سلوكه العسكري فكان سلوكًا متحضِّرًا لم تشهده أوربا في عصورها الوسطى، ولم تعرفه شريعتها من قبلُ.

وفاته

في شهر ربيع الأول من عام (٨٨٦هـ= ١٤٨١م) غادر السلطان الفاتح القسطنطينية على رأس جيش كبير، وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه قد أصابته وعكة صحيَّة، إلَّا أنه لم يهتمّ بذلك لشدَّة حُبِّه للجهاد، وشوقه الدائم للغزو، وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاءً لما يُلِمُّ به من أمراض، إلَّا أن المرض تضاعف عليه هذه المرَّة، وثقلت وطأته فطلب أطباءه، غير أن القضاء عاجله؛ فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه يوم الخميس (٤ من ربيع الأول ٨٨٦هـ= ٣ من مايو ١٤٨١م)، وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم إحدى وثلاثين عامًا.

لم يكن أحدٌ يعلم شيئًا عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتَّى؛ فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهَّب للَّحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا ففرنسا وإسبانيا؟

لقد ظلَّ ذلك سرًّا طواه الفاتح في صدره ولم يَبُحْ به لأحد، ثم طواه الموت بعد ذلك.

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها، ويتكتَّم أشدَّ التكتُّم، ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم، لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم ينبع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا التكتُّم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ؛ فلا يدعُ لعدوِّه مجالًا للتأهُّب والاستعداد، وذات مرَّة سأله أحد القضاة: أين تقصد بجيوشك؟ فأجابه الفاتح: «**لو أن شعرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتُها وقذفتُ بها في النار**».

لقد كانت من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال، ويستمرّ في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا، وما وراءها من الدول والشعوب والأمم.

ويُقال: إن السلطان محمد الفاتح قد قُتل بالسم عن طريق طبيبه الخاص يعقوب باشا بعد أن حرضه أهل البندقية على أن يقوم هو باغتياله، ولم يكن يعقوب مسلمًا عند الولادة؛ فقد وُلِدَ بإيطاليا، وقد ادَّعى الهداية وأسلم، وبدأ يعقوب يدسُّ السُّمَّ تدريجيًّا للسلطان، ولكن عندما علم بأمر الحملة زاد جرعة السمِّ؛ حتى توفي السلطان بعد أن قضى فترة حكمه في حروب متواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها، وأتمَّ في خلالها مقاصد أجداده؛ ففتح القسطنطينية وجميع ممالك وأقاليم آسيا الصغرى والصرب والبوسنة وألبانيا وبلاد المورة، وحقَّق الكثير من المنجزات الإدارية الداخلية، التي سارت بدولته على درب الازدهار، ومهَّدت الطريق أمام السلاطين اللاحقين ليُركِّزُوا على توسيع الدولة وفتح أقاليم جديدة.

وقد انكشف أمر يعقوب فيما بعدُ، فأعدمه حرس السلطان، ووصل خبر موت السلطان إلى البندقية بعد ١٦ يومًا؛ حيث جاء الخبر في رسالة البريد السياسي إلى سفارة البندقية في القسطنطينية، واحتوت الرسالة على هذه الجملة: «**لقد مات النسر الكبير**». انتشر الخبر في البندقية ثم إلى باقي أوربا، وراحت الكنائس في أوربا تدقُّ أجراسها لمدَّة ثلاثة أيام بأمر من البابا.

دُفن السلطان في المدفن المخصوص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة، وترك وراءه سمعة مهيبة في العالمين الإسلامي والمسيحي.

وصية محمد الفاتح قبل وفاته

كانت وصية محمد الفاتح لابنه بايزيد الثاني -وهو على فراش الموت- تُعَبِّر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها، والتي يتمنَّى من خُلفائه من بعده أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسيروا عليها؛ فقال فيها: «هأنذا أموت، ولكني غير آسف لأني تارك خَلَفًا مثلك؛ كن عادلًا صالحًا رحيمًا، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامي؛ فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمُّون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجَانِب البدعَ المفسدة، وباعِدِ الذين يُحَرِّضُونك عليها، وَسِّعْ رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تَتَبَدَّد، إيَّاك أن تمدَّ يدك إلى مال أحد من رعيَّتك إلَّا بحقِّ الإسلام! واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقِّين.

وبما أن العلماء هم بمثابة القوَّة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجِّعهم، وإذا سمعتَ بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرَّنَّك المال ولا الجند! وإيَّاك أن تُبعد أهل الشريعة عن بابك! وإيَّاك أن تميل إلى أيِّ عمل يُخالف أحكام الشريعة! فإن الدين غايتنا، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ منِّي هذه العبرة: حضرتُ هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة في ترفٍ أو لهوٍ أو أكثرَ مِنْ قَدْرِ اللزوم؛ فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك».

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خير الدين بربروس

الاسم الكامل	خضر بن يعقوب
اللقب	خير الدين باشا
تاريخ الميلاد	٨٧١ هـ/ ١٤٦٧ م
مكان الميلاد	جزيرة لسبوس في اليونان
تاريخ الوفاة	٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م
مكان الوفاة	إسطنبول
الانتماء	الخلافة العثمانية
أعداؤه	إسبانيا - إيطاليا

هو خير الدين بربروس قائد الأساطيل العثمانية؛ مجاهد بحريٌّ، اشتهر مع أخيه عروج بغزواته البحرية في سواحل اليونان وإسبانيا وإيطاليا، انتزع مدينة الجزائر من إسبانيا، وجعلها تحت سيادة الدولة العثمانية، كما غزا تونس سنة (٩٤١هـ= ١٥٣٤م)، واستولى عليها لحساب العثمانيين، واسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب، ولقبه خير الدين باشا، بينما عُرِفَ لدى الأوربيين بباربا روسا (ذو اللحية الحمراء).

نشأته

telegram: @mbooks90

وُلِدَ خير الدين بربروس في جزيرة لسبوس في اليونان، كان الأصغر في أربعة إخوة: إسحاق وعروج وإلياس ومحمد. والده هو يعقوب وهو انكشاري أو سباهي من فاردار، أمَّا والدته كاتالينا المسيحية؛ فقيل: إنها كانت أرملة قسٍّ. وقد كان خير الدين وأخوه عروج نصرانيان، ويعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلمَا، ودخلَا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس، وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان رُكَّابها وملَّاحيها رقيقًا، وقد أرسلَا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزل لهما العطاء، فقويت نفسيتهما، وعمل الإخوة الأربعة كبحَّارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومقاتلين في البحر المتوسط ضدَّ قراصنة فرسان القديس يوحنا، المتمركزين في جزيرة رودس.

جهاد عروج

قُتِلَ إلياس في إحدى المعارك وأُسر عروج في رودس، الذي ما لبث أن فرَّ منها إلى إيطاليا ومنها إلى مصر، استطاع عروج أن يحصل على مقابلة مع السلطان قانصوه الغوري، الذي كان بصدد إعداد أسطول لإرساله إلى الهند لقتال البرتغاليين، أعطى الغوري عروج سفينة بجندها وعتادها لتحرير جزر المتوسط من القراصنة الأوربيين.

في حوالي عام ١٥٠٥م استطاع عروج الاستيلاء على ٣ مراكب، واتخذ من جزيرة جربة في تونس مركزًا له، ونقل عملياته إلى غرب المتوسط.

طبقت شهرة عروج الآفاق عندما استطاع بين عامي ١٥٠٤ و١٥١٠م إنقاذ الآلاف من مسلمي الأندلس، ونقلهم إلى شمال إفريقيا، وفي عام ١٥١٦م استطاع تحرير الجزائر ثم تِلِمْسَان من الإسبان، وأعلن نفسه حاكمًا على الجزائر، واستطاع عروج أن يُقيم حكومة قوية في الجزائر، وأن يطرد الإسبان من السواحل التي احتلُّوها، ويُوَسِّع من نطاق دولته حتى بلغت تِلِمْسَان. وفي هذه الأثناء اتَّصل بالسلطان العثماني سليم الأول، وكان قد تمكَّن من ضمِّ مصر إلى دولته، وأعلن عروج طاعته وولاءه للدولة العثمانية، غير أن إسبانيا هالها ما يفعله عروج ورجاله، ورأت في ذلك خطرًا يُهدِّد سياستها التوسُّعِيَّة، ويقضي على أحلامها ما لم تنهض لقمع هذه الدولة الفتيَّة، فأعدَّت حملة عظيمة بلغت خمسة عشر ألف مقاتل، تمكَّنت من التوغُّل في الجزائر ومحاصرة تِلِمْسَان، ووقع عروج أسيرًا في أيديهم، وقتلوه في (شعبان ٩٢٤هـ= أغسطس ١٥١٨م)، وخلفه أخوه الأصغر خير الدين.

ولاية خير الدين على الجزائر

خلف خير الدين بربروس أخاه في جهاده ضدَّ الإسبان، ولم تكن قوَّاته تكفي لمواجهة خطر الإسبان، فاستنجد بالدولة العثمانية طالبًا العون منها والمدد؛ فلبَّى السلطان سليم الأول طلبه، وبعث إليه بقوَّة من سلاح المدفعية، وأمدَّه بألفين من جنوده الانكشارية الأشداء، ثم واصل السلطان سليمان القانوني هذه السياسة، ووقف خلف خير الدين يُمِدُّه بالرجال والسلاح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يكن خير الدين أقلَّ حماسة وغَيْرة من أخيه، فواصل حركة الجهاد، وتابع عملياته البحرية؛ حتى تمكَّن من طرد الإسبان من الجيوب التي أقاموها على ساحل الجزائر، وضمَّ إلى دولته مناطق جديدة، وقادته رغبتُه الجامحة في مطاردة الإسبان إلى غزو السواحل الإسبانية، وهذا الذي أفزع الغزاة، وألقى الهلع في قلوبهم، ثم قام خير الدين بعملٍ من جلائل الأعمال؛ حيث أنقذ سبعين ألف مسلم أندلسي من قبضة الإسبان؛ الذين كانوا يسومُونهم سوء العذاب، فنقلهم في سنة (٩٣٦هـ= ١٥٢٩م) مستخدمًا أسطولًا من ٣٦ سفينة؛ وذلك في سبع رحلات، ووَطَّنهم في مدينة الجزائر؛ وهذا ما حصَّنها ضدَّ الهجمات الإسبانية.

خير الدين في إسطنبول

قام السلطان سليمان القانوني باستدعاء خير الدين بربروس إليه في إسطنبول، وعهد إليه بإعادة تنظيم الأسطول، والإشراف على بناء عددٍ من سفنه، ثم وكَّل إليه مهمَّة ضمِّ تونس إلى الدولة العثمانية، قبل أن يتمكَّن السلطان الإسباني شارل الخامس من الاستيلاء عليها، وكانت ذات أهمية كبيرة لموقعها المتوسِّط في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط.

غادر خير الدين العاصمة العثمانية على رأس ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي، واتَّجه إلى تونس، ونجح في القضاء على الدولة الحفصية التي كانت تحكم تونس، وأعلن تبعيَّتها للدولة العثمانية سنة (٩٤١هـ= ١٥٣٤م).

أثار هذا النصر شارل الخامس وزاده حنقًا، ورأى فيه تهديدًا للمواصلات البحرية التي تربط بين إيطاليا وإسبانيا، وانتصارًا للإسلام، وتشجيعًا لمجاهدي شمال إفريقيا على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية، واستنقاذ المسلمين الأندلسيين؛ ولهذا تحرَّك على الفور، وقاد حملة جرَّارة على تونس، تمكَّنت من الاستيلاء عليها في السنة نفسها، وردَّ خير الدين على هذا الانتصار بغارة مفاجئة على جزر البليار في البحر المتوسط، فأسر ستة آلاف من الإسبان، وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر، ووصلت أنباء هذه الغارة إلى روما وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين.

قيادة الأسطول العثماني

أراد السلطان سليمان القانوني مكافأة خير الدين على جهوده وخدماته للإسلام، فعيَّنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائدًا عامًّا للأسطول العثماني، وجعل ابنه حسن باشا واليًا على الجزائر، الذي واصل جهود أبيه في مهاجمة الإسبانيين في غرب البحر المتوسط.

وقاد خير الدين بربروس عدَّة حملات بحرية مُوَفَّقة، كان من أشهرها انتصاره العظيم في معركة بروزة بالبحر المتوسط؛ فقد كانت معركة هائلة تداعت لها أوربا؛ استجابة لنداء البابا في روما، فتكوَّن تحالف صليبي من ٦٠٠ سفينة، تحمل نحو ستين ألف جندي، ويقوده قائد بحري من أعظم قادة البحر في أوربا هو «أندريا دوريا»، وتألَّفت القوات العثمانية من ١٢٢ سفينة، تحمل اثنين وعشرين ألف جندي، والتقى الأسطولان في بروزة في ٤ من جُمَادَى الأولى ٩٤٥ هـ= ٢٨ من سبتمبر ١٥٣٨م، وفاجأ خير الدين خصمه قبل أن يأخذ أهبته للقتال، فتفرَّقت سفنه من هول الصدمة، وهرب القائد الأوربي من ميدان المعركة؛ التي لم تستمرّ أكثر من خمس ساعات، تمكَّن في نهايتها خير الدين من حسم المعركة لصالحه.

وقد أثار هذا النصرُ الفزعَ والهلعَ في أوربا، وأعاد للبحرية العثمانية هيبتها في البحر المتوسط، في الوقت الذي استقبل فيه السلطان سليمان القانوني أنباء النصر بفرحة غامرة، وأمر بإقامة الاحتفالات في جميع أنحاء دولته.

خير الدين يغزو فرنسا

كانت فرنسا ترتبط بعلاقات وثيقة مع الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني؛ ولذلك لم يتأخَّر السلطان عن تقديم المساعدات الحربية التي طلبها منه فرانسوا الأول ملك فرنسا؛ وذلك أثناء الحرب التي اشتعلت من جديد بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس حول دوقية ميلان شمال إيطاليا.

كلَّف السلطان القانوني قائده الباسل خير الدين بقيادة الحملة، وكانت هذه آخر مرَّة يقود فيها إحدى حملاته المظفرة، فغادر إسطنبول في ٢٣ من صفر ٩٥٠هـ= ٢٨ من مايو ١٥٤٣م على رأس قوة بحرية كبيرة، استولت -وهي في طريقها إلى فرنسا- على مدينتي «مسينة» التابعة لصقلية، و«ريجيو» الإيطالية دون مقاومة، ثم استولت على ميناء «أوستيا» الإيطالي، وواصلت سيرها حتى دخلت ميناء طولون (قاعدة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط)، ورفعت السفينة الفرنسية المستقبلة لهم الأعلام العثمانية، وأطلقت مدافعها تحيَّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها، ودخل الأسطول الفرنسي المكوَّن من أربع وأربعين قطعة تحت إمرة خير الدين، وتحرَّك الأسطولان إلى ميناء «نيس»، ونجحَا في استعادة الميناء الفرنسي في (٢١ من جمادى الأولى ٩٥٠هـ= ٢٢ من أغسطس ١٥٤٣م).

ميناء طولون قاعدة إسلامية

ونظرًا للعلاقة الحسنة التي كانت تربط السلطان سليمان القانوني بفرانسوا الأول؛ فقد تمَّ عقد معاهدة بين الدولتين بعد استعادة ميناء نيس في (١٦ من جمادى الآخرة ٩٥٠هـ= ١٦ من سبتمبر ١٥٤٣م)، تنازلت فيها فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها للإدارة العثمانية، وتحوَّل الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية، التي كانت في حاجة ماسَّة إليه؛ حيث كان الأسطول العثماني يُهاجم في غير هوادة الأهداف العسكرية الإسبانية، التي كانت تُهدِّد دول المغرب الإسلامي والملاحة في البحر المتوسط.

وفي الفترة التي تمَّ فيها تسليم ميناء طولون إلى الدولة العثمانية أُخلي الثغر الفرنسي من جميع سكانه بأوامر من الحكومة الفرنسية، وتحوَّل إلى مدينة إسلامية عثمانية، رُفع عليها العلم العثماني، وارتفع الأذان في جنبات المدينة، وخلال ثمانية أشهر شنَّ العثمانيون هجمات بحرية ناجحة بقيادة خير الدين على سواحل إسبانيا وإيطاليا.

وفاة خير الدين بربروس

كانت هذه الحملة المظفَّرة هي آخر حملة يقودها خير الدين، فلم تطُلْ به الحياة بعد عودته إلى إسطنبول؛ حيث تُوُفِّيَ في ٥ من جُمَادَى الأولى ٩٥٣هـ= ٤ من يوليو ١٥٤٦م عن ٦٥ عامًا في قصره المطلِّ على مضيق البوسفور بالآستانة، مسطِّرًا صفحة مجيدة من صفحات التضحية والفداء والإخلاص للإسلام، وردع القوى الصليبية الباغية.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سليمان القانوني

الاسم الكامل	سليمان بن سليم الأول بن بايزيد الثاني
اللقب	القانوني - الكبير - العظيم
تاريخ الميلاد	٩٠٠ هـ/ ١٤٩٥ م
مكان الميلاد	طرابزون - بتركيا
تاريخ الوفاة	٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦ م
مكان الوفاة	مدينة سيكتوار - المجر
الانتماء	الخلافة العثمانية
أعداؤه	صربيا - المجر - الدولة الصفوية - البرتغاليون

هو سليمان القانوني ابن سليم، ويُعرف في الغرب بسليمان العظيم، وهو أحد أشهر السلاطين العثمانيين، حكم مدَّة ٤٨ عامًا؛ منذ عام ٩٢٦هـ، وبذلك يكون صاحب أطول فترة حُكم بين السلاطين العثمانيين.

قضى السلطان سليمان القانوني ستة وأربعين عامًا على قمَّة السلطة في دولة الخلافة العثمانية، وبلغت في أثنائها الدولة قمَّة درجات القوَّة والسلطان؛ حيث اتسعت أرجاؤها على نحوٍ لم تشهده من قبلُ، وبسطت سلطانها على كثير من دول العالم في قاراته الثلاث، وامتدَّت هيبتُها فشملت العالم كلَّه، وصارت سيدة العالم؛ تخطبُ ودَّهَا الدول والممالك، وارتقت فيها النظم والقوانين التي تُسَيِّرُ الحياة في دقَّة ونظام، دون أن تُخالف الشريعة الإسلامية التي حرص آل عثمان على احترامها والالتزام بها في كل أرجاء دولتهم، وارتقت فيها الفنون والآداب، وازدهرت العمارة والبناء.

نشأته

والده السلطان سليم الأول، ووالدته حفصة سلطان ابنة منكولي كراي خان القرم، وُلِدَ

سليمان القانوني في مدينة طرابزون عام (٩٠٠هـ= ١٤٩٥م)، وقد كان والده آنذاك واليًا عليها، واهتمَّ به والده اهتمامًا عظيمًا؛ فنشأ محبًّا للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار.

توليه مقاليد السلطة

تولَّى السلطان سليمان القانوني الخلافة بعد موت والده السلطان سليم الأول في (٩ من شوال ٩٢٦هـ= ٢٢ من سبتمبر ١٥٢٠م)، وبدأ في مباشرة أمور الدولة، وتوجيه سياستها، وكان يستهلُّ خطاباته بالآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، وقد كانت الأعمال التي أنجزها السلطان في فترة حكمه كثيرة وذات شأن في حياة الدولة.

ففي الفترة الأولى من حكمه نجح في بسط هيبة الدولة، والضرب على أيدي الخارجين عليها من الولاة الطامحين إلى الاستقلال، معتقدين أن صغر سنِّ السلطان -الذي كان في السادسة والعشرين من عمره- فرصة سانحة لتحقيق أحلامهم، لكن فاجأتهم عزيمة السلطان القويَّة التي لا تلين، فقضى على تمرُّد جان بردي الغزالي في الشام، وأحمد باشا في مصر، وقلندر جلبي في منطقتي قونية ومرعش؛ الذي كان شيعيًّا، وقد جمع حوله نحو ثلاثين ألفًا من الأتباع للثورة على الدولة.

ميادين القتال

تعدَّدت ميادين القتال التي تحرَّكت فيها الدولة العثمانية لبسط نفوذها في عهد سليمان؛ فشملت أوربا وآسيا وإفريقيا؛ فاستولى على بلجراد سنة (٩٢٧هـ= ١٥٢١م)، وحاصر فيينا سنة (٩٣٥هـ= ١٥٢٩م)؛ لكنه لم يُفلح في فتحها، وأعاد الكَرَّة مرَّة أخرى، ولم يكن نصيبها أفضل من الأولى، وضمَّ إلى دولته أجزاءً من المجر بما فيها عاصمتها بودابست، وجعلها ولاية عثمانية.

وفي آسيا قام السلطان سليمان بثلاث حملات كبرى ضد الدولة الصفوية؛ ابتدأت من سنة (٩٤١هـ= ١٥٣٤م)، وهي الحملة الأولى التي نجحت في ضمِّ العراق إلى سيطرة الدولة العثمانية، وفي الحملة الثانية سنة (٩٥٥هـ= ١٥٤٨م) أُضيف إلى أملاك الدولة تبريز، وقلعتا: وان وأريوان، وأمَّا الحملة الثالثة فقد كانت سنة (٩٦٢هـ= ١٥٥٥م) وأجبرت الشاه طهماسب على الصُّلح وأحقية العثمانيين في كلّ من أريوان وتبريز وشرق الأناضول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخلافة العثمانية
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
الصفويون
تركستان
الربع الخالي
بحر العرب
خليج عمان
حضرموت
النفود
فرنسا
طرابلس
تونس
الجزائر
برقة
القاهرة
دمشق
بغداد
البصرة
الموصل
فزان

كما واجه العثمانيون في عهده نفوذَ البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي، فاستولى أويس باشا والي اليمن على قلعة تعز سنة (٩٥٣هـ= ١٥٤٦م)، ودخلت في عهده عُمان والأحساء وقطر ضمن نفوذ الخلافة العثمانية، وأدَّت هذه السياسية إلى الحدِّ من نفوذ البرتغاليين في مياه الشرق الأوسط.

وفي إفريقيا دخلت ليبيا، والقسم الأعظم من تونس، وإريتريا، وجيبوتي، والصومال ضمن نفوذ الخلافة العثمانية.

تطوير البحرية العثمانية

كانت البحرية العثمانية قد نمت نموًّا كبيرًا منذ أيام السلطان بايزيد الثاني، وأصبحت مسئولة عن حماية مياه البحار التي تطل عليها الدولة، وفي عهد سليمان ازدادت قوَّة البحرية على نحو لم تشهده من قبل؛ وذلك بانضمام «خير الدين بربروس»، وكان يقود أسطولاً قويًّا يُهاجم به سواحل إسبانيا والسفن الصليبية في البحر المتوسط، وبعد انضمامه إلى الدولة منحه السلطان لقب «قبودان».

وقد قام خير الدين بفضل المساعدات التي كان يتلقَّاها من السلطان سليمان القانوني بضرب السواحل الإسبانية، وإنقاذ آلاف من المسلمين في إسبانيا؛ فقام في سنة (٩٣٥هـ= ١٥٢٩م) بسبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم من قبضة الحكومة الإسبانية.

وقد أوكل السلطان إلى خير الدين قيادة الحملات البحرية في غرب البحر المتوسط، وحاولت إسبانيا أن تقضي على أسطوله؛ لكنها كانت تُخفق في كل مرَّة وتتكبَّد خسائر فادحة، ولعلَّ أقسى هزائمها كانت معركة بروزة سنة (٩٤٥هـ= ١٥٣٨م).

وقد انضمَّ أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة نيس (٩٥٠هـ= ١٥٤٣م)؛ وهذا ما أدَّى إلى تنازل فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها للإدارة العثمانية، وتحوَّل الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية في غرب البحر الموسط.

واتَّسع نطاق عمل الأسطول العثماني فشمل البحر الأحمر؛ حيث استولى العثمانيون على سواكن ومصوع، وأخرجوا البرتغاليين من مياه البحر الأحمر، واستولوا على سواحل الحبشة؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو ما أدَّى إلى انتعاش حركة التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية.

التطور الحضاري

كان السلطان سليمان القانوني شاعرًا له ذوق فني رفيع، وخطَّاطًا يُجيد الكتابة، ومُلمًّا بعدد من اللغات الشرقية من بينها العربية، وكان له بصر بالأحجار الكريمة، مغرمًا بالبناء والتشييد، فظهر أثر ذلك في دولته، فأنفق بسخاء على المنشآت الكبرى؛ فشيَّد المعاقل والحصون في رودس وبلجراد وبودا، وأنشأ المساجد والصهاريج والقناطر في شتَّى أنحاء الدولة، وبخاصة في دمشق ومكَّة وبغداد، بالإضافة إلى ما أنشأه في عاصمته من روائع العمارة، ويُؤَكِّد الباحث جمال الدين فالح الكيلاني -باحث عراقي متخصص في الدراسات التاريخية- أن عصر السلطان سليمان القانوني يُعتبر العصر الذهبي للدولة العثمانية؛ حيث كانت الدولة الأقوى في العالم والمسيطرة على البحر الأبيض المتوسط.

وظهر في عصره أشهر المهندسين المعماريين في التاريخ الإسلامي؛ كالمهندس سنان آغا؛ الذي اشترك في الحملات العثمانية، واطَّلع على كثير من الطرز المعمارية؛ حتى استقام له أسلوب خاص، ويُعَدُّ مسجد سليمان القانوني أو جامع السليمانية في إسطنبول -الذي بناه للسلطان سليمان في سنة (٩٦٤هـ= ١٥٥٧م)- من أشهر الأعمال المعمارية في التاريخ الإسلامي.

وفي عهده وصل فنُّ المنمنمات (أي الرسوم) العثمانية إلى أوجه ازدهارها، وقد قدَّم «عارفي» وثائق الحوادث السياسية والاجتماعية التي جرت في عصر سليمان القانوني في منمنمات زاهية، ولمع في هذا العصر عدد من الخطَّاطين العظام؛ يأتي في مُقَدِّمتهم حسن أفندي جلبي القره حصاري؛ الذي كتب خطوط جامع السليمانية، وأستاذه أحمد بن قره حصاري؛ وله مصحف بخطِّه، وهو يُعَدُّ من روائع الخطِّ العربي والفنِّ الرفيع، وهو محفوظ بمتحف «طوبي قابي».

وظهر في عهد السلطان سليمان عدد من العلماء في مقدمتهم: أبو السعود أفندي؛ صاحب التفسير المعروف باسم: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم».

القانون والإدارة

الذي اشتهر به السلطان سليمان القانوني واقترن باسمه هو وضعه للقوانين التي تُنَظِّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة في دولته الكبيرة؛ هذه القوانين وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندي، وراعى فيها الظروف الخاصة لأقطار دولته، وحرص على أن تَتَّفق مع الشريعة الإسلامية والقواعد العرفية، وقد ظلَّت هذه القوانين -التي عُرفت باسم «قانون نامه سلطان سليمان»؛ أي دستور السلطان سليمان- تُطَبَّق حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري الموافق التاسع عشر الميلادي.

ولم يُطلق الشعبُ على السلطان سليمان لقب القانوني لوضعه القوانين؛ وإنَّما لتطبيقه هذه القوانين بعدالة؛ ولهذا يعدُّ العثمانيون الألقاب التي أطلقها الأوربيون على سليمان في عصره - مثل: الكبير، والعظيم- قليلة الأهمية والأثر إذا ما قُورنت بلقب «القانوني»، الذي يُمَثِّل العدالة.

ولم يكن عهد القانوني العهد الذي بلغت فيه الدولة أقصى حدود لها من الاتساع، وإنما هو العهد الذي تمَّت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى نظام إداري.

وفاته

لم يترك السلطان سليمان القانوني الجهاد قط، وفي أواخر أيام السلطان سليمان أصابه مرض النِّقْرِس، فكان لا يستطيع ركوب الخيل؛ ولكنه كان يتحامل ﷺ إظهارًا للقوَّة أمام أعدائه، وقد بلغ السلطان سليمان القانوني من العمر ٧٤ عامًا، ومع ذلك عندما علم بأن ملك الهابسبرج أغار على ثغر من ثغور المسلمين؛ قام السلطان سليمان القانوني للجهاد من فوره، ومع أنه كان يتألَّم من شدَّة المرض، فإنَّه قاد الجيش بنفسه، وخرج على رأس جيش عرمرم في (٩ من شوال ٩٧٣هـ= ٢٩ من أبريل ١٥٦٦م)، ووصل إلى مدينة سيكتوار المجرية، وكانت من أعظم ما شيَّده المسيحيون من القلاع، وكانت مشحونة بالبارود والمدافع، وكان قبل خروجه للجهاد نصحه الطبيب الخاص بعدم الخروج لعلَّة النِّقْرِس التي به. فكان جواب السلطان سليمان الذي خلده له التاريخ: «أحب أن أموت غازيًا في سبيل الله». سبحان الله! هذا السلطان كان قد بلغ من الكبر عتيًّا، وكان يملك تحت قبضته نصف الدنيا، وملوك الأرض طوع بنانه، وكان بإمكانه التمتُّع بحياة القصور، والتنقُّل بين الغرف والاستمتاع بالملذَّات، ومع ذلك أبى إلَّا أن يخرج غازيًا في سبيل الله.

وخرج بالفعل على رأس جيشه، وما كان يستطيع أن يمتطي جواده؛ لازدياد علَّة النِّقْرِس عليه، فكان يُحْمَل في عربة؛ حتى وصل إلى أسوار مدينة سيكتوار، وابتدأ في حصارها، وفي أقلَّ من أسبوعين احتلَّ معاقلها الأمامية، وبدأ القتال واشتدَّ النزال، وكان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصعب قتال واجهه المسلمون؛ لمتانة الأسوار، وضراوة المسيحيين في الدفاع عن حصنهم.

واستمرَّ القتال والحصار قرابة ٥ شهور كاملة، وما ازداد أمر الفتح إلَّا صعوبة، وازداد همُّ المسلمين لصعوبة الفتح، وهنا اشتدَّ مرض السلطان، وشعر بدنوِّ الأجل، فأخذ يتضرَّع إلى الله تعالى، وكان من جملة ما قاله: «**يا رب العالمين؛ افتح على عبادك المسلمين، وانصرهم، وأضرم النار على الكفار**».

فاستجاب الله دعاء السلطان سليمان، فأصاب أحدُ مدافع المسلمين خزانة البارود في الحصن، فكان انفجارًا مهولًا، فأخذت جانبًا كبيرًا من القلعة فرفعته إلى عنان السماء، وهجم المسلمون على القلعة، وفُتحت القلعة، ورُفعت الراية السليمانية على أعلى مكان من القلعة. وعند وصول خبر الفتح للسلطان فرِح، وحمد الله على هذه النعمة العظيمة، وقال: «**الآن طاب الموت، فهنيئًا لهذا السعيد بهذه السعادة الأبدية، وطوبى لهذه النفس الراضية المرضية، من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه**». وتخرج روحه إلى بارئها، إلى جنة الخلد -إن شاء الله- في (٢٠ من صفر ٩٧٤هـ= ٥ من سبتمبر ١٥٦٦م).

وأخفى الوزير محمد باشا نبأ وفاة السلطان؛ حتى أرسل لولي عهده السلطان سليم الثاني، فجاء وتَسَلَّم مقاليد السلطنة في سيكتوار، ثم دخل إسطنبول ومعه جثمان أبيه الشهيد، وكان يومًا مشهودًا لم يُرى مثله، إلَّا في وفاة السلطان محمد الفاتح، وعلم المسلمون خبر وفاة السلطان سليمان، فحزنوا أشدَّ الحزن؛ أمَّا على الجانب الأوربي؛ فما فرح المسيحيون بموت أحدٍ بعد بايزيد الأول ومحمد الفاتح كفرحهم بموت السلطان سليمان المجاهد الغازي في سبيل الله، وجعلوا يوم وفاته عيدًا من أعيادهم، ودَقَّت أجراس الكنائس فرحًا بموت مُجَدِّد جهاد الأُمَّة في القرن العاشر رَحِمَهُ اللَّهُ.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عثمان بن فودي

الاسم الكامل	عثمان بن فودي
اللقب	الإمام المجاهد الأمير عثمان بن فودي
تاريخ الميلاد	١١٦٨ هـ/ ١٧٥٤ م
مكان الميلاد	بلدة طفل - نيجيريا
تاريخ الوفاة	١٢٣٣ هـ/ ١٨١٨ م
مكان الوفاة	نيجيريا
الانتماء	خلافة سوكوتو
أعداؤه	الممالك الوثنية الإفريقية

هو عثمان دان فوديو أو عثمان بن فودي مجاهد إفريقي، دعا القبائل الإفريقية إلى محاربة البدع والوثنية، وهو مُؤَسِّس وسلطان خلافة سوكوتو.

الإسلام يغزو إفريقيا

تُعتبر إفريقيا أول منطقة في العالم وصلها الإسلام بعد مكة مهبط الوحي، وذلك في العام الخامس من النبوة، عندما هاجر الصحابة الأَوَّلُون فارِّين بدينهم إلى الحبشة، ثم دخلوا الشمال الإفريقي كله؛ وذلك من مصر إلى المغرب الأقصى في القرن الهجري الأول، وقد وصل فاتح المغرب الأعظم عقبة بن نافع إلى أطراف الصحراء الكبرى، وقد عمل ولاة بلاد المغرب من تونس إلى المحيط على نشر الإسلام في القبائل البربرية الموغلة في الصحراء.

ويرجع الفضل في نشر الإسلام في قلب وغرب إفريقيا إلى دولة المرابطين العظيمة، وخاصة الأمير الشهيد أبي بكر بن عمر؛ الذي كان أمير المرابطين الأول، ثم ترك الإمارة ليوسف بن تاشفين، وتخلَّى عن الزعامة وتفرَّغ لنشر الإسلام بين الأفارقة، وظلَّ يُحارب القبائل الوثنية وينشر الإسلام بينهم حتى استُشهد سنة (٤٨٠هـ= ١٠٨٧م)، وقد وصل بالإسلام إلى خطِّ الاستواء؛ أي على أبواب إفريقيا الاستوائية، عند منطقة الغابات الكثيفة، وهو بذلك قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قام بخدمة عظيمة للإسلام، لا تقلُّ عما فعله يوسف بن تاشفين في المغرب والأندلس.

مأساة الممالك الإسلامية

أخذ الإسلام في الانتشار في قلب القارة الإفريقية شيئًا فشيئًا؛ بالتجارة تارة، وبالجهاد تارة، والدعاة المرابطين تارة، وبالتدريج تحوَّلت القبائل الوثنية إلى الإسلام، وقامت ممالك إسلامية في غاية القوَّة والاتساع مثل مملكة «غانا»، ومملكة «مالي» الضخمة؛ وكانت تشمل «تشاد ومالي والنيجر والسنغال»، وكانت هذه المملكة من أقوى وأعرق الممالك الإسلامية في إفريقيا، ومملكة «الصنغاي»، وغيرها من الممالك القوية، التي دفعت بالإسلام إلى الداخل الإفريقي.

ولكن -وللأسف- الشديد أصاب المسلمين هناك ما أصاب إخوانهم في الشمال وفي كل مكان؛ إذ دبَّ بينهم التفرُّق والخلاف، واقتتلوا فيما بينهم، وصارت الممالك تتقاتل فيما بينها، بدوافع قبلية ودنيوية محضة، فاقتتلت مملكة «الصنغاي» مع مملكة «مالي» حتى دمَّرتها، ثم قامت مملكة المغرب أيام حُكْم المنصور السعدي بتدمير مملكة «الصنغاي»، وانهارت مملكة «غانا» بالاقتتال الداخلي؛ وهكذا أكلت هذه الممالك الإسلامية بعضها بعضًا، في الوقت نفسه الذي كان فيه أهل الكفر من الغرب والشرق يجمعون صفوفهم ويُوَحِّدُون راياتهم؛ استعدادًا للانقضاض على العالم الإسلامي.

قبائل الفولاني ونهضة الإسلام

وعلى الرغم من انهيار الممالك الإسلامية الكبيرة، فإنَّ القبائل المسلمة قامت بدورها في نشر الإسلام، واستكمال الدور الدعوي الذي كانت تقوم به الممالك، وربما بصورة أفضل؛ ومن أشهر القبائل المسلمة:

١. قبائل الماندينج؛ وتنتشر في مالي والسنغال وجامبيا وغينيا وسيراليون وساحل العاج.

٢. قبائل الولوف والتوكلور في السنغال ومالي.

٣. قبائل الهاوسا في النيجر وشمالي نيجيريا وبنين وتوجو.

٤. الكانوري في شمال شرق نيجيريا والكاميرون.

ولكنَّ أعظم وأشهر القبائل الإفريقية وأشدَّها تحمُّسًا لنشر الإسلام وتمسُّكًا به هي قبائل الفولاني؛ وهي التي تحمَّلت مسئولية إعادة نهضة الإسلام، وإقامة الممالك الإسلامية من جديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدول الإسلامية
هجرات الفولانيين المسلمين
خليج غينيا
دولة صنغاي
سلطنة الكانم والبرنو
بلاد الهاوزا
وضعنا خطاً تحت أهم الدول غير الإسلامية
طوارق
بلاد الهوسا
البرنو
الكانم
واداي
دولة الموسى
دولة بنين
اليوروبا
شعب الديولا
تمبكتو
أكرا

دخل الفولانيون الإسلام على أيدي المرابطين في القرن الخامس الهجري، فتحمَّسُوا له واستعلوا به، وكانوا في الأصل من الرعاة الذين يتحرَّكون باستمرار سعيًا وراء الماء والكلأ، وكان موطنهم الأصلي حوض السنغال، ولكنهم انتشروا في قلب إفريقيا من السنغال إلى تشاد إلى قلب وغرب إفريقيا في ٤ هجرات شهيرة؛ تفرَّعت خلالها هذه القبيلة الضخمة إلى عدَّة فروع، ولكنَّ أهمَّ هذه الفروع وأكثرَها أثرًا في نشر الدعوة الإسلامية وعودة النهضة الإسلامية إلى القلب الإفريقي هي هجرة الفولانيين إلى نيجيريا، وفي هذا الفرع ظهر صاحبنا، الذي أعاد المجد والعزَّة للإسلام بقلب إفريقيا وهو الأمير الفولاني عثمان دان فوديو.

نشأته

وُلِدَ عثمان في بلدة «طفل» على أطراف إقليم جوبير شمال نيجيريا الآن في سنة (١١٦٨هـ= ١٧٥٤م)، وكلمة فودي تعني الفقيه، واسمه الأصلي محمد؛ فلقد كان والده مُعَلِّمَ القرآن والحديث في قريته، وينتسب عثمان إلى قبيلة الفولاني العريقة في الإسلام، درس اللغة العربية وقرأ القرآن وحفظ متون الأحاديث.

كان لهذه التربية والجوِّ الإيماني الذي نشأ فيه عثمان أثرٌ بالغ في تكوين شخصيَّته وتوجُّهاته، فقد كان مجتنبًا لما اعتاد عليه قومه من أساليب في الحياة بما فيها من بدع وخرافات، شديد الكره والعداء للقبائل الوثنية في إقليم جوبير الذي وُلِدَ فيه؛ لذلك قرَّر عثمان مرافقة أبيه في رحلته الطويلة إلى الحجِّ؛ وذلك وهو في سنِّ الشباب، أمَّا أهمّ أساتذته على الإطلاق فقد كان الشيخ جبريل؛ الذي قام بواجبه تجاه تلميذه مرَّتين: الأولى عندما قدَّم لعثمان علومًا مفيدة ساهمت في تكوين شخصيَّته العلمية والسياسية، والثانية عندما كان أول مَنْ بايعه على الجهاد في سبيل نشر الإسلام في تلك المنطقة، واعترف له بالولاية وعقد له الراية وفي المقابل لم يكن عثمان أقلَّ سموًّا من مُعَلِّمه؛ فقد كان يُرَدِّد بشكل دائم هذا البيت من الشعر: «عثمان دان فوديو إن قيل فيَّ بحسن الظنِّ ما قيلَ فموجة أنا من أمواج جبريلا».

نقطة التحول

لقد كان ذهاب عثمان بن فودي لأداء مناسك الحجِّ مع أبيه، نقطة تحوُّل كبرى في حياة البطل الهمام؛ ذلك أنه قَدِم مكَّة المكرَّمة والدعوة السلفية للشيخ محمد بن عبد الوهاب في أوج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

telegram: @mbooks90

نوَّتها وانتشارها؛ حيث كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما زال حيًّا، يُعَلِّم الناس التوحيد الخالص، ويُحارب البدع، ويرُدُّ على المبتدعة وأصحاب الأهواء، فلمَّا وصل عثمان بن فودي هناك التقى مع المشايخ والدعاة السلفيين، وسمع منهم الدعوة السلفية وأسلوب الحركة وكيف قامت؟ وكيف انطلقت من منطقة «الدرعية» لتشمل الجزيرة كلها؟ وحضر مجالس العلم للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

قرَّر عثمان بن فودي البقاء لفترة بمكَّة للاستزادة من الدعوة السلفية وعلومها ومناهجها؛ وتأثَّر بها بشدَّة؛ ذلك لأن بلاده كانت مليئة بالبدع والخرافات، امتزج فيها الإسلام بالعادات الوثنية، وكانت العادات القبلية تحكم حياة المسلمين، بل هو نفسه كان يتديَّن بكثير من البدع والأوراد غير الصحيحة، والسبب في ذلك أن الإسلام انتشر في هذه المناطق بنشاط دعاة الطرق الصوفية، وأصبح معنى التديُّن مرادفًا لمعنى التصوُّف؛ لذلك قرَّر عثمان المكوث لتصحيح مسار حياته وعباداته.

لذلك نستطيع أن نقول: إن ذهاب عثمان بن فودي إلى الحجِّ، والتقاءه مع دعاة وعلماء الحركة السلفية، وتلقِّيه لمبادئ وأسلوب هذه الحركة نقطةُ تحوُّل كبرى في حياة هذا الرجل، ولعلَّ هذا من رحمة الله ﷻ بالأُمَّة المسلمة بإفريقيا، ونصرة عظيمة للإسلام والمسلمين لما سيقوم به هذا الرجل من جهود كبيرة لخدمة الدين والأُمَّة في إفريقيا.

جهاد الدعوة

عاد عثمان بن فودي إلى بلاده في إقليم جوبير في شمال نيجيريا، وفي نيَّته نشر الدعوة في بلاده، فأخذ في دعوة أهله وإخوانه إلى محاربة البدع والوثنية، فاستجاب لدعوته كثيرٌ من أبناء بلدته «طفل»، فأسَّس حركة دعويَّة، وأطلق عليها اسم الجماعة.

أخذت دعوته وحركتها المسماة بالجماعة تنتشر بين القبائل الإفريقية، ودخل فيها أفراد من عدَّة إمارات، ومن شعوب عدَّة منها الهاوسا، والطوارق، والكانوري والزنوج، إضافة إلى قبيلته الأصلية الفولاني؛ التي كانت أكثر القبائل انضمامًا لدعوته وحركته، ثم حقَّقت دعوة عثمان بن فودي نجاحًا كبيرًا في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المنتشرة في شمال وجنوب نيجيريا، ويومًا بعد يوم ازدادت جماعته قوَّة واتساعًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المواجهة

ضاق ملوك إقليم جوبير -وكانوا من الوثنيين- بنشاط جماعة عثمان بن فودي، وقرَّرُوا اتِّبَاع أسلوب المواجهة المسلَّحة، وأرسل هؤلاء الأمراء يتهدَّدُون الجماعة السلفية، ويتوعَّدُون زعيمها عثمان بن فودي بأشدّ أنواع الوعيد والتهديد، فعندها اجتمع المجاهد العظيم مع رفاقه، واستشارهم في كيفية مواجهة هذه التهديدات، فأشار الجميع وهو أولهم بوجوب إعلان الجهاد؛ وذلك سنة (١٢١٨هـ= ١٨٠٤م)، وبمجرَّد أن أعلن الجهاد على الوثنيين حتى أتاه الكثير من المسلمين من شمال نيجيريا يبغون نصرته، وفي الوقت نفسه جاءت مساعدات كبيرة لأمراء جوبير من باقي إمارات الهاوسا غرب نيجيريا، وانتصرت الدعوة السلفية على الجماعات الوثنية، وأصبح عثمان بن فودي أميرًا على المنطقة الواقعة في شمال غرب نيجيريا، وبايعه المسلمون هناك أميرًا عليهم، وتلقَّب من يومها بالشيخ، واتخذ من مدينة سوكوتو في أقصى الطرف الشمالي الغربي لنيجيريا مركزًا لدعوته؛ وذلك سنة (١٢٢٣هـ= ١٨٠٩م).

فتوحاته

لم يكن عثمان بن فودي من الرجال الذين يبحثون عن زعامة أو إمارة، وبمجرَّد حصوله عليها يكفُّ عن سعيه وجهاده، ويجلس للتنعُّم بما حازه وناله؛ بل كان يبغي نصرة الإسلام ونشره بين القبائل الوثنية، يبغي الدعوة لهذا الدين في شتَّى أرجاء القارة السوداء.

لذلك قرَّر عثمان بن فودي العمل على إعادة بناء الدولة الإسلامية من جديد، وتوسيع رقعة الإسلام بالجهاد ضدَّ القبائل الوثنية؛ التي اجتمعت على حرب الإسلام ودعوته الجديدة.

قرَّر عثمان بن فودي اتباع استراتيجية الجهاد على عدَّة محاور وضمّ الشعوب الإسلامية تحت رايته؛ فضمَّ إليه عدَّة شعوب وقبائل مسلمة كانت متناثرة ومختلفة فيما بينها، وبدأ بالتوسُّع في ناحيتي الغرب والجنوب الغربي؛ حيث قبائل «اليوروميا» الكبيرة، والتي هي أصل الشعوب الساكنة في النيجر ونيجيريا، فدانت له هذه القبائل ودخلت في دعوته، وأخذت الدولة الإسلامية في الاتساع شيئًا فشيئًا؛ حتى أصبحت أقوى مملكة إسلامية في إفريقيا وقتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عثمان وسياسة بناء الكوادر

لقد كان عثمان بن فودي رجل دولة من الطراز الأول، وداعية مجاهدًا مخلصًا لدينه ولأُمَّته، ولقد أدرك أن بقاء الدعوة السلفية والدولة الإسلامية التي بناها في غرب إفريقيا لن يصمد طويلًا، إذا لم تتحرك هذه الدعوة وتنتشر مبادئ السلفية بين الناس، وأيضًا إذا لم تتَّسع وتتمدَّد دولته الإسلامية التي بناها بجهاده سنين طويلة.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف السامي اتَّبع عثمان بن فودي سياسة حكيمة تقوم على بناء الكوادر؛ التي تُواصل حمل الراية ونشر الدعوة، وكان لعثمان بن فودي عين فاحصة تستطيع انتقاء النجباء والأبطال وحملة الدعوة؛ خاصَّة وأن فتوحاته التي قام بها في غرب نيجيريا قد حرَّكت الحماسة والحمية للإسلام في قلوب الكثيرين، ومن هؤلاء الكثيرين انتقى عثمان بن فودي ثلاثة نفر كان لهم أعظم الأثر والدور الكبير في خدمة الإسلام والمسلمين؛ أولهم الشيخ آدم، وهو شيخ من أهل العلم من أهل الكاميرون، الذي حرَّكت فتوحات عثمان بن فودي حُبَّ الجهاد في قلبه، وبدأ يدعو الناس إليه وإلى نشر الإسلام في القبائل الوثنية، فلمَّا وصلت أخباره إلى الأمير عثمان بن فودي أرسل يستدعيه من الكاميرون سنة (١٢٢٦هـ= ١٨١١م)، فلمَّا حضر جلس معه وكلَّمه عن مبادئ الحركة وعقيدة السلف، وأقنعه بوجوب الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام في قلب القارة الإفريقية، فلمَّا انشرح صدر الشيخ آدم للفكرة، أعطاه عثمان رايته البيضاء؛ وهي رايته في الجهاد، وكلَّفه بمواصلة الجهاد حتى ينشر الإسلام فيما يلي نهر البنوى جنوبًا؛ وهو فرع كبير من فروع نهر النيجر العظيم، فقام الشيخ آدم بالمهمَّة على أكمل وجه، حتى أدخل بلاد الكاميرون كلها في الإسلام، وكافأه الأمير عثمان بن فودي بأن جعله أميرًا على الكاميرون، وظلَّت الإمارة فيهم حتى احتلال الإنجليز للكاميرون سنة (١٣١٩هـ= ١٩٠١م).

أمَّا الرجل الثاني فكان أحدَ جنود عثمان بن فودي واسمه حمادو بارى، وقد اشترك في معركة الجهاد الأول ضد أمراء «جوبير» الوثنيين، وبتواصل الجهاد بانت نجابته وظهرت شجاعته وإخلاصه لنشر الدين، فكلَّفه عثمان بفتح بلاد الماسنيا الواقعة في مالي الآن، ونجح حمادو في مهمَّته خير نجاح، فكافأه عثمان بأن أعطاه لقب الشيخ، وجعله أميرًا على منطقة الماسنيا، وأمره بمواصلة الجهاد لنشر الإسلام، ولقد أثبت الأمير حمادو أنه من أنجب وأفضل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلاميذ الإمام عثمان بن فودي؛ فلقد نَظَّم دولته على نسق دولة الخلافة الراشدة؛ حيث قَسَّمها إلى عدَّة ولايات، وأقام على كل ولاية واليًا وقاضيًا ومجلسًا للحُكْم، كهيئة استشارية للحكم الإسلامي على الكتاب والسُّنَّة، وعَمر البلاد فازدهرت دولته بقوَّة، ووصلت إلى بوركينافاسو وسيراليون وغينيا بيساو.

أمَّا الرجل الثالث فكان الحاج عمر، وأصله من قبائل الفولاني عشيرة عثمان بن فودي، وُلِدَ سنة (١٢١٢هـ= ١٧٩٧م)؛ أي إنه كان في أوائل شبابه، والإمام عثمان بن فودي في أواخر حياته، ولكن هذا الشابَّ قُدِّرَ له أن يجتمع مع الإمام؛ وذلك أن الحاج عمر كان محبًّا للدعوة والجهاد، فلمَّا اشتدَّ عودُه قرَّر الرحيل إلى بلد الإمام عثمان ليراه ويسمع منه، وبالفعل ذهب إليه ورآه الإمام عثمان؛ فتفرَّس فيه النجابة والفطنة والشجاعة، فنصحه بأن يذهب إلى حمادو ويلتحق بخدمته، لعلَّه أن يكون خليفة حمادو بعد رحيله في قيادة المملكة الإسلامية هناك، وبالفعل نجح الحاج عمر في أن يلتحق بخدمة حمادو ويخلفه بعد رحيله، وقاد القبائل الإسلامية قيادة عظيمة، وكان جيشه يُقَدَّر بأربعين ألف مقاتل، وحارب الوثنيين والفرنسيين على حدٍّ سواء، وتولَّى أولاده من بعده قيادة المسلمين في هذه المنطقة؛ التي ابتُلِيَتْ بأشرس هجمة صليبية في تاريخ البشرية.

وبالجملة نجح الإمام المجاهد عثمان بن فودي أعظم أمراء إفريقيا في بناء قاعدة عريضة من المجاهدين والقادة والأمراء؛ الذين قادوا الأُمَّة المسلمة في قلب إفريقيا، وأقاموا أعظم الممالك الإسلامية في هذه البقعة الغامضة عن ذهن أبناء المسلمين الآن.

وفاته

تُوُفِّيَ الإمام المجاهد الأمير عثمان بن فودي سنة (١٢٣٣هـ= ١٨١٨م)، بعد أن أعاد إلى الإسلام مجده، وأدخل الدعوة السلفية المباركة إلى القلب الإفريقي، وأبقى للإسلام دولة قوية ظاهرة صامدة أمام هجمات الأعداء، حتى بعد وقوعها فريسة للاحتلال الصليبي بقيت القلوب حيَّة، مجاهدة، تُقاوم الأعداء، تُحافظ على دينها وعزَّتها، فجزى الله ﷻ هذا الإمام على ما قدَّمه للإسلام في إفريقيا، ورفع درجاته في عليِّين مع المهديين.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

telegram: @mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني
قـــــادة الدفـــــاع

يوسف بن تاشفين

الاسم الكامل	يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن وارتقطين
اللقب	أمير المسلمين وكنيته أبو يعقوب
تاريخ الميلاد	حوالي عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م
مكان الميلاد	على الأرجح بصحراء موريتانيا
تاريخ الوفاة	٥٠٠ هـ/ ١١٠٧ م
مكان الوفاة	غير معروف
الانتماء	دولة المرابطين
أعداؤه	مملكة قشتالة الصليبية

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن وارتقطين، وكنيته أبو يعقوب، وهو ثاني ملوك المرابطين، اتَّخذ لقب أمير المسلمين، وهو أعظم ملك مسلم في وقته، أسس أول إمبراطورية في الغرب الإسلامي من حدود تونس إلى غانا جنوبًا والأندلس شمالًا، أنقذ الأندلس من ضياع مُحَقَّق، وهو بطل معركة الزَّلَّاقَة وقائدها، كما وَحَّد وضمَّ كلَّ ملوك الطوائف في الأندلس إلى دولته بالمغرب.

نشأته

ينتمي يوسف بن تاشفين إلى قبيلة لمتونة؛ وهي إحدى قبائل صنهاجة الموجودة بجبل لمتونة المشهور باسم أدرار بموريتانيا، وُلِدَ على الأرجح بصحراء موريتانيا، ونشأ في موريتانيا نشأة إيمانية جهادية، وأصله من قبائل «صنهاجة اللثام» البربرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عُرف يوسف بالتقشُّف والزهد رغم اتساع إمبراطوريته، وقد كان شجاعًا وأسدًا جسورًا، قال الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء: «**كان ابن تاشفين كثير العفو، مقرِّبًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا، يخطب لخليفة العراق**»(١).

ووصفه ابن الأثير في الكامل بقوله: «**كان حليمًا كريمًا، ديِّنًا خيرًا، يُحِبُّ أهل العلم والدين، ويُحَكِّمهم في بلاده، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام**»(٢).

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين في المغرب

لقد كانت شخصية يوسف بن تاشفين شخصية إسلامية متميزة؛ استجمعت من خصائل الخير وجوامع الفضيلة ما ندر أن يوجد مثلها في شخص مثله، فيوسف بن تاشفين أبو يعقوب لا يقلُّ عظمة عن يوسف بن أيوب الملقَّب بصلاح الدين الأيوبي، وإذا كان الأخير قد ذاع صيته في المشرق الإسلامي وهو يُقارع الصليبيين ويُوَحِّد المسلمين، فإن الأول قد انتشر أمره في المغرب الإسلامي وهو يُقارع الإسبان والمارقين من الدين وملوك الطوائف، ويُوَحِّد المسلمين في زمنٍ كان المسلمون فيه أحوج ما يكونون إلى أمثاله.

كانت الظروف السياسية السائدة في زمنه غاية في التعقيد، وغلب عليها تعدُّد الولاءات وانقسام العالم الإسلامي، وسيطرة قوى متناقضة على شعوبه؛ ففي بغداد كانت الخلافة العباسية من الضعف بمكان بحيث لا تُسيطر على معظم ولاياتها، وفي مصر ساد الحكم الفاطمي، وفي بلاد الشام بدأت بواكير الحملات الصليبية بالنزول في سواحل الشام، وفي الأندلس استعرت الخصومة والخيانة، وعمَّ الفساد بين ملوك طوائفها، وأمَّا في بلاد المغرب الإسلامي -حيث نشأ وترعرع- فكانت هناك قبائل مارقة من الدين تُسيطر على الشمال المغربي، وتُحَصِّن مواقعها في المدن الساحلية كسبتة وطنجة ومليلة؛ وهي من آثار الدولة الفاطمية التي تركت آثارًا عقيدية منحرفة؛ تمثَّلت في جزء منها بإمارة تُسَمَّى الإمارة البرغواطية؛ سيطرت على شمال المغرب، وبنت أسطولًا قويًّا لها، وحَصَّنت قوَّاتها البحرية المطلَّة على مضيق جبل طارق. وفي عام (٤٤٥هـ= ١٠٥٣م) أسَّس عبد الله بن ياسين حركة المرابطية (الرباط في سبيل الله)، وبعد عشر سنوات تَسَلَّم قيادة الحركة يوسف بن تاشفين،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٢٥٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٥٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبدأ بتعمير البلاد، وحَكَمَهَا بالعدل، وكان يختار رجالًا من أهل الفقه والقضاء لتطبيق شريعة الإسلام على الناس، واهتمَّ ببناء المساجد باعتبارها مراكز دعوة وانطلاق وتوحيد للمسلمين تحت إمارته، ثم بدأ يتوسَّع شرقًا وجنوبًا وشمالًا؛ فكانت المواجهة بينه وبين الإمارة البرغواطية الضالَّة أمرًا لا مفرَّ منه؛ استعان ابن تاشفين في البداية بالمعتمد بن عَبَّاد - وهو أحد أمراء الأندلس الصالحين- لمحاربة البرغواطيين؛ فأمدَّه المعتمد بقوَّة بحرية ساعدته في القضاء على الإمارة الضالَّة، وهكذا استطاع أن يُوَحِّد كل المغرب حتى مدينة الجزائر شرقًا، وغانا جنوبًا، وكان ذلك عام (٤٧٦هـ= ١٠٨٣م).

جهاده في الأندلس

بعد أن قوي أمر يوسف بن تاشفين واستقرَّت دولته وتوسَّعت، لجأ إليه مسلمو الأندلس طالبين الغوث والنجدة؛ حيث كانت أحوال الأندلس تسوء يومًا بعد يوم، فملوك الطوائف لَقَّبُوا أنفسهم بالخلفاء، وخطبوا لأنفسهم على المنابر، وضربوا النقود بأسمائهم، وصار كل واحدٍ منهم يسعى إلى الاستيلاء على ممتلكات صاحبه، لا يضرُّه الاستعانة بالإسبان النصارى أعداء المسلمين لتحقيق أهدافه، واستنابوا الفُسَّاق، واستنجدوا بالنصارى، وتنازلوا لهم عن مداخل البلاد ومخارجها، وأدرك النصارى حقيقة ضعفهم فطلبوا منهم المزيد. ولقد استجاب ابن تاشفين لطلب المسلمين المستضعفين، وفي ذلك يقول الفقيه ابن العربي: «فلبَّاهم أمير المسلمين ومنحه الله النصر، وألجم الكفار السيف، واستولى على مَنْ قدر عليه من الرؤساء من البلاد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي للأندلس تحالفوا مع النصارى، فدعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلَّا مع إمام من قريش ولستَ به، أو مع نائبه وما أنت ذلك. فقال: أنا خادم الإمام العباسي. فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك. فقال: أوَلَيْست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق».

وليكون ابن تاشفين أميرًا شرعيًّا أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه توليته، ويقول السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء: «وفي سنة تسع وسبعين أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سَبْتَة ومَرَّاكُش إلى المقتدي يطلب أن يُسَلْطِنَهُ، وأن يُقَلِّده ما بيده من البلاد، فبعث إليه الخِلَعَ والأعلام والتقليدَ، ولَقَّبه بأمير المسلمين؛ ففرح بذلك وسُرَّ به فقهاء المغرب»[1]. وبعد أن زاد ضغط النصارى الإسبان القادمين من الشمال استنجد بابن تاشفين المعتمدُ بن عَبَّاد؛ ودخل ابن تاشفين الأندلس وقاد الجيوش الإسلامية، وقاتل النصارى قتالاً شديدًا، وكانت موقعة الزلَّاقة عام (٤٧٩هـ=١٠٨٦م) من أكبر المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا كبيرًا على الإسبان، وهُزم ملكهم ألفونسو السادس هزيمة منكرة، وقد قضت هذه المعركة على آمال الإسبان الصليبيين في احتلال الأندلس بعد أن استولوا على طُلَيْطلَة، وقد وقعت المعركة في سهلٍ في الجزء الجنوبي لبلاد الأندلس، يقال له: الزلَّاقة. يقال: إنَّ السهل سُمِّيَ بذلك نسبة لكثرة انزلاق المتحاربين على أرض المعركة؛ بسبب كمية الدماء التي أُريقت في ذلك اليوم وملأت أرض المعركة، وتُسَمَّى لدى المؤرخين الغربيين بالاسم العربي نفسه.

كان للمعركة تأثيرٌ كبيرٌ في تاريخ الأندلس الإسلامي؛ إذ إنها أوقفت زحف الصليبيين المطرد في أراضي ملوك الطوائف الإسلامية، وقد أَخَّرت سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس لمدَّة تزيد عن قرنين ونصف.

ولقد تَبَيَّن ليوسف بن تاشفين بعد ذلك أن ملوك الطوائف هؤلاء ليسوا أهلًا للبقاء في مراكز السلطة في الأندلس، وجاءته النداءات والفتاوى من العلماء كالغزالي بوجوب الاستيلاء على الأندلس؛ فاستولى على الأندلس، وأعاد إليها وَحْدَتَهَا، وطرد هؤلاء الطائفيين الذين كانوا يخشون قدومه، ويُفَضِّل بعضهم النصارى عليه، وبذلك انتهى عهد ملوك الطوائف في الأندلس، ووَحَّد يوسف الأندلس مع المغرب في ولاية واحدة؛ لتُصْبِحَ أكبر ولاية إسلامية في دولة الخلافة.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٣٠٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمير المسلمين

ولمَّا كبرت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياع قبيلته، وأعيان دولته، وقالوا له: «أنت خليفة الله في أرضه، وحقُّكَ أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين». فقال لهم: «حاشا لله أن نتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتسمَّى به خلفاء بني العباس؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم». فقالوا له: «لا بُدَّ من اسم تمتاز به». فأجاب إلى «أمير المسلمين وناصر الدين»، وخطب لهم بذلك في المنابر، وخوطب به من العُدْوَتَيْن (أي المغرب والأندلس).

ومن علامات التقوى والتمسُّك بأهداب الدين تمسَّك الأمراء والحكام بالنقد الشرعي، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في كتابه الإحاطة: «كان درهمه فضَّةً، ودينارُه تبرًا محضًا، في إحدى صفحتيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وتحت ذلك «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، وفي الدائر: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي الصفحة الأخرى «الإمام عبد الله أمير المؤمنين»، وفي الدائرة: تاريخ ضربه وموضع سكِّه». وعبد الله اصطلاحًا هو كنية يصلح لاسم كل خليفة عباسي.

واتخذ يوسف السواد شعارًا للمرابطين، وهو شعار الدولة العباسية نفسه، ورَفْعُ شعارِ السواد يدلُّ على التمسُّك بالسُّنَّة، والتمسُّك بالوَحْدَة، وعدم شقِّ جماعة المسلمين، إضافة إلى أن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء.

لقد ذاع صيتُ ابن تاشفين بين العلماء والقضاة بشكل خاصٍّ، وبين الناس بشكل عامٍّ؛ فتناقلوا أخباره وصفاته، وتواتر عنهم نقلُ صفات الجهاد والعدل والزهد والإخلاص والتمسُّك بالإسلام وبدولة المسلمين الشرعية؛ حتى أثنى عليه معظم العلماء والفقهاء.

وفاته

تُوُفِّيَ يوسف بن تاشفين في شهر المحرم عام (٥٠٠هـ= ١١٠٧م) عن عمر يقارب المائة عام، لقد كان يوسف بن تاشفين واحدًا من عظماء المسلمين المغاربة، الذين جدَّدُوا للأُمَّةِ أمر دينها ولم يأخذ حقَّه من الاهتمام التاريخي إلَّا قليلًا.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منصور أشورما

الاسم	محمد
اللقب	الشيخ منصور أشورما
تاريخ الميلاد	١١٦١ هـ/ ١٧٤٨ م
مكان الميلاد	قرية آلدي – الشيشان
تاريخ الوفاة	١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٤ م
مكان الوفاة	سجن شليسبرغ – روسيا
الانتماء	الخلافة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية الروسية

هو المجاهد الشيشاني الشيخ منصور أشورما أو (أشورما) كما لَقَّبَهُ الروس، واسمه الحقيقي محمد، جاهد الروس طوال تسع سنوات، ثم أُسر وأُودع السجن في شليسبرغ، وهناك قُتل.

نشأته

وُلِدَ أشورما عام (١١٦١هـ= ١٧٤٨م) في قرية آلدي الواقعة بالقرب من نهر سنج ببلاد الشيشان، في موقع قريب من جروزني اليوم، وكان الابن الثاني في العائلة، وعمل في الصغر مهنة النبي ﷺ فقد رعى الغنم في صغره، أمَّا عن نشأته فقد اعتنى به والده منذ صغره؛ فحفظ القرآن في داغستان، وكان منتسبًا إلى الطريقة النقشبندية، وتلقَّى علومه الدينية في بخارى، فكان يحفظ القرآن الكريم كلَّه عن ظهر قلب، ويحفظ آلافًا من الأحاديث النبوية الشريفة، وصار له نفوذٌ وتأثيرٌ لا يُجارى بين الشعوب الشركسية القوقازية المسلمة، وكان يُحَرِّض الناس جهارًا على الجهاد ضد الروس يدًا واحدة؛ مُبَيِّنًا لهم أهمية الاتِّحَادِ؛ ونجح أيما نجاح في إثارة الحقد على الروس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

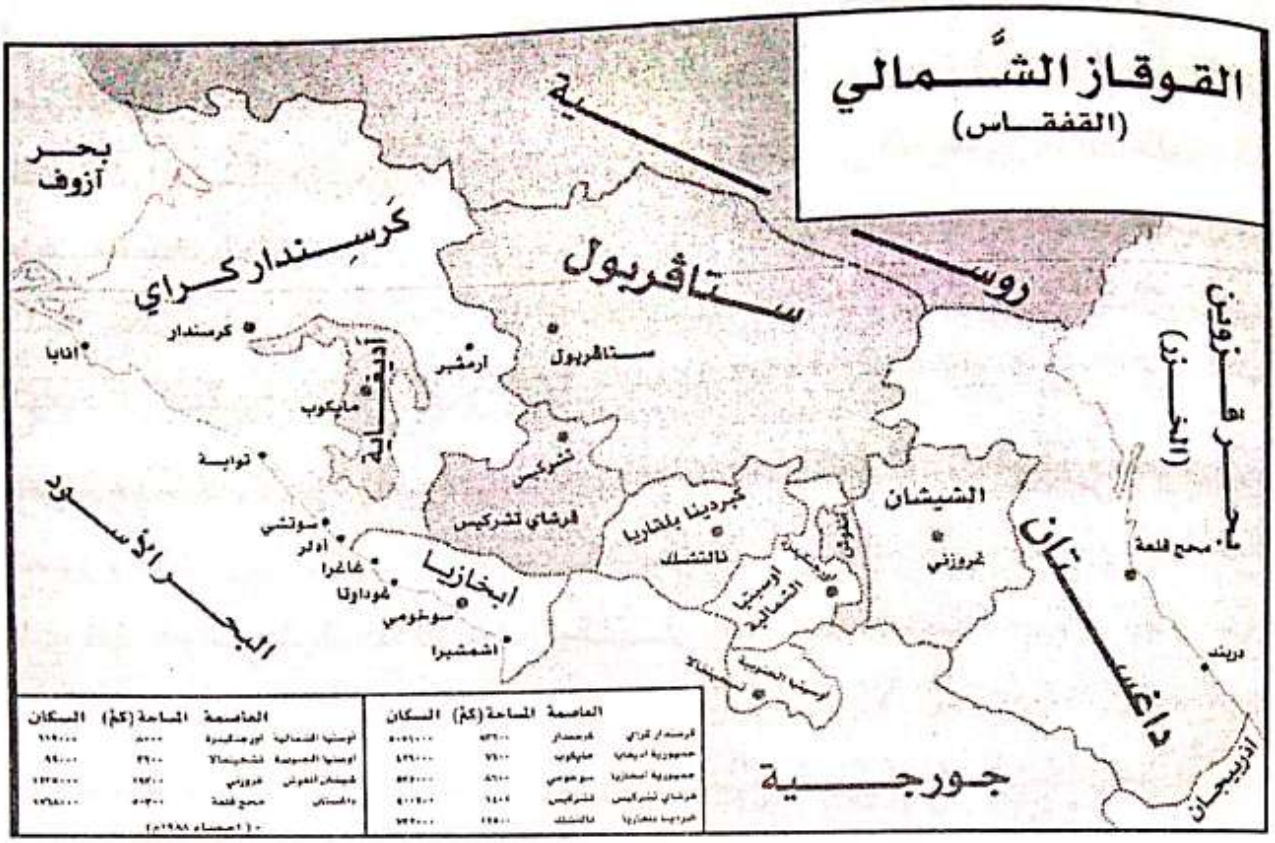

جهاده

في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي كانت الشيشان وداغستان والشركس وباقي الأراضي بين البحر الأسود وبحر قزوين تُداعب مخيلة القيصر الروسي إيفان الثالث، فاتَّفق مع قبائل الكوزاك الموالية للدولة الروسية الوليدة على الغزو التدريجي لأراضي المسلمين في إقليم القوقاز؛ وأدَّى الكوزاك المهمَّة بنجاح، فأقاموا أوَّل مخفر أماميٍّ على نهر التيريك، وصار هذا المخفر مدينة جروزني العاصمة الشيشانية فيما بعدُ، وخلال حكم إيفان الرابع أو إيفان الرهيب في منتصف القرن السادس عشر قام الكوزاك ببناء مجموعة من الحصون في شمال داغستان والشيشان؛ عاقدين تحالفات مع بعض شعوب الإقليم، ومع بداية القرن الثامن عشر كانت آلاف الأُسَر الكوزاكية قد تجمَّعت في الإقليم، وامتزجت مع القبائل المحلية، وتزاوجوا منهم، وإن احتفظوا بالمسيحية دينًا وبالروسية لغة.

شرع الإمام منصور بعد عودته إلى وطنه من داغستان، وبعد أن تلقَّى العلوم الشرعية، وبعد أن أتمَّ حفظ القرآن في تنبيه الناس إلى الخطر المحدق بهم؛ وهو تَوَسُّع الروس في البلاد القوقازية، فكان يدعو إلى الجهاد والنضال من أجل توحيد القوقاز، وكان على اتصال بالعثمانيين، الذين كانوا يحثُّونه على بذل أقصى ما يُمكن من جهد لإثارة النقمة على الروس،

فدأب الشيخ منصور على التجوال في مختلف أنحاء القوقاز ليخطب في الناس، ويعظهم بترك أمور الدنيا، والتعلُّق بأهداب الفضيلة، وكان زاهدًا متقشِّفًا. وفي عام (١١٩٩هـ= ١٧٨٥م) نادى بالجهاد ضدَّ الروس، واستثار الحمية الإسلامية في نفوس القوقازيين، وكان ذلك بداية حرب جديدة، لم يألفها الروس من قبل؛ وهي حرب الجهاد المقدس، وسرعان ما تجاوبت مع الشيخ منصور شعوب داغستان، والقبارطاي، والنوغاي، بالإضافة إلى الشيشان، وتجمَّع لديه جيش ضخم، استطاع أن يُلْحِقَ بالروس هزائم متكرِّرَة في شمالي القوقاز.

ورغم أن كاترين الإمبراطورة الروسية (١٧٢٩ - ١٧٩٦م) لم تكترث في بادئ الأمر بالشيخ منصور وحركته في بلاد الشيشان، فإن هزيمة الكولونيل بيري جذبت اهتمام كاترين لهذا الخطر، الذي ظهر فجأة في شمال القوقاز، وتمكَّن الشيشان وحلفاؤهم الداغستان من قتل الكولونيل بيري ومعه سبعة ضباط آخرين إضافة إلى ستمائة جندي، وغنموا الأسلحة التي كانت بحوزتهم، ومن ضمنها اثنا عشر مدفعًا، وبعد توالى انتصارات الشيخ منصور في بلاد الشيشان والداغستان ازداد تعلُّق الشراكس بالشيخ، وتدافعوا للانضمام إلى حركته وجهاده، واستطاع شعب القبارطاي الشركسي الانفصال مؤقَّتًا عن الروس، ثم حاول الشيخ منصور الاستيلاء على حصن قيزيل يار، وعندها أرسلت كاترين جيشًا ضخمًا، بقيادة الكولونيل ناجل، استطاع أن يهزم الشيخ في معركة تتار توب في ٣٠ أكتوبر (١٧٨٥م= ١١٩٩هـ) على نهر التيريك، إلَّا أنها كانت هزيمة مؤقَّتة؛ لأن الشيخ منصور انسحب من المعركة عندما شعر بأنه سيخسرها نتيجة التفوُّق العددي الروسي، وعاد إلى بلاده الشيشان، ولم يُحاول الروس اللحاق به داخل بلاده، واقتصر نشاطه بعدها على غارات مُباغتة وسريعة على القلاع الروسية في القبارطاي.

وعندما بدأت بوادر الحرب تلوح بين الروس والعثمانيين عام (١٧٨٧م =١٢٠١هـ)، استنجد الأتراك بالشيخ منصور فلبَّى النداء، وظهر فجأة بين الشراكسة في الغرب، الذين التفُّوا حوله وقاموا بمهاجمة القوات الروسية من الخلف، وفي الذكرى السنوية لمعركة تتار توب هاجم الشيخ ومعه الشراكسة ثلاثة أفواج من فوازق الدون وأبادوهم، وفي سبتمبر عام (١٧٨٧م= ١٢٠١هـ) هاجم الروس قلعة أنابا على ساحل البحر الأسود، فقام الشيخ منصور بالهجوم على الروس من الخلف في منطقة أوبون، وقتل ثلاثة آلاف جندي روسي في هذه المعركة، وعلى إثر هذه الهزيمة عُزل الجنرال توكالي، وَحَلَّ محله بيبكوف، وأيقن الروس أن احتلال أنابا لن يتمَّ إلَّا بهزيمة الشيخ منصور أوَّلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان الأتراك قد أرسلوا حسين باشا (بطال باشا) للدفاع عن أنابا، وكان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف رجل مزوَّدين بالمدافع والذخيرة والمؤن، وفور وصوله إلى أنابا قام بطال باشا بمعاملة الشيخ منصور ومتطوِّعيه من الشيشان والشراكسة بجفاء وعجرفة عندما قَدِمُوا للترحيب به، ونتيجة لهذه المعاملة غير اللائقة غادر الشيخ منصور ومتطوِّعوه أنابا بعد أن أرسلوا شكوى إلى السلطان العثماني ضدَّ تصرُّفات بطال باشا، وخوفًا من العقوبة.

ونتيجة لإلحاح السلطان العثماني والشراكسة، عاد الشيخ منصور إلى أنابا للدفاع عنها، وفشل الجنرال بيبكوف في احتلال أنابا، وتمَّ استبداله بالجنرال بيلمان، وبتنسيق مع الأتراك خرج الشيخ منصور من حصن أنابا ومعه مقاتلوه لمهاجمة قوات الجنرال جيرمانيين أحد مساعدي بيلمان، وجرت معركة كوبيروسكوي، والتي اضطر الشيخ إلى الانسحاب منها؛ لأن القوات العثمانية لم تُرسِل التعزيزات التي كان قد اتُّفِقَ على إرسالها أثناء المعركة، ولكن عاد الشيخ منصور ثانية إلى أرض المعركة، واضطر الجنرال جيرمانيين إلى الانسحاب، وبعد مسلسل الفشل الروسي في احتلال أنابا قامت الإدارة الروسية بتعيين الجنرال غوردوفيتش لقتال العثمانيين والشيخ منصور، وأرسلت له تعزيزات كثيرة من السلاح والجنود، وبعد وصولها قام غوردوفيتش بالهجوم على أنابا في ٢١ يونيو (١٧٩١م= ١٢٠٥هـ)، وتمكَّنت القوات الروسية من دخولها بعد أن فاوض قائد الأتراك الروسَ، وترك أنابا مع أتباعه -ومعه جميع الأموال التي أرسلها الخليفة لدعم الدفاع عن المدينة- وانضمَّ إلى الروس، ولكن المدينة صمدت، وبعد دفاع أسبوعين قبلوا الاستسلام بالرغم من احتجاج الشيخ منصور ومتطوِّعيه وحثِّهم القائد العثماني الجديد على المقاومة لآخر رجل.

وفاته

خلال المعارك الدائرة بينه وبين الروس سقط الشيخ منصور جريحًا، فأسره الروس، ونقلوه إلى الإمبراطورة كاترينا، التي رغبت في رؤية هذا الشيشاني، الذي كان مصدر إزعاج دائم لها منذ عام (١١٩٩هـ= ١٧٨٥م)، ثم أُودع السجن في شليسبرغ، وهناك قُتل، بعد أن قتل الجندي المسئول عن حراسته، وبذلك سقط الشيخ منصور الشيشاني شهيدًا في (رمضان ١٢٠٨ هـ= ١٣ أبريل ١٧٩٤م) بعد تسع سنوات من الجهاد المتواصل.

لقي الإمام الشهيد منصور أشورما ربَّه شهيدًا بعد حياة حافلة بالعلم والجهاد، وبعد أن دفع الناس إلى الجهاد في سبيل الله تسع سنوات كاملة؛ أوقع في الروس الكثير من النكبات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمام شامل

الاسم الكامل	الإمام شامل علي بن دينغو
اللقب	أسد القفقاس - صقر الجبال
تاريخ الميلاد	١٢١٢ هـ/ ١٧٩٧م
مكان الميلاد	غومري – الداغستان
تاريخ الوفاة	١٢٨٧ هـ/ ١٨٧١ م
مكان الوفاة	المدينة المنورة
الانتماء	الخلافة العثمانية
أعداؤه	الإمبراطورية الروسية

الإمام شامل هو أحد أشهر المقاومين للوجود الروسي في القوقاز، كما كان قائدًا سياسيًّا ودينيًّا، قاد المقاومة ضدَّ الروس خلال حروب القوقاز، وهو ثالث أئمة الشيشان وداغستان من عام ١٨٣٤م إلى عام ١٨٥٩م، لُقِّبَ بأسد القفقاس وصقر الجبال، أرسلت الملكة فيكتوريا إلى شامل علمًا طُرِّزَ عليه ثلاث نجمات؛ تُمثِّل الشركس والداغستان وجورجيا.

نشأته

وُلِدَ الإمام شامل علي بن دينغو في قرية غيمري في داغستان عام (١٢١٢هـ= ١٧٩٧م)، آفاري الأصل، والدته باهو ميسادوو كانت آفارية.

أُطلق عليه اسم شامل حسب العادة القفقاسية باعتباره كان كثيرَ المرضِ، وتغيير الاسم كان لإبعادِ الأرواح الشريرة؛ فلُقِّبَ بشامل أو صامويل، كان له صديق مميَّز هو كوناك، الذي اشتُهِر فيما بعد باسم الإمام غازي مولا، وهو أكبر من شامل ببضع سنين.

كان طول شامل ١٩٠ سم، وكان له حصان أسود اللون ومن سلالة أصيلة، تميَّز شامل بلبس أبيض وأسود مع معطف فضفاض وعمامته حشفتها حمراء، أمَّا رايته فكانت سوداء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللون، درس شامل العربية والفلسفة والفقه والأدب العربي على يد أستاذه جمال الدين وتعمَّق في الصوفية.

وما زالت ذكرى الإمام شامل تعيش في وجدان وذاكرة الداغساتانيين، فلا يخلو مكان من صوره، ويُسَمُّون كثيرًا من أبنائهم باسمه تيمُّنًا به حتى اليوم؛ فهم يعتبرونه بطلاً قوميًّا خاض محاولة بَدَتْ مستحيلة لوقف الزحف الروسي على أراضي مسلمي القوقاز.

لم يُولَد محمد شامل لأسرة معدمة فقيرة؛ حتى يُفَسِّر البعض قتاله من أجل الحرية بأنه قتال الفقراء ضدَّ الأغنياء؛ فقد كان ملايين الفلاحين الروس يُعانون في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي في روسيا من استعباد الإقطاعيين لهم؛ بينما كان علي بن دينغو والد الإمام شامل فلاحًا من الأحرار، أمَّا أُمُّه فهي ابنة سيد الآفار.

غازي مولا

بعد أن مات الإمام منصور أشورما في الأَسر سنة (١٢٠٨هـ= ١٧٩٤م) لم يهدأ المسرح الشيشاني إلَّا لعَقْدَيْنِ من الزمان، بعدها كان الإمام غازي مولا قائدًا للمريدين[١] يُكمل الطريق؛ ففي عام (١٢٤٤هـ= ١٨٢٩م) بدأ الإمام غازي مولا في تحريك شعوب الجبال نحو حرب مقدسة لمواجهة روسيا، وإن عُرف عنه عدم مشاركته في المعارك، بل اشتُهر بقدرته في التأثير على جنوده بسحر الكلمة وبلاغتها، كما قطع شوطًا كبيرًا في إرسال الدعاة من داغستان إلى سكان الجبال الشيشانية؛ وذلك لتحويلهم من الوثنية إلى الإسلام.

وأمام تماسك قوَّة المريدين اتخذ الروس أسلوب حرق البيوت على ساكنيها؛ كي يُجبروا المقاومين على الخروج، وشنُّوا هجومًا واسعًا إلى أن سقط الإمام غازي مولا في معركة غيمري بين جثث آلاف المريدين، وفي معركة غيمري لم ينجُ إلَّا القليل، وتمكَّن اثنان منهم من الفرار، كان أحدهما شامل، الذي كان قد أُصيب إصابة بالغة كادت تقتله، إلَّا أنه تمكَّن من الاختفاء حتى شُفيت جراحه.

قيادة حمزة بك

بعد مقتل غازي مولا وبعد اعتقاد المريدين بمقتل الإمام شامل في معركة غيمري، اختير

---

(١) المريدون: هم أتباع الحركة المريدية؛ وهي حركة دينية نبعت من الطريقة النقشبندية، طالبت بالإصلاح الديني؛ ثم أخذت طابعًا سياسيًّا، وهي ظهرت في منطقة القوقاز وحملت لواء المقاومة الإسلامية ضد القوات الروسية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حمزة بك مِنْ قِبَلِ المريدين قائدًا بعد تزكيةٍ من كبار الشيوخ، وعَمِلَ حمزة على ترتيب الصفوف وتدعيم قوَّة الجيش، إلَّا أنه لقي الهزيمة، ثم اغتيل وهو يَؤُمُّ المُصَلِّينَ في المسجد الجامع بمعقل المقاومة في هونزا بداغستان.

قيادة الإمام شامل

اختار المريدون شامل إمامًا بعد وفاة حمزة بك في عام (١٢٥٠هـ= ١٨٣٤م)، أعاد شامل تنظيم جيش المريدين على نمط أعدائه الكوزاك بشكل أشبه إلى التنسيق الاتحادي الحديث، كما نظَّم العمل البريدي في دولته، ونسَّق الإنفاق على الجيش من ريع الأراضي الزراعية التي ضُمَّتْ إلى المساجد، كما نظَّم جمع الزكاة لتجهيز الجيش.

إجراءات الإمام شامل لتقوية دولته

١- تركيز أسس الدولة:

بدأ الإمام شامل في دعم ركائز نفوذه في القفقاس المعتمد على الشيشان وداغستان وحلفائهم الأديغة، وامتدَّت منطقة نفوذه من بحر قزوين شرقًا إلى البحر الأسود غربًا.

كان السعي دءوبًا للمساواة بين القوميات، بغضِّ النظر عن اللغة والعرق والطبقة، وذلك في وقت كانت العبودية ما زالت مطبَّقة في روسيا، واستمدَّ شامل من القوانين الإسلامية المنهج الذي نظَّم به الحياة الاجتماعية، وبصفة خاصة شئون القِصَاص والعقاب في الجرائم المدنية، بل إنه تشدَّد في بعض القوانين التي كان القانون -في بعض المذاهب الإسلامية- أكثر اعتدالًا؛ رغبة منه في الحفاظ على أركان دولته.

٢- تنظيم الجيش:

كان يقوم تنظيم الجيش على أساس النظام العشري؛ في الأول يأتي المائة نائب وهم أعلى ضباطه رتبة، ثم النُّوَّاب ويُعرفون بالمرشدين، ويصل عددهم حوالي الألف، وكان هناك الحرس الخاصُّ، وكان المريدون يُشَكِّلُون معظم جيش شامل، ومقسَّمين إلى فرق العشرات والمئات والخمس مئات، ولكلِّ فرقة قائد، الجنود يلبسون التشركيسكا بلون بني، واللون الأسود للضباط، والبعض يضع عمامة خضراء ومعطفًا أسود، والرايات سوداء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣-استخباراته واتصالاته مع مصر:

استفاد الإمام شامل من الأسرى من الضباط الروس ومن المرتدين عن التعاون مع الروس، وقد استفاد من خبرتهم في تطوير قدراته العسكرية على نمط أوربي حديث، وحاول شامل أن يستفيد من القوى الدولية لمساعدته، غير أن عزلة الميدان -الذي يُقاتل فيه- حالت دون تحقيق خُطَّته؛ ففي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي سعى شامل إلى فتح خطٍّ اتصال بينه وبين كلٍّ من تركيا وإنجلترا وفرنسا؛ وذلك بهدف أن تُقَدِّم هذه الدول لشامل الدعم العسكري في مقابل تحالفه معها في عدائها لروسيا، وقبل ذلك وفي عام (١٢٥٦هـ= ١٨٤٠م) تداول المريدون في داغستان خطابًا يحمل توقيع الخاتم الملكي لمحمد علي باشا، يُفَوِّضُ فيه شامل في قيادة سكان الإقليم، ويَعِدُ بوصول الجيش المصري المتوغِّل في الأراضي التركية إليهم لتقديم العون العسكري في مواجهة الروس، غير أنَّ فشل مشروع محمد علي في تركيا بدَّد آمال المريدين في وصول مدد مصري.

٤- استمراره في المقاومة:

استمرَّت المقاومة بقيادة شامل في مسلسل متوالي الحلقات بأسلوب حرب العصابات والكرِّ والفر، إلى أن نَفَّذَ شامل انسحابًا تكتيكًا إلى داخل الجبال، مغريًا الروس بالتوغُّل خلفه عبر الغابات الكثيفة، فانقضَّ عليهم المريدون من جهات مختلفة، واستخدم المقاتلون أحد قارعي الطبول الذين تمَّ أسرهم في العزف لحثِّ الجنود الروس على التوجُّه نحو شَرَك أَعَدُّوه، فقتلوا فيه أكثر من نصف ضباط الحملة، وتوالت الهجمات على الجيش الروسي المرتبك؛ ففقد أربعة مدافع من خمسة، ويُقَدِّر المؤرخون نتائج معارك الغابات التي استمرَّت أربع سنوات بنحو ١٠ آلاف قتيل روسي.

٥- استخدامه للمدافع:

تمكَّن شامل بالمدافع الأربعة التي غنمها من الروس من الهجوم عليهم في حصونهم، فأسقط آلاف القتلى، واغتنم في سنتين ١٤ مدفعًا إضافيًّا؛ بشكل بدا وكأنَّ جيشًا جديدًا يُبْنَى لشامل من المدافع الروسية، التي لم يكن يملكها المريدون، كتب أحد الجنرالات الروس في مذكراته مُعَلِّقًا على ما يرى: «**يا لها من مصيبة مفجعة، إن الرجال الذين تناثرت أشلاؤهم هنا**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان بمقدورهم فتح بلاد تمتدُّ من اليابان في الشرق إلى أوكرانيا في الغرب».

٦- نظرته للغنائم:

حين كان شامل يشعر أن قوَّاته قاتلت من أجل الغنائم كان يُلْقِي الغنائم في بحيرة في الجبل، ويعتقد سكان قرية آندي أنه في مكان ما تحت مياه بركة جبلية في الجوار تُوجد صحون ذهبية، وأزرار، وأغماد سيوف ياقوتية، وأساور وخلاخل زمردية، وكاسات شراب مرجانية وكهرمانية كانت غنائم غارات قفقاسية أُلقيت إلى أسماك البركة؛ وذلك للمحافظة على وحدة الصفِّ.

مكافأة مقابل رأس شامل

حينما رصدت روسيا ٤٥ ألف روبل للإيقاع بشامل، كتب شامل خطابًا إلى الجنرال الروسي على خط المواجهة، يقول فيه: «كم كانت سعادتي حين علمت أن رأسي تساوي هذا الثمن الضخم، ولكنك لن تكون سعيدًا حينما أُخبرك أنَّ رأسك بل رأس القيصر ذاته لا تُساوي لديَّ كوبيكًا واحدًا (الروبل يساوي ١٠٠ كوبيك)».

استراتيجية الجنرال باریاتنسكي

وقع الإمام شامل ضحية التسويات الدولية؛ ففي عام (١٢٧٢هـ= ١٨٥٦م) انتهت الحرب التركية الروسية؛ وهو ما سمح لروسيا بالتركيز بقوَّتها على الجبهة القوقازية بقوَّة ٢٠٠ ألف رجل، وأوكلت المهمَّة إلى الجنرال الشاب أليكساندر إيفانوفيتش باریاتنسكي في وقت كان شامل قد تخطَّى من عمره الستين، وعكف باریاتنسكي طويلًا على دراسة الجغرافيا العسكرية لمعارك الإمام شامل، وخَلُص إلى أنَّ أهمَّ الانتصارات التي حَقَّقها شامل لم تكن في أرض مفتوحة؛ بل حينما كان يحتمي بالغابة والجبل، واختار سياسة أكثر حنكة عمَّنْ سبقوه، فتقرَّب إلى الأهالي، وأحسن معاملتهم، ومنع التعرُّض للنساء ولغير المقاتلين؛ فضمن عدم انقلابهم عليه في حربه الفاصلة مع الإمام.

ضغط الجنرال باریاتنسكي على قوات شامل حتى لجأ الأخير إلى الاحتماء بالغابات، وهنا سخَّر فرقة عسكرية بأكملها لقطع أشجار الغابات، وبعمل دءوب، وبجنود حملوا الفئوس بدلًا من السلاح أزال باریاتنسكي مساحات واسعة من غابات داغستان والشيشان، وذلك على طول الطرق بين القلاع والحصون الروسية، وفشل جيش شامل في مهاجمة القلاع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الروسية، التي صارت أكثر حذرًا تحت أعين باريانتسكي الساهرة، وبخطوات واثقة زحفت قوات باريانتسكي على المناطق الخاضعة لشامل، واستمال الروس عشرات القبائل التي أنهكتها الحرب، وبدأت في لوم شامل على ما أصابهم من فقر وتشرُّد.

استسلام الإمام شامل

وبدأت العقلية العسكرية المُسِنَّة تقع في الخطأ القاتل؛ فركن شامل إلى توقُّع الهجوم الروسي من مصدر محدَّد في وقتٍ تمسَّك الروس فيه بسِرِّيَّة المعلومات، وحرَّكُوا جزءًا من جيشهم أوهم شامل أنهم ما زالوا في منتصف الطريق، بينما انقضُّوا عليه من اتجاه آخر بحرب خاطفة، وخدعوا الرجل الذي كان بارعًا في هذا النوع من الهجوم، وحدث ما كان متوَقَّعًا فقد أُسِرَ الإمام شامل، وتمَّ نقله في رحلة طويلة إلى موسكو في موكب بَدَا وكأنَّه استعراض عسكري بالبطل الذي سقط أخيرًا، وطالب المحاربون القدامى على طول الطريق من سنافربول إلى موسكو بأن يتحدثوا إلى ذلك العدوِّ المهيب.

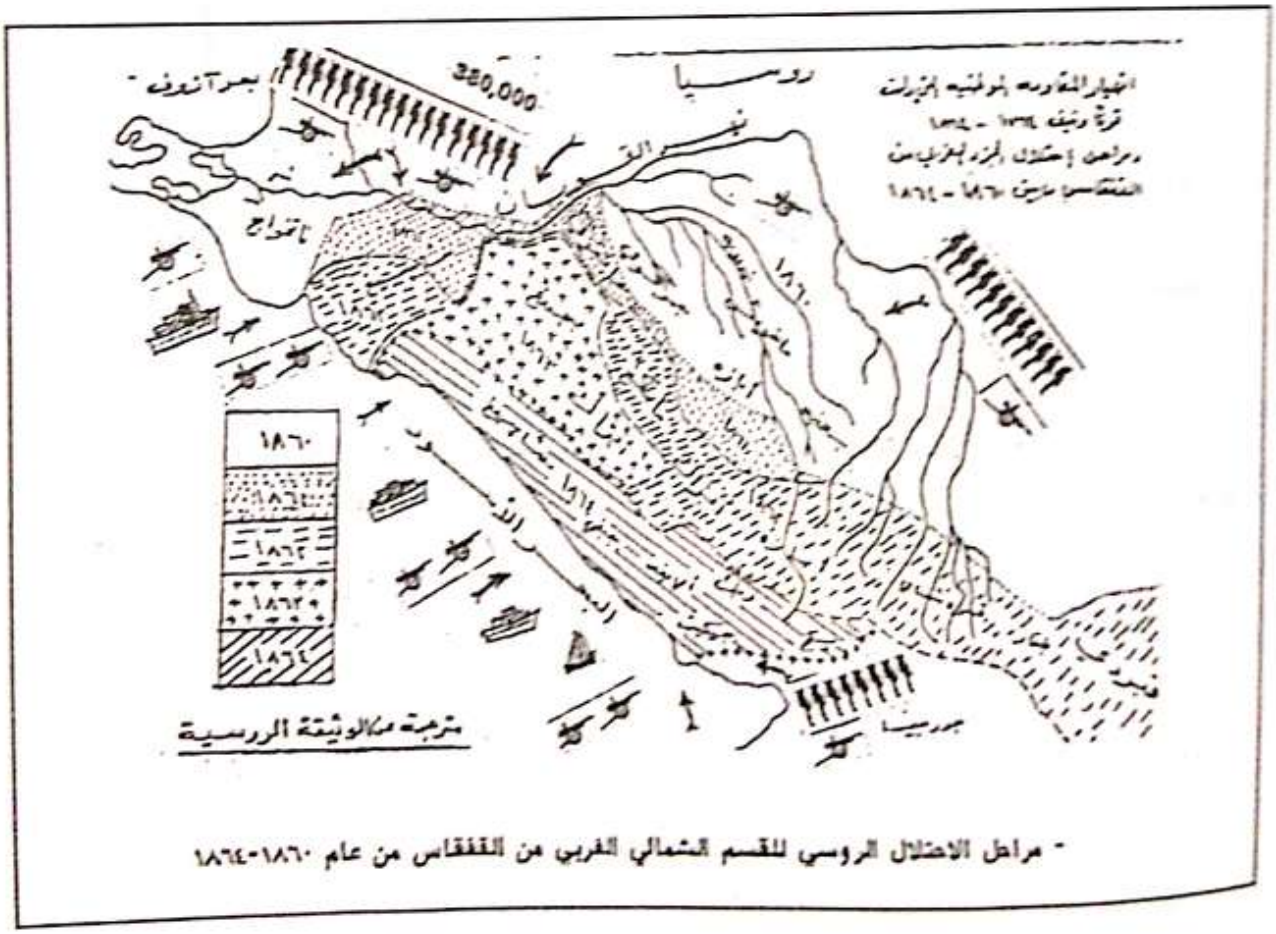

- مراحل الاحتلال الروسي للقسم الشمالي الغربي من القفقاس من عام ١٨٦٠-١٨٦٤

وفاته

ظلَّ شامل في موسكو، وفي عام (١٢٨٦هـ= ١٨٧٠م) حصل شامل على إذن بالسفر إلى مكة؛ وقد بلغ من العمر ٧٤ عامًا، فأبحر من عنابة إلى إسطنبول، فاستقبله السلطان العثماني عبد العزيز استقبالًا رسميًّا، وعرض عليه القصور ليختار منها واحدًا لكنه رفض، وطلب منه السلطانُ الذهاب إلى القاهرة للتوسُّط في النزاع الحادِّ بين تركيا ومصر، فأدَّى المهمَّة بنجاح، ثم توجَّه مع أُسرته ومرافقيه إلى مكة، التي كانت تحت سيطرة العثمانيين القضائية، وفي نهاية ١٨٧٠م غادر مكة إلى المدينة المنورة، وعاش فيها في بيت الشيخ أحمد الرفاعي، وفي (٢٥ من ذي القعدة ١٢٨٧هـ= ٤ من فبراير ١٨٧١م) بعد المغرب وقبل العشاء نهض شامل من غفلته، وبدا أن قواه عادت إليه في آخر لحظة فصرخ مُهَلِّلًا (الله)، ثم تُوُفِّيَ ودُفِنَ في مقبرة جنَّة البقيع في المدينة المنورة.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد القادر الجزائري

الاسم الكامل	عبد القادر بن الأمير محيي الدين بن مصطفى
اللقب	الأمير عبد القادر الجزائري
تاريخ الميلاد	١٢٢٢ هـ/ ١٨٠٧ م
مكان الميلاد	قرية القيطنة – الجزائر
تاريخ الوفاة	١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣ م
مكان الوفاة	دمشق – سورية
الانتماء	الجزائر
أعداؤه	الاحتلال الفرنسي

هو عبد القادر الجزائري أو الأمير عبد القادر مُؤَسِّس الدولة الجزائرية الحديثة، عالِمُ دينٍ، شاعر، فيلسوف، سياسي ومحارب في آنٍ واحدٍ، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر.

نسبه

هو الأمير عبد القادر بن الأمير محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله (الكامل) بن الحسن (المثنى) بن الحسن (السبط) بن فاطمة بنت محمد رسول الإسلام ﷺ وزوجة علي بن أبي طالب ابن عمِّ الرسول ﷺ، يرجع أصله إلى الأدارسة الذين حكموا المغرب في القرن التاسع.

نشأته

وُلِدَ في (٢٣ من رجب ١٢٢٢هـ= مايو ١٨٠٧م)، وذلك بقرية القيطنة بوادي الحمام من منطقة معسكر بالجزائر، ثم انتقل والده إلى مدينة وهران.

لم يكن محيي الدين والد الأمير عبد القادر هملًا بين الناس؛ بل كان ممَّنْ لا يسكتون على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظلم، فكان من الطبيعي أن يصطدم مع الحاكم العثماني لمدينة وهران؛ وأدَّى هذا إلى تحديد إقامة الوالد في بيته، فاختار أن يخرج من الجزائر كلها في رحلة طويلة.

كان الإذن له بالخروج لفريضة الحج عام (١٢٤١هـ= ١٨٢٥م)، فخرج الوالد واصطحب ابنه عبد القادر معه، فكانت رحلة عبد القادر إلى تونس ثم مصر ثم الحجاز ثم البلاد الشامية ثم بغداد، ثم إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر مارًّا بمصر وبرقة وطرابلس ثم تونس، وأخيرًا إلى الجزائر من جديد عام (١٢٤٣هـ= ١٨٢٨م)، فكانت رحلة تَعَلُّم ومشاهدة ومعايشة للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه، وما لبث الوالد وابنه أن استقرَّا في قريتهم قيطنة، ولم يمضِ وقت طويل حتى تعرَّضت الجزائر لحملة عسكرية فرنسية شرسة، وتمكَّنت فرنسا من احتلال العاصمة فعلًا في (المحرم ١٢٤٦هـ= ٥ من يوليو ١٨٣٠م)، واستسلم الحاكم العثماني سريعًا، ولكنَّ الشعب الجزائري كان له رأي آخر.

المبايعة

فرَّق الشقاقُ بين الزعماءِ كلمةَ الشعب، وبحث أهالي وعلماء غريس عن زعيم يأخذ اللواء، ويبايعون على الجهاد تحت قيادته، واستقرَّ الرأي على محيي الدين الحسني، وعرضوا عليه الأمر، ولكنَّ الرجل اعتذر عن الإمارة وقَبِلَ قيادة الجهاد، فأرسلوا إلى صاحب المغرب الأقصى ليكونوا تحت إمارته، فقَبِلَ السلطان عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب، وأرسل ابن عمِّه علي بن سليمان ليكون أميرًا على وهران، وقَبْلَ أن تستقرَّ الأمور تدخَّلت فرنسا مُهَدِّدة السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمِّه؛ ليعود الوضع إلى نقطة الصفر من جديد، ولمَّا كان محيي الدين قد رضي بمسئولية القيادة العسكرية، فقد التَفَّتْ حوله الجموع من جديد، وخاصَّة أنه حقَّق عدَّة انتصارات على العدوِّ، وقد كان عبد القادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات، فاقترح الوالد أن يتقدَّم عبدُ القادر لهذا المنصب، فقبل الحاضرون، وقَبِلَ الشاب تحمُّل هذه المسئولية، وتمَّت البيعة، ولَقَّبه والده بناصر الدين، واقترحوا عليه أن يكون سلطانًا، ولكنَّه اختار لقب الأمير، وبذلك خرج إلى الوجود الأمير عبد القادر ناصر الدين بن محيي الدين الحسني، وكان ذلك في (١٣ من رجب ١٢٤٨هـ= ٢٠ من نوفمبر ١٨٣٢م).

ولتكتمل صورة الأمير عبد القادر، فقد تلقَّى الشابُّ مجموعة من العلوم؛ فقد درس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفلسفة، ودرس الفقه والحديث؛ فدرس صحيحي البخاري ومسلم، وقام بتدريسهما، كما تلقَّى الألفية في النحو، والسنوسية، والإتقان في علوم القرآن، وبهذا اكتمل للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة، والخبرة العسكرية في ميدان القتال، وعلى ذلك فإنَّ الأمير الشابَّ تكاملت لديه مُؤَهِّلات تجعله كُفُؤًا لهذه المكانة، وقد وجَّه خطابه الأول إلى كافَّة العروش قائلًا: «... وقد قَبِلْتُ بيعتَهم (أي أهالي وهران وما حولها) وطاعتَهم، كما أني قَبِلْتُ هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملًا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورَفْعِ النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهَّرة، وحماية البلاد من العدوِّ، وإجراء الحقِّ والعدل نحو القويِّ والضعيف، واعلموا أن غايتي القصوى اتِّحاد الملَّة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتِّكال في ذلك كله».

الأمير عبد القادر

اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقية هدنة مع الأمير عبد القادر؛ وهي اتفاقية «دي ميشيل» في عام (١٢٥٠هـ= ١٨٣٤م)، وبهذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بدولة الأمير عبد القادر؛ وبذلك بدأ الأمير في الاتِّجاه إلى أحوال البلاد يُنَظِّم شئونها ويُعَمِّرها ويُطَوِّرها، وقد نجح الأمير في تأمين بلاده إلى الدرجة التي عَبَّر عنها مُؤَرِّخ فرنسي بقوله: «يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفردًا على رأسه تاج من ذهب، دون أن يُصيبه أذًى!!».

وعندما تولَّى عبد القادر الإمارة كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي صعبًا، لم يكن لديه المال الكافي لإقامة دعائم الدولة، بالإضافة إلى ذلك كان له معارضون لإمارته؛ ولكنَّه لم يفقد الأمل؛ إذ كان يدعو باستمرارٍ إلى وَحْدَة الصفوف، وتَرْكِ الخلافات الداخلية، ونَبْذِ الأغراض الشخصية، وكان يعتبر منصبه تكليفًا لا تشريفًا، وفي نداء له بمسجد معسكر خطبَ قائلًا: «إذا كنتُ قد رضيتُ بالإمارة؛ فإنَّما ليكون لي حقُّ السير في الطليعة والسيرِ بكم في المعارك في سبيل الله، الإمارةُ ليست هدفي؛ فأنا مستعدٌّ لطاعة أيِّ قائد آخر تَرَوْنَهُ أجدرَ منِّي، وأقدر على قيادتكم؛ شريطة أن يلتزم خدمة الدِّينِ وتحرير الوطن».

ومنذ الأيام الأولى لتولِّيه الإمارة كتب بيانًا أرسله إلى مختلف القبائل التي لم تُبايعه بعد، ومن فقرات هذا البيان: «بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده... إلى القبائل... هداكم الله وأرشدكم ووجَّهكم إلى سواء السبيل، وبعدُ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن قبائل كثيرة قد وافقت بالإجماع على تعييني، وانتخبتني لإدارة حكومة بلادنا، وقد تَعَهَّدَتْ أن تُطيعني في السَّرَّاء والضَّرَّاء وفي الرخاء والشدَّة، وأن تُقَدِّم حياتها وحياة أبنائها وأملاكها فداءً للقضية المقدَّسة، ومن أجل ذلك تَوَلَّيْنَا هذه المسئولية الصعبة على كره شديد؛ آملين أن يكون ذلك وسيلةً لتوحيد المسلمين، ومنعِ الفُرقَة بينهم، وتوفيرِ الأمن العام إلى كل أهالي البلاد، ووَقْفِ كُلِّ الأعمال غير الشرعية، ولقبول هذه المسئولية اشترطنا على أولئك الذين منحونا السلطة المطلقة والطاعة الدائمة في كل أعمالهم التزامًا بنصوص كتاب الله وتعاليمه، والأخذ بسُنَّة نبيِّه في المساواة بين القويِّ والضعيف، الغنيِّ والفقير؛ لذلك ندعوكم للمشاركة في هذا العهد والوحدة بيننا وبينكم، وجزاؤكم على الله، إنَّ هدفي هو الإصلاح، إنَّ ثقتي في الله ومنه أرجو التوفيق».

جعل الأمير وَحْدَة الأُمَّة هي الأساس لنهضة دولته، واجتهد في تحقيق هذه الوحدة، رغم عراقيل الاستعمار والصعوبات التي تلقَّاها من بعض رؤساء القبائل، الذين لم يكن وعيهم السياسي في مستوى عظمة المهمَّة، وكانت طريقة الأمير في تحقيق الوحدة هي الاقتناع أولاً، والتذكير بمتطلَّبات الإيمان والجهاد، لقد كَلَّفَتْهُ حملات التوعية جهودًا كبيرة؛ لأن أكثر القبائل كانت قد اعتادت حياة الاستقلال، ولم تألف الخضوع لسلطة مركزية قوية، وبفضل إيمانه القوي انضمَّتْ إليه قبائل كثيرة دون أن يُطلق رصاصة واحدة لإخضاعها؛ بل كانت بلاغَتُه وحُجَّتُه كافيتين ليفهم الناس أهدافه في تحقيق الوحدة ومحاربة العدوِّ.

تأسيس الدولة

كان الأمير عبد القادر عندما لا ينفع أسلوب التذكير والإقناع، يُشهر سيفه ضدَّ مَنْ يخرج عن صفوف المسلمين، أو يُساعد العدوَّ لتفكيك المسلمين، وقد استصدر الأمير فتوى من العلماء تُساعده في محاربة أعداء الدِّينِ والوطن.

كان الأمير يرمي إلى هدفين: تكوين جيش مُنَظَّم، وتأسيس دولة مُوَحَّدة. وكان مساعدوه في هذه المهمة مخلصين، ولقد بذل الأمير وأعوانه جهدًا كبيرًا لاستتباب الأمن؛ فبفضل نظام الشرطة -الذي أنشأه- قُضِي على قُطَّاع الطرق، الذين كانوا يهجمون على المسافرين ويتعدَّوْنَ على الحرمات، فأصبح الناس يتنقَّلُون في أمان، وانعدمت السرقات، ولقد قام الأمير بإصلاحات اجتماعية كثيرة؛ فقد حارب الفساد الخلقي بشدَّة، ومنع الخمر والميسر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منعًا باتًّا، ومنع التدخين ليُبْعِدَ المجتمعَ عن التبذير، كما منع استعمال الذهب والفضة للرِّجَال؛ لأنَّه كان يكره حياة البذخ والميوعة.

قسَّم الأمير التراب الوطني إلى عدَّة وحدات: (مِلْيَانَة، معسكر، تِلِمْسَان، الأغواط، المدية، برج بو عريريج، برج حمزة (البويرة)، بِسْكِرَة، سَطِيف)، كما أنشأ مصانع للأسلحة، وبنى الحصون والقلاع؛ مثل: (تأقدمات، معسكر، سعيدة). وشَكَّل الأمير وزارته، التي كانت تتكَوَّن من خمس وزارات، وجعل مدينة معسكر مقرًّا لها، واختار أفضل الرجال ممَّنْ تُمَيِّزُهم الكفاءة العلمية والمهارة السياسية إلى جانب فضائلهم الخلقية، ونظَّم ميزانية الدولة وُفق مبدأ الزكاة لتغطية نفقات الجهاد، كما اختار رموز العلم الوطني، وكان شعار الدولة ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

الكفاح المسلح

وقبل أن يمرَّ عام على اتفاقية «دي ميشيل» نقض القائد الفرنسي الهدنة، وناصره في هذه المرَّة بعض القبائل في مواجهة الأمير عبد القادر، ونادى الأمير في قومه بالجهاد، ونَظَّم الجميع صفوف القتال، وكانت المعارك الأولى رسالة قوية لفرنسا؛ وخاصَّة موقعة «المقطع»؛ حيث نزلت بالقوات الفرنسية هزائم قضت على قوَّتها الضاربة تحت قيادة تريزيل الحاكم الفرنسي. ولكنَّ فرنسا أرادت الانتقام؛ فأرسلت قواتٍ جديدةً وقيادةً جديدةً، واستطاعت القوات الفرنسية دخول عاصمة الأمير -وهي مدينة معسكر- وأحرقتها، ولولا مطر غزير أرسله الله في هذا اليوم ما بقي فيها حجر على حجر، ولكنَّ الأمير استطاع تحقيق مجموعة من الانتصارات دفعت فرنسا إلى تغيير القيادة من جديد؛ ليأتي القائد الفرنسي الماكر الجنرال بيجو؛ ولكنَّ الأمير نجح في إحراز نصر على القائد الجديد في منطقة وادي تافنة، أجبر القائد الفرنسي على عقد معاهدة هدنة جديدة؛ عُرفت باسم معاهد تافنة في عام (١٢٤٣هـ= ١٨٣٧م).

وعاد الأمير إلى إصلاح حال بلاده وترميم ما أحدثته المعارك بالحصون والقلاع، وتنظيم شئون البلاد، وفي الوقت نفسه كان القائد الفرنسي بيجو يستعدُّ بجيوش جديدة، ويُكَرِّر الفرنسيون نقض المعاهدة في عام (١٢٥٥هـ= ١٨٣٩م)، وبدأ القائد الفرنسي في اللجوء إلى الوحشية في هجومه على المدنيين العُزَّل؛ فقتل النساء والأطفال والشيوخ، وحرق القرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمدن التي تُساند الأمير، واستطاع القائد الفرنسي أن يُحقِّق عدَّة انتصارات على الأمير عبد القادر، فاضطر الأمير إلى اللجوء إلى بلاد المغرب الأقصى، فهَدَّد الفرنسيون السلطان المغربي، فلم يستجب السلطان لتهديدهم في أوَّل الأمر، وساند الأمير في حركته من أجل استرداد وطنه، ولكنَّ الفرنسيين ضربوا طنجة وموغادور بالقنابل من البحر، وتحت وطأة الهجوم الفرنسي يضطر السلطان إلى توقيع معاهدة الحماية، التي سبقت احتلال المغرب الأقصى.

بداية النهاية

يبدأ الأمير سياسة جديد في حركته؛ إذ يُسارع في تجميع مُؤيِّديه من القبائل، ولمَّا أراد الاستعانة بشيوخ الطريقة التيجانيَّة في طرد الفرنسيين، رفضوا الانخراط في جيشه، تمشِّيًا مع رُوح صوفيَّتِهم التي تأبى التدخُّل في السياسة، فقام بعدَّة حملات على مركز التيجانيَّة في عين ماضي التي قاومت هذه الحملات.

وعندما غدر به الفرنسيُّون سنة (١٢٥١هـ= ١٨٣٥م) وخرقوا معاهدة دي ميشيل، حاولوا التفريق بينه وبين رجاله، ولكنهم باءوا بالفشل، فاستخدموا أسلوب الحرب التخريبيَّة بتدمير المحاصيل الزراعيَّة، وتدمير المدن الرئيسيَّة، وأفصوه بعد أربع سنوات من النضال، إلَّا أنه لم يستسلم، والتجأ مع إخوانه إلى مَرَّاكُش سنة (١٢٥٩هـ= ١٨٤٣م)، ثم عاد إلى الجزائر، وقاد حركة الأنصار.

هُزم الأمير عبد القادر بالخيانة شأن كل معارك المقاومة في العالم الإسلامي، فهاجمته العساكر المراكشيَّة من خلفه، فرأى من الصواب الجنوح للسلم، وشاور أعيان المجاهدين على ذلك، وأسَرَهُ المحتلُّون سنة (١٢٦٣هـ= ١٨٤٧م) وأرسلوه إلى فرنسا.

الأمير الأسير

ظلَّ الأمير عبد القادر في سجون فرنسا يعاني من الإهانة والتضييق حتى عام (١٢٦٨هـ= ١٨٥٢م)، ثم استدعاه نابليون الثالث بعد تولِّيه الحكم، وأكرم نزله، وأقام له المآدب الفاخرة ليُقَابِلَ وزراء ووجهاء فرنسا، ويتناول الأميرُ الحديث في كافَّة الشئون السياسية والعسكرية والعلمية؛ ممَّا أثار إعجاب الجميع بذكائه وخبرته، ودُعي الأمير لكي يتَّخذ من فرنسا وطنًا ثانيًا له، ولكنه رفض، ورحل إلى الشرق براتب من الحكومة الفرنسية. توقَّف في إسطنبول حيث السلطان عبد المجيد، والتقى فيها بسفراء الدول الأجنبية، ثم استقرَّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

به المقام في دمشق منذ عام (١٢٧٢هـ= ١٨٥٦م)، وفيها أخذ مكانة بين الوجهاء والعلماء، وقام بالتدريس في المسجد الأموي، كما قام بالتدريس قبل ذلك في المدرسة الأشرفية، وفي المدرسة الحقيقية.

وفي عام (١٢٧٦هـ= ١٨٦٠م) تتحرَّك شرارة الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة الشام، ويكون للأمير دور فعَّال في حماية أكثر من ١٥ ألفًا من المسيحيين؛ إذ استضافهم في منازله.

وفاته

وافاه الأجل بدمشق في منتصف ليلة (١٩ من رجب ١٣٠٠هـ= ٢٦ مايو ١٨٨٣م) عن عمر يُناهز ٧٦ عامًا، وقد دُفن بجوار الشيخ ابن عربي بالصالحية بدمشق لوصية تركها، وبعد استقلال الجزائر نُقِلَ جثمانه إلى الجزائر عام (١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م)، ودُفن في المقبرة العليا، وهي المقبرة التي لا يُدفن فيها إلَّا رؤساء البلاد.

❁ ❁ ❁

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوسف العظمة

الاسم الكامل	يوسف بك بن إبراهيم بن عبد الرحمن آل العظمة
اللقب	يوسف العظمة
تاريخ الميلاد	١٣٠١ هـ/ ١٨٨٤ م
مكان الميلاد	دمشق - سورية
تاريخ الوفاة	١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م
مكان الوفاة	ميسلون - سورية
الانتماء	الحكومة العربية في سورية
أعداؤه	الاحتلال الفرنسي

هو يوسف بك بن إبراهيم بن عبد الرحمن آل العظَمة، ينتمي إلى عائلة دمشقية عريقة، استُشهد في مواجهة الجيش الفرنسي الذي جاء لاحتلال سورية ولبنان؛ حيث كان وزير الحربية للحكومة العربية في سورية بقيادة الملك فيصل الأول، وهو أول وزير حربية عربي يخوض معركة ويستشهد فيها.

نشأته

وُلِدَ الشهيد يوسف العظمة سنة (١٣٠١هـ= ١٨٨٤م) في حيِّ الشاغور بدمشق لأسرة كبيرة وعريقة، ولَمَّا أصبح له من العمر ٦ سنوات تُوُفِّيَ والده، فكفله شقيقه عزيز.

درس العظمة في دمشق في المدرسة الرشدية العسكرية ابتداءً من عام ١٨٩٣م، ثم في المدرسة الإعدادية العسكرية منذ عام ١٨٩٧م، وفي عام ١٩٠٠م انتقل إلى المدرسة الحربية العسكرية في إسطنبول، وفي العام التالي دخل المدرسة الحربيَّة العالية (حربية شهانه)، وتخرَّج فيها برتبة ملازم ثانٍ سنة ١٩٠٣م، ورُقِّيَ إلى رتبة ملازم أول سنة ١٩٠٥م، ثم إلى رتبة نقيب سنة ١٩٠٧م؛ وذلك بعد أن قام بدورة أركان حرب محلِّيَّة في إسطنبول، وفي أواخر عام ١٩٠٩م أُوفِدَ في بعثة دراسية إلى ألمانيا؛ حيث درس هناك في مدرسة أركان الحرب العليا لمدَّة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ستين، وبعدها عاد إلى الأستانة، وعُيِّنَ ملحقًا عسكريًّا في المفوَّضِيَّة العثمانية العليا في القاهرة.

شارك العظمة في حرب البلقان عام (١٣٣٠هـ= ١٩١٢م)، وفي عام ١٩١٧م عُيِّن كمساعد لأنور باشا المفتش العامِّ للجيش العثماني، وعمل في أواخر الحرب العالمية الأولى كرئيس لأركان حرب الفيلق التركي الأول، الذي دافع عن الدردنيل حتى نهاية الحرب، وبعد الهدنة بقي العظمة في تركيا إلى أن سمع بتشكيل الحكومة العربية في دمشق، فاستقال من منصبه في الجيش التركي -رغم زواجه من سيدة تركية رُزِقَ منها بطفلته الوحيدة- والتحق بالجيش العربي.

وزير الحربية

بعد التحاقه بالجيش العربي الفيصلي، عُيِّن العظمة كضابط ارتباط في بيروت؛ حيث استخدم الشفرة لأوَّل مرَّة في مكتب الحكومة العربية هناك، وبعد إعلان المَلَكيَّة نُقل من بيروت، وعُيِّن رئيسًا لأركان حرب القوَّات العربية بعد ترقيته إلى رتبة عميد، ثمَّ عند تشكيل وزارة هاشم الأتاسي الدفاعية في (شعبان ١٣٣٨هـ= ٣ من مايو ١٩٢٠م) أُسندت إليه وزارة الحربية، فعكف على تنظيمها وتقوية الجيش العربي اليافع؛ بل وقام بإجراء عرض عسكري في دمشق لتقوية الروح المعنوية في الجيش ولدى السكان، ولكنَّ الأقدار لم تُمهله لإكمال تنظيم وتقوية هذا الجيش.

صفاته

كان يوسف العظمة رجلًا بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنًى، معتزًّا بنفسه وبعروبته اعتزازًا واضحًا، وكان يتحلَّى بكثير من الصفات الحسنة، التي شهد له بها الجميع حتَّى أعداؤه، كما كان عسكريًّا بطبعه، يؤمن أن للجيش مهمَّةً واحدةً هي أن يُقاتِلَ بصرف النظر عمَّا إذا كان سيربح أم سيخسر نتيجةً لهذا القتال، وكان يعلم أنَّه لا بُدَّ من معركة فاصلة بين السوريين وفرنسا، لَمْ يمنَعْهُ من خوضها علمه سلفًا أنه سيخسرها؛ لأنه آمن بأن دهسَ الجنودِ الفرنسيين لأجسادِ الشعب، واستيلاءهم على المدن المدمَّرة أفضل وأشرف ألف مرَّة من فتح أبواب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلاد للجيش الفرنسي يدخلها بكل سهولة، ويمشي في شوارعها مستعليًا.

الاحتلال يريد سورية

عندما أخذت الحكومة الفرنسية تسعى لتنفيذ الانتداب -الذي أقرَّه مؤتمر فيرساي حسب تقسيمات اتفاقيَّة سايكس- بيكو- بشكل عملية احتلال عسكرية كاملة، عقدت فرنسا هدنة مع تركيا، وأرسلت قوَّاتٍ عديدةً إلى الشرق، وفوَّضت الجنرال غورو مفوِّضها السامي بإرسال إنذار نهائي إلى الملك فيصل، وتلقَّى الملك فيصل إنذار الجنرال غورو الفرنسي -وكان قد نزل على الساحل السوري- بوجوبِ فضِّ الجيش العربي، وتسليم السلطة الفرنسية السكك الحديدية، وقبول تداول ورق النقد الفرنسي، وغير ذلك ممَّا فيه القضاء على استقلال البلاد وثروتها، فتردَّد الملك فيصل ووزارته بين الرضا والإباء، ثم اتَّفق أكثرهم على التسليم، فأبرقوا إلى الجنرال غورو، وأوعز فيصل بفضِّ الجيش، وعارض هذا بشدَّة وزير الحربية يوسف العظمة، واضطر إلى مجاراة رفاقه في الحكومة والرضوخ لهذا القبول، رغم رأيه القائل دومًا بأن «الجيش وُجِدَ ليُقاتِل حتى لو كانت نتيجة المعركة ضدَّه».

الاستعداد للمقاومة

بينما كان الجيش العربي المرابط على الحدود يتراجع منفضًّا بأمر الملك فيصل؛ كان الجيش الفرنسي يتقدَّم بأمر الجنرال غورو، ولما سُئل هذا عن الأمر، أجاب بأن برقية فيصل بالموافقة على بنود الإنذار وصلت إليه بعد أن كانت المدَّة المضروبة ٢٤ ساعة قد انتهت. وهكذا وجد الملك والحكومة أنه لم يَعُدْ هناك مجال لقبول هذه الشروط الجديدة، وتمَّ رفضها، وبدأت القوى الوطنية بحثِّ الناس على الخروج إلى ميسلون (تقع غرب دمشق) لصدِّ العدوِّ، وعاد فيصل يستنجد بالوطنيين السوريين لتأليف جيش أهلي يقوم مقام الجيش المنفضِّ في الدفاع عن البلاد، فتراكض جمع غفير إلى هناك مُسَلَّحِينَ بالبنادق والمسدسات القديمة والسيوف حتى بالمقاليع؛ لينضمُّوا إلى فلول الجيش، التي حاول العظمة جمعها قبل إتمام أمر تسريحها، الذي صدر سابقًا استجابة للإنذار، وتقدَّم يوسف العظمة يقود جمهور المتطوِّعين على غير نظام، وإلى جانبهم عدد يسير من الضباط والجنود، وانطلق بصحبة مرافقه إلى القصر الملكي؛ وذلك ليستأذن الملك فيصل بالذهاب إلى الجبهة.

ولم يَعُدْ هناك بُدٌّ من خوض معركة غير متكافئة بين الجيش الفرنسي المجهَّز بأحدث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسلحة العصر، والبالغ عدد أفراده ٩ آلاف جندي بقيادة الجنرال غوابيه، وهو حفيد أحد القادة الصليبيين، الذين جاءوا لغزو بلادنا في الحملة الصليبية الثانية عام (٥٤٢هـ= ١١٤٧م)، وبين ٨ آلاف من الجنود؛ نصفهم على الأقلِّ من المتطوِّعين والمسلَّحِين بأسلحة قديمة، دون دبابات أو طائرات أو تجهيزات ثقيلة، بقيادة يوسف العظمة.

معركة ميسلون

خرج العظمة ليتولَّى قيادة الجيش في ميسلون في يوم ٢٣ يوليو (١٩٢٠م= ١٣٣٨هـ)، واجتمع بالضباط الذين لم يُتِمُّوا تنفيذ أمر تسريحهم، وأبلغهم أن الحرب لا بُدَّ قائمة، وأوعز إلى جميع القوى لتكون على أهبة الاستعداد لصدِّ العدوِّ المهاجم، وألقى على قادته فكرة -شفهيًّا- خُطَّته الدفاعية-الهجومية، والتي تتلخَّص في تنظيم خطٍّ دفاعيٍّ في وسط الجبهة على جانبي الطريق (القلب)، مع فرز وحدات خفيفة إلى يمين ويسار الجبهة لحماية الجناحين (الجناح الأيمن والجناح الأيسر)، إضافة إلى وضع ألغام محلِّيَّة الصنع على الطرق المُؤَدِّيَة إلى المنطقة.

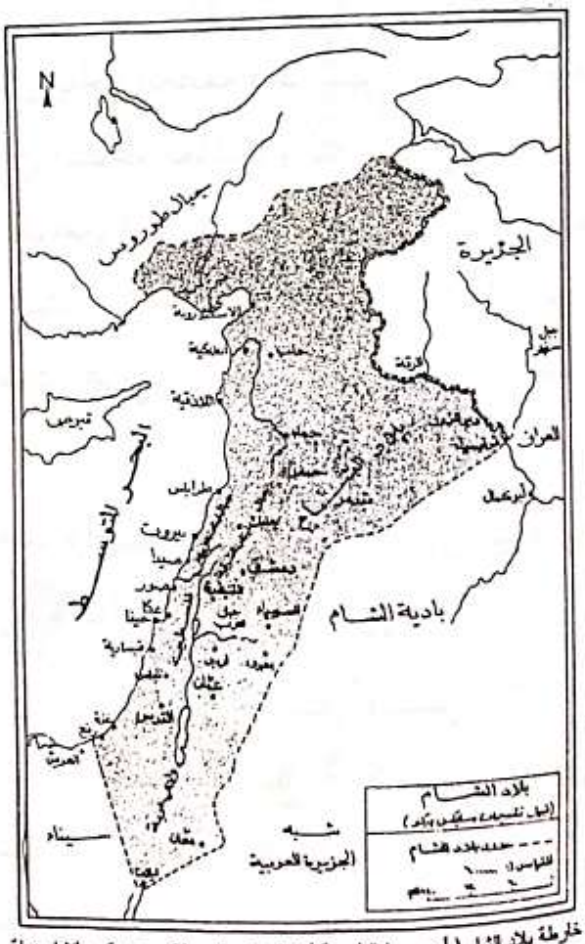

خارطة بلاد الشام (أو سوريا الطبيعية) قبيل تقسيمات سايكس - بيكو وإنشاء دولة إسرائيل.

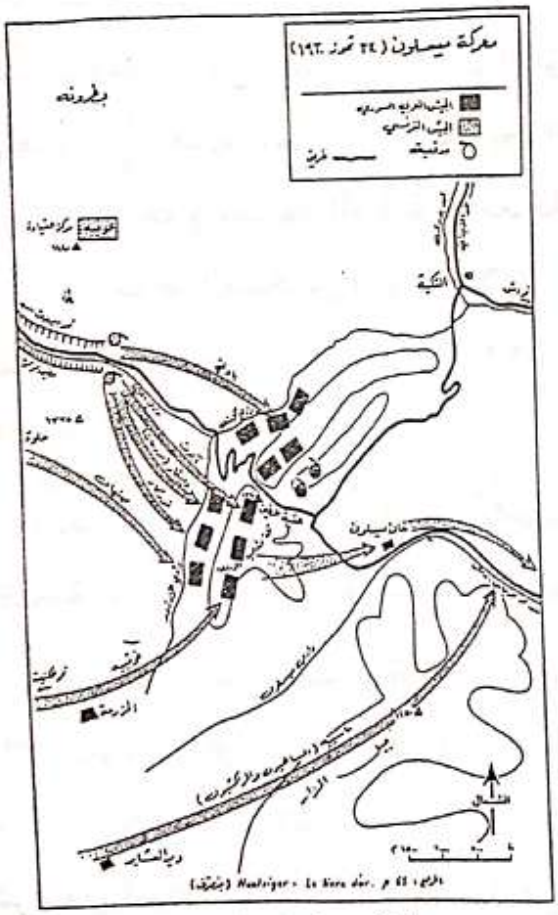

خارطة معركة ميسلون (1920)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتمركز العظمة في مركز قيادة الجبهة في أعلى مرتفع يُشرف على الجبهة بكاملها، وبعد أن أدَّى صلاة الصبح ليوم الرابع والعشرين بدأ في الاستعداد لخوض المعركة، التي استمرَّت حتى الظهر.

في الساعة التاسعة بدأت المعركة عندما بدأت المدفعية الفرنسية في التغلُّب على المدفعية العربية، وبدأت الدبابات الفرنسية بالتقدُّم باتجاه الخطِّ الأمامي العربي في دفاع القلب، وعوّل العظمة على الألغام المدفونة لتُوقِفَ تَقَدُّم هذه الدبابات، إلَّا أنَّ الألغام لم تَقُمْ بعملها ولم تُؤَثِّر، فأسرع إليها يبحث، فإذا بأسلاكها قد قُطعت!

وتمكَّن الفرنسيون من تحقيق نصر غير شريف؛ نظرًا لكثرة عددهم وقوَّة تسليحهم، وعلى الرغم من استبسال المجاهدين في الدفاع عن الكرامة العربية.

استشهاده

وخلال المعركة وبعد نفاذ الذخائر نزل العظمة من مكمنه على جانب الطريق حيث يُوجد مدفع عربي سريع الطلقات، وأمر الرقيب سدين المدفع بإطلاق النار على الدبابات المتقدِّمة، وما كان من أحد رماتها إلَّا أن أطلق ناره باتجاه العظمة فخرَّ شهيدًا، وأسلم رُوحه الطاهرة هو ورقيب المدفع، الذي كان بجواره في الساعة العاشرة والنصف من صباح ٢٤ يوليو ١٩٢٠م، واستشهد العظمة في معركة الكرامة، التي كانت نتيجتها متوقَّعة خاضها دفاعًا عن شرفه العسكري وشرف بلاده، فانتهت حياته وحياة الدولة التي تولَّى الدفاع عنها، وانتهت المعركة بعد استشهاد ٤٠٠ جندي عربي، مقابل ٤٢ قتيلًا من الفرنسيين و١٥٤ جريحًا.

ودُفن العظمة في المكان الذي استُشهد فيه، وأصبح قبره في ميسلون إلى اليوم رمز التضحية الوطنية الخالد، تُحْمَل إليه الأكاليل كلَّ عامٍ من مختلف الديار السورية.

ولمَّا استتبَّ الأمر للفرنسيين قَدِم الجنرال غورو إلى دمشق في أوائل شهر أغسطس (١٩٢٠م= ١٣٣٨هـ)، وكان أول ما فعله بعد وصوله أن توجَّه إلى ضريح البطل صلاح الدين الأيوبي، وخاطبه بتهكُّم وشماتة: «**يا صلاح الدين؛ أنت قلتَ لنا إبان الحروب الصليبية: إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه. وها نحن عدنا، فانهض لترانا في سورية!**».

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

telegram:mbooks90

الفصل الثالث

قادة المقاومة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

قـــادة المقاومـــة

محمد كُريم

الاسم الكامل	محمد بن عبد الرزاق محمد كريم
اللقب	حاكم الإسكندرية
تاريخ الميلاد	قبل منتصف القرن الثامن عشر
مكان الميلاد	الإسكندرية – مصر
تاريخ الوفاة	١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م
مكان الوفاة	القاهرة – مصر
الانتماء	الخلافة العثمانية
أعداؤه	الاحتلال الفرنسي

هو محمد بن عبد الرزاق محمد كريم، الذي استطاع أن يمتلك قلوب الناس، وقد كان له الأثر الكبير في إثارة الناس، وقيادة المقاومة الشعبية ضدَّ الحملة الفرنسية في مصر.

نشأته

وُلِدَ السيد محمد كريم بحيِّ الأنفوشي بالإسكندرية قبل منتصف القرن الثامن عشر، نشأ محمد كريم يتيمًا فكفله عمُّه، عَمِل في بداية أمره قبَّانيًّا يزن البضائع في حانوت بالثغر، كان عمُّه قد افتتحه له، وكانت لديه خفَّة في الحركة وتودُّد في المعاشرة، ولم يتلقَ محمد كريم تعليمًا كبقيَّة أقرانه بسبب وفاة والده، فتردَّد على المساجد ليتعلَّم فيها، ثم بدأ يُحَدِّث الناس مستغلًّا الندوات الشعبية، وكانت هذه الندوات طريقًا ليعرفه أهل الإسكندرية عن قرب، ويعرفوا وطنيته وشجاعته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاكم الإسكندرية

ويَسَّرت له هذه الندوات امتلاك شعبية كبيرة بين الناس، كانت سببًا في توليته حاكمًا على الإسكندرية، وقد كانت الإسكندرية بوابة مصر البحرية، وتودَّد محمد كريم إلى الناس حتى أحبُّوه -مسلمهم وغير مسلمهم- لأخلاقه التي تربَّى ونشأ عليها، وقد قام محمد كريم بأمر البلاد والعباد على أحسن وجه.

جهاده ضد الفرنسيين

في يوم ١٩ مايو ١٧٩٨م أبحر الأسطول الفرنسي بقيادة نابليون قادمًا إلى مصر لينهب ثرواتها، وكان على محمد كريم أن يقف ليصدَّ هذه الهجمات، ويرُدَّها على أعقابها، ولا يُمَكِّنها من دخول بلده، لكن كانت الحملة الفرنسية مزوَّدة بأحدث الأسلحة والمدافع، بينما لم تكن مثل هذه الأسلحة بأيدي المصريين، ولَمَّا بلغ أمر الحملة الفرنسية الإنجليز تحرَّك الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون مُتَّجِهًا إلى الإسكندرية، طالبًا من محمد كريم انتظار الأسطول الفرنسي خارج الميناء، وأن يسمح لهم أن يشتروا من المدينة ما يحتاجونه من زادٍ، لكنَّ محمد كريم رفض طلبهم قائلًا: «ليس للفرنسيين أو سواهم شيء في هذا البلد، فاذهبوا أنتم عنَّا».

ووقف أسطول نلسون منتظرًا خارج الثغر أربعًا وعشرين ساعة، ثم أقلع متجهًا إلى شواطئ الأناضول بحثًا عن غريمه الفرنسي، ولم يمضِ على رحيله غير أسبوع حتى ظهر الأسطول الفرنسي أمام شواطئ الإسكندرية، وعندئذٍ بعث السيد محمد كريم إلى القاهرة مستنجدًا بالمماليك وقوَّادهم مراد بك وإبراهيم بك، واستقرَّ الرأي على أن يسير مراد بك مع جنوده إلى الإسكندرية لصدِّ الغزاة، ويبقى إبراهيم بك في القاهرة للدفاع عنها.

وصل الأسطول الفرنسي إلى شواطئ الإسكندرية عند العجمي في أول يوليو ١٧٩٨م= المحرم ١٢١٣هـ، وبادر إلى إنزال قوَّاته ليلًا إلى البرِّ، ثم سَيَّرَ قسمًا من قوَّاته إلى الإسكندرية يوم ٢ من يوليو، ولم يكن عدد سكان المدينة يومها يزيد على ثمانية آلاف نسمة، ولم يكن بها من الجنود ما يكفي لصدِّ الجيش الفرنسي الكبير المزوَّد بالمعدات الحديثة.

وكان أن استعدَّ السيد محمد كريم للدفاع عن الإسكندرية بكُلِّ ما لديه من ذخيرة وعتاد، وظلَّ محمد كريم يقود المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين؛ حتى بعد أن اقتحم الفرنسيون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسوار المدينة، ثم اعتصم محمد كريم بقلعة قايتباي ومعه فريق من الجنود، حتى فرغت ذخيرته، فكفَّ عن القتال، وتمَّ أسره هو ومَنْ معه، ودخل نابليون المدينة وأعلن بها الأمان.

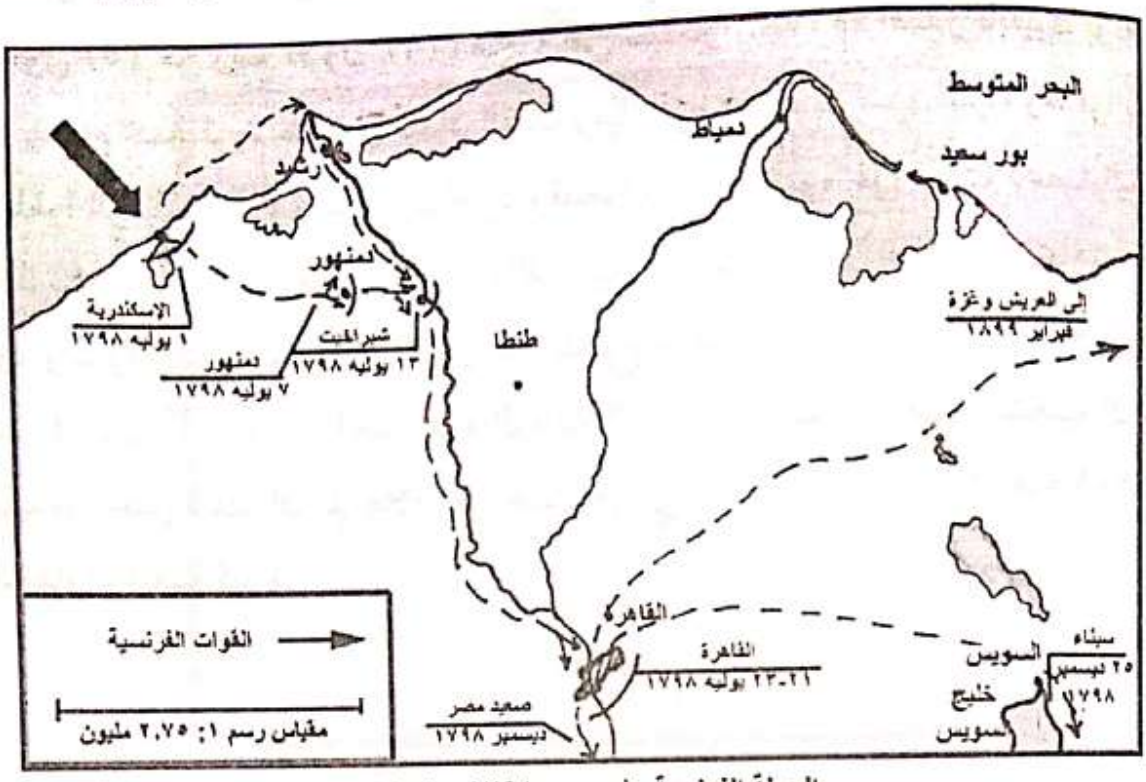

الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١

أُعجب نابليون بشجاعة محمد كريم فأطلق سراحه من الأسر، وتظاهر بإكرامه، وأبقاه حاكمًا للإسكندرية، ولَمَّا تمَّ لنابليون الاستيلاء على الإسكندرية رأى أن يُغادرها إلى القاهرة، وعيَّن كليبر حاكمًا عسكريًّا عليها، وزحف إلى القاهرة في ٧ من يوليو عن طريق دمنهور والرحمانية.

ظنَّ نابليون أن محمد كريم سينحاز إلى جانبه بعد أن فكَّ أسره، لكن خاب ظنُّ نابليون، فلم يُمهله محمد كريم إلَّا وأعلن المقاومة الشعبية في أنحاء الإسكندرية؛ مما أرَّق الفرنسيين الذين فشلوا في استمالته معهم، فاعتقله كليبر حاكم الإسكندرية، وأرسله إلى القاهرة ليُحكم عليه بالإعدام.

الإعدام

وجَّهت المحكمة الفرنسية -التي شكلها نابليون للحكم على المناضلين- إلى محمد كريم تهمة التحريض على المقاومة وخيانة الجمهورية الفرنسية، وأثناء المحاكمة أرسل نابليون رسالة إلى المحقِّق؛ يأمره فيها أن يعرض على محمد كريم أن يدفع فدية قدرها ثلاثون ألف ريال، يدفعها إلى خزينة الجيش ليفتدي نفسه، ورفض محمد كريم أن يدفع الفدية، ولَمَّا ألحَّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه البعض في أن يفدي نفسه بهذه الغرامة رفض، وقال: «**إذا كان مقدورًا عليَّ أن أموت فلن يعصمني من الموت أن أدفع الفدية، وإذا كان مقدورًا عليَّ أن أعيش فعلام أدفعها؟**».

وفي (٢٥ من ربيع الأول ١٢١٣هـ= ٦ من سبتمبر ١٧٩٨م) أصدر نابليون بونابرت أمرًا بإعدام محمد كريم ظُهْرًا في ميدان القلعة رميًا بالرصاص، فأركبوه حمارًا، وطافوا به إلى أن بلغوا الرميلة فقتلوه رميًا بالرصاص، وقطعوا رأسه ورفعوه على نَبُّوت (عصا كبيرة)، وأخذ منادٍ يصيح: «هذا جزاءُ مَنْ يُخالف الفرنسيين». وبذلك أُسدل الستار على مجاهد وطني نادر، واستولى أتباع محمد كريم على رأسه المقطوع ودفنوه مع جثته، وهكذا أصبح الزعيم محمد كريم رمزًا للفداء، وأحد زعماء الوطنية البارزين في مصر، وأقسم الشعب أن يثأر لشهيده، وتحقَّق ذلك بأن تمَّ جلاء آخر جندي فرنسي عن مصر سنة (١٢١٦هـ= ١٨٠١م) بعد مقاومة شعبية كبيرة.

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمر المختار

الاسم الكامل	عمر المختار محمد فرحات
اللقب	أسد الصحراء - شيخ الشهداء
تاريخ الميلاد	١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١ م
مكان الميلاد	قرية جنزور الشرقية - ليبيا
تاريخ الوفاة	١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م
مكان الوفاة	مركز سلوق - ليبيا
الانتماء	ليبيا
أعداؤه	الاحتلال الإيطالي

هو عمر المختار الملقَّب بشيخ الشهداء أو أسد الصحراء، قائد أدوار (معسكرات) السنوسية بالجبل الأخضر، مقاوم ليبي حارب قوَّات الغزو الإيطالية منذ دخولها أرض ليبيا حتى عام (١٣٥٠هـ= ١٩٣١م)، حارب الإيطاليين وهو يبلغ من العمر ٥٣ عامًا لأكثر من عشرين عامًا في أكثر من ألف معركة، واستشهد بإعدامه شنقًا عن عمر يُناهز ٧٣ عامًا، وقد صرَّح القائد الإيطالي «أن المعارك التي حَصَلَتْ بين جيوشه وبين السيد عمر المختار ٢٦٣ معركة، في مدَّة لا تتجاوز ٢٠ شهرًا فقط».

نشأته

وُلِدَ عمر المختار في (١٣ من صفر ١٢٧٨هـ= ٢٠ من أغسطس ١٨٦١م) في قرية جنزور الشرقية منطقة بئر الأشهب شرق طبرق في بادية البطنان في الجهات الشرقية من برقة التي تقع شرقي ليبيا.

تربَّى يتيمًا؛ لذلك كان قد كفله حسين الغرياني، عمُّ الشارف الغرياني حيث وافت المنية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والده المختار وهو في طريقه إلى مكة المكرمة.

تلقَّى تعليمه الأوَّل في زاوية جنزور على يد إمام الزاوية الشيخ العلامة عبد القادر بوديه، أحد مشايخ الحركة السنوسية، ثم سافر إلى الجغبوب ليمكث فيها ثمانية أعوام للدراسة والتحصيل من كبار علماء ومشايخ السنوسية؛ في مُقدَّمتهم الإمام السيد المهدي السنوسي قطب الحركة السنوسية، فدرس علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ولكنَّه لم يُكمل تعليمه كما تمنَّى.

ظهرت عليه علاماتُ النجابة ورزانة العقل، فاستحوذ على اهتمام ورعاية أستاذه السيد المهدي السنوسي؛ مما زاده رفعة وسموًّا، فتناولته الألسن بالثناء بين العلماء ومشايخ القبائل وأعيان المدن؛ حتى قال فيه السيد المهدي واصفًا إيَّاه: «لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم». ولثقة السنوسيين به وَلَّوْهُ شيخًا على زاوية القصور بالجبل الأخضر.

telegram:mbooks90

اختاره السيد المهدي السنوسي رفيقًا له إلى تشاد عند انتقال قيادة الزاوية السنوسية إليها، فسافر سنة (١٣١٧هـ= ١٨٩٩م)، وقد شارك عمر المختار فترة بقائه بتشاد في الجهاد بين صفوف المجاهدين في الحرب الليبية الفرنسية في المناطق الجنوبية بتشاد وحول واداي، وقد استقرَّ المختار فترة من الزمن في قرو مناضلًا ومقاتلًا، ثم عُين شيخًا لزاوية عين كلكة ليقضي فترة من حياته مُعلِّمًا ومُبشِّرًا بالإسلام في تلك الأصقاع النائية، وبقي هناك إلى أن عاد إلى برقة سنة (١٣٢١هـ= ١٩٠٣م)، وأُسندت إليه مشيخة زاوية القصور للمرَّة الثانية.

مُعلم يتحوَّل إلى مجاهد

عاش عمر المختار حرب التحرير والجهاد منذ بدايتها يومًا بيوم، فعندما أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا في (٦ من شوال ١٣٢٩هـ= ٢٩ من سبتمبر ١٩١١م)، وبدأت البارجات الحربية بصبِّ قذائفها على مدن الساحل الليبي؛ (درنة وطرابلس، ثم طبرق وبنغازي والخمس)، كان عمر المختار في تلك الأثناء مقيمًا في جالو بعد عودته من الكفرة؛ حيث قابل السيد أحمد الشريف، وعندما علم بالغزو الإيطالي -فيما عُرف بالحرب العثمانية الإيطالية- سارع إلى مراكز تجمُّع المجاهدين؛ حيث ساهم في تأسيس وتنظيم حركة الجهاد والمقاومة إلى أن وصل السيد أحمد الشريف قادمًا من الكفرة، وقد أعقبت انسحابَ الأتراك من ليبيا سنة ١٩١٢م وتوقيعهم معاهدة لوزان -التي بموجبها حصلت إيطاليا على ليبيا- أعظمُ المعارك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تاريخ الجهاد الليبي؛ منها على سبيل المثال معركة يوم الجمعة عند درنة في (٩ من جمادى الآخرة ١٣٣١هـ= ١٦ من مايو ١٩١٣م)، حيث قُتل فيها للإيطاليين عشرة ضباط وستون جنديًّا وأربعمائة فرد بين جريح ومفقود، وذلك إلى جانب انسحاب الإيطاليين بلا نظام تاركين أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم. وغيرها عشرات المعارك الأخرى التي تكبَّدت فيها قوَّات الاحتلال الإيطالي خسائر فادحة.

وحينما عُيِّنَ أميليو حاكمًا عسكريًّا لبرقة، رأى أن يعمل على ثلاثة محاور:

الأول: قطع الإمدادات القادمة من مصر، والتصدِّي للمجاهدين في منطقة مرمريكا.

الثاني: قتال المجاهدين في العرقوب وسلنطة والمخيلي.

الثالث: قتال المجاهدين في مسوس وأجدابيا.

لكنَّ القائد الإيطالي وجد نار المجاهدين في انتظاره في معارك أم شخنب وشليظيمة والزويتينة في فبراير ١٩١٤م، لتتواصل حركة الجهاد بعد ذلك؛ حتى وصلت إلى مرحلة جديدة بقدوم الحرب العالمية الأولى.

الفاشيست والمجاهدون

بعد الانقلاب الفاشي في إيطاليا في (صفر ١٣٤١هـ= أكتوبر ١٩٢٢م)، وبعد الانتصار الذي تحقَّق في تلك الحرب للجانب الذي انضمَّت إليه إيطاليا، تغيَّرت الأوضاع داخل ليبيا، واشتدَّت الضغوط على السيد محمد إدريس السنوسي، واضطر إلى ترك البلاد عاهدًا بالأعمال العسكرية والسياسية إلى عمر المختار؛ وذلك في الوقت الذي قام أخوه الرضا مقامه في الإشراف على الشئون الدينية.

وبعد أن تأكَّد للمختار النوايا الإيطالية في العدوان قصد مصر عام (١٣٤١هـ= ١٩٢٣م) للتشاور مع السيد إدريس فيما يتعلَّق بأمر البلاد، وبعد عودته نَظَّم أدوار (معسكرات) المجاهدين، فجعل حسين الجويفي على دور البراعصة، ويوسف بورحيل المسماري على دور العبيدات، والفضيل بوعمر على دور الحاسة، والمجاهد المخضرم صالح الطلحي على قبيلة الوطن الشرقي الأصليين، وتولَّى هو القيادة العامة.

وبعد الغزو الإيطالي لمدينة أجدابيا مقرِّ القيادة الليبية، أصبحت كلُّ المواثيق والمعاهدات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَلْغِيَّةً، وانسحب المجاهدون من المدينة، وأخذت إيطاليا تزحف بجيوشها من مناطق عدَّة نحو الجبل الأخضر، وفي تلك الأثناء تسابقت جموع المجاهدين إلى تشكيل الأدوار (المعسكرات)، والانضواء تحت قيادة عمر المختار، كما بادر الأهالي إلى إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح، وعندما ضاق الإيطاليون ذرعًا من الهزيمة على يد المجاهدين، أرادوا أن يقطعوا طريق الإمداد؛ فسَعَوْا إلى احتلال الجغبوب، ووجَّهُوا إليها حملة كبيرة في (رجب ١٣٤٤هـ= ٨ من فبراير ١٩٢٦م)، وقد شكَّل سقوطها أعباءً ومتاعب جديدة للمجاهدين وعلى رأسهم عمر المختار، ولكنَّ الرجل حمل العبء كاملًا بعزم العظماء وتصميم الأبطال.

لاحظ الإيطاليون أن الموقف يُملي عليهم الاستيلاء على منطقة فَزَّان لقطع الإمدادات على المجاهدين، فخرجت حملة في يناير (١٩٢٨م = ١٣٤٦هـ)، ولم تُحَقِّق غرضها في احتلال فَزَّان بعد أن دفعت الثمن غاليًا، ورغم حصار المجاهدين وانقطاعهم عن مراكز تموينهم، فإن الأحداث لم تَنَلْ منهم وتُثَبِّطْ من عزمهم، فاشتبك معهم في معركة شديدة في (ذي القعدة ١٣٤٦هـ= ٢٢ من أبريل ١٩٢٨م)؛ استمرَّت يومين كاملين، انتصر فيها المجاهدون وغنموا عتادًا كثيرًا.

مفاوضات السلام في سيدي أرحومة

توالت الانتصارات، وهذا الذي دفع إيطاليا إلى إعادة النظر في خططها، وإجراء تغييرات واسعة، فأمر موسوليني بتغيير القيادة العسكرية؛ حيث عيّن بادوليو حاكمًا عسكريًّا على ليبيا في (رجب ١٣٤٧هـ= يناير ١٩٢٩م)، ويُعَدُّ هذا التغيير بداية المرحلة الحاسمة بين الإيطاليين والمجاهدين.

تظاهر الحاكم الإيطالي الجديد لليبيا في رغبته للسلام؛ وذلك لإيجاد الوقت اللازم لتنفيذ خططه وتغيير أسلوب القتال لدى جنوده، وطلب مفاوضة عمر المختار، تلك المفاوضات التي بدأت في ٢٠ أبريل ١٩٢٩م.

استجاب الشيخ لنداء السلام، وحاول التفاهم معهم على صيغة ليخرجوا من دوامة الدمار، فذهب كبيرهم إلى لقاء عمر المختار ورفاقه القادة في (١١ من المحرم ١٣٤٨هـ= ١٩ من يونيو ١٩٢٩م) في سيدي أرحومة، ورَأَسَ الوفدَ الإيطالي بادوليو نفسه، الرجل الثاني بعد بنيتو موسوليني، ونائبه سيشليانو، ولكن لم يكن الغرض هو التفاوض، ولكن المماطلة وشراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوقت؛ لتلتقط قوَّاتهم أنفاسها، وقصد الغزاةُ الغدر به والدسَّ عليه، وتأليبَ أنصاره والأهالي، وفتنة الملتفِّين حوله.

عندما وجد المختار أن تلك المفاوضات تطلب منه إمَّا مغادرة البلاد إلى الحجاز أو مصر، أو البقاء في برقة وإنهاء الجهاد والاستسلام مقابل الأموال والإغراءات، رفض كل تلك العروض، وكبطل شريف ومجاهد عظيم عمد إلى الاختيار الثالث؛ وهو مواصلة الجهاد حتى النصر أو الشهادة.

تبيَّن للمختار غدر الإيطاليين وخداعهم، ففي (١٧ من جمادى الأولى ١٣٤٨هـ= ٢٠ من أكتوبر ١٩٢٩م) وجَّه نداءً إلى أبناء وطنه طالبهم فيه بالحرص واليقظة أمام ألاعيب الغزاة، وصحَّت توقُّعات عمر المختار؛ ففي (شعبان ١٣٤٨هـ= ١٦ من يناير ١٩٣٠م) ألقت الطائرات بقذائفها على المجاهدين.

غرتسياني

دفعت مواقف المختار ومنجزاته إيطاليا إلى دراسة الموقف من جديد، وتوصَّلت إلى تعيين غرتسياني؛ وهو أكثر جنرالات الجيش وحشية ودموية؛ ليقوم بتنفيذ خطَّة إفناء وإبادة لم يسبق لها مثيلٌ في التاريخ في وحشيتها وفظاعتها وعنفها، وقد تمثَّلت في عدَّة إجراءات ذكرها غرتسياني في كتابه «برقة المهدأة»:

١- قفل الحدود الليبية المصرية بالأسلاك الشائكة لمنع وصول المؤن والذخائر.

٢- إنشاء المحكمة الطارئة في أبريل ١٩٣٠م.

٣- فتح أبواب السجون في كل مدينة وقرية، ونصب المشانق في كل جهة.

٤- تخصيص مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة والمقرون وسلوق من أواسط برقة الحمراء لتكون مواقع الاعتقال والنفي والتشريد.

٥- العمل على حصار المجاهدين في الجبل الأخضر واحتلال الكفرة.

انتهت عمليات الإيطاليين في فَزَّان باحتلال مرزق وغات في شهري يناير وفبراير ١٩٣٠م، ثم عمدوا إلى الاشتباك مع المجاهدين في معارك فاصلة، وفي ٢٦ من أغسطس ١٩٣٠م ألقت الطائرات الإيطالية حوالي نصف طنٍّ من القنابل على الجوف والتاج، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوفمبر اتَّفق بادوليو وغرتسياني على خطِّ الحملة من أجدابيا إلى جالو إلى بئر زيغن إلى الجوف، وفي ٢٨ من يناير ١٩٣١م سقطت الكفرة في أيدي الغزاة، وكان لسقوط الكفرة آثار كبيرة على حركة الجهاد والمقاومة.

المختار في الأسر

في معركة السانية في شهر أكتوبر عام ١٩٣٠م سقطت من الشيخ عمر المختار نظارته، وعندما وجدها أحد جنود الإيطاليين أوصلها إلى قيادته، فرآها غرتسياني فقال: «الآن أصبحت لدينا النظارة، وسيتبعها الرأس يومًا ما».

وفي ٢٨ من ربيع الآخر ١٣٥٠ هـ= ١١ سبتمبر ١٩٣١م، وبينما كان الشيخ عمر المختار يستطلع منطقة سلنطة في الجبل الأخضر في كوكبة من فرسانه، عرفت الحاميات الإيطالية بمكانه فأرسلت قوَّاتٍ لحصاره، ولحقها تعزيزات، واشتبك الفريقان في وادي بوطاقة ورجحت الكِفَّة للعدوِّ فأمر عمر المختار بفكِّ الطوق والتفرُّق، ولكن قُتلت فرسه تحته، وسقطت على يده ممَّا شلَّ حركته نهائيًّا، فلم يتمكَّن من تخليص نفسه، ولم يستطع تناول بندقيته ليُدَافع عن نفسه، فسرعان ما حاصره العدوُّ من كلِّ الجهات وتعرَّفُوا على شخصيَّته، فنُقل على الفور إلى مرسى سوسة في الجبل الأخضر؛ ومن ثَمَّ وُضع على طَرَّادٍ (نوع من السفن الحربية السريعة) نَقَلَهُ رأسًا إلى بنغازي، حيث أُودع السجن الكبير بمنطقة سيدي أخريبيش، ولم يستطع الطليان نقل الشيخ برًّا لخوفهم من تعرُّض المجاهدين لهم في محاولة لتخليص قائدهم.

كان لاعتقاله في صفوف العدوِّ صدًى كبيرٌ؛ حتى إن غرتسياني لم يُصَدِّق ذلك في بادئ الأمر، وكان غرتسياني في روما حينها كئيبًا حزينًا منهار الأعصاب في طريقه إلى باريس للاستجمام والراحة؛ وذلك هربًا من الساحة بعد فشله في القضاء على المجاهدين في الجبل الأخضر، حيث بدأت الأقلام اللاذعة في إيطاليا تنال منه، والانتقادات المُرَّة تأتيه من رفاقه مشكِّكَة في مقدرته على إدارة الصراع، وإذا بالقدر يلعب دوره؛ ويتلقَّى برقية مستعجلة من بنغازي؛ مفادها أن عدوَّه اللدود عمر المختار وراء القضبان. فأُصيب غرتسياني بحالة هستيرية كاد لا يُصَدِّق الخبر، فتارة يجلس على مقعده وتارة يقوم، وأخرى يخرج متمشيًا على قدميه محدِّثًا نفسه بصوتٍ عالٍ، ويُشير بيديه ويقول: «**صحيح قبضوا على عمر المختار؟!** ويردُّ على نفسه: **لا، لا أعتقد**»، ولم يسترح باله فقرَّر إلغاء إجازته واستقلَّ طائرة خاصَّة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهبط في بنغازي في اليوم نفسه، وطلب إحضار عمر المختار إلى مكتبه لكي يراه بأمِّ عينيه.

الأسد أسيرًا

وصل غرتسياني إلى بنغازي يوم ١٤ من سبتمبر، وأعلن انعقاد المحكمة الخاصة يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، وفي صبيحة ذلك اليوم وقبل المحاكمة رغب غرتسياني في الحديث مع عمر المختار، يذكر غرتسياني في كتابه (برقة المهدأة): «وعندما حضر أمام مكتبي تهيَّأ لي أن أرى فيه شخصيَّة آلاف المرابطين، الذين التقيتُ بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية؛ يداه مُكَبَّلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أُصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطًا؛ لأنه كان مغطِّيًا رأسه (بالجَرِد[1])، ويجرُّ نفسه بصعوبة نظرًا لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يُخَيَّل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال، له منظره وهيبته؛ رغم أنه يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقف أمام مكتبي، نسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح».

غرتسياني: لماذا حاربت بشدَّة متواصلة الحكومة الفاشستية؟

أجاب الشيخ: من أجل ديني ووطني.

(١) الجرد: اللباس التقليدي الشعبي الليبي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غرتسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

فأجاب الشيخ: لا شيء إلَّا طردكم.. لأنكم مغتصبون، أمَّا الحرب فهي فرض علينا، وما النصر إلَّا من عند الله.

غرتسياني: لما لك من نفوذٍ وجاهٍ، في كم يوم يُمكنك أن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويُسلموا أسلحتهم؟

فأجاب الشيخ: لا يمكنني أن أعمل أيَّ شيء، وبدون جدوى نحن الثوَّار سبق أن أقسمنا أن نموت كلُّنا الواحد بعد الآخر، ولا نُسَلِّم أو نُلقي السلاح.

ويستطرد غرتسياني حديثه: «وعندما وقف ليتهيَّأ للانصراف كان جبينه وضَّاءً؛ كأنَّ هالة من نور تُحيط به، فارتعش قلبي من جلالة الموقف، أنا الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية، ولُقِّبْتُ بأسد الصحراء، ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان، ولم أستطع أن أنطق بحرفٍ واحدٍ، فأنهيتُ المقابلة، وأمرتُ بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء، وعند وُقوفه حاول أن يمدَّ يده لمصافحتي؛ ولكنه لم يتمكَّن؛ لأن يديه كانت مُكَبَّلة بالحديد».

المحاكمة

عُقدت للشيخ الشهيد محكمة هزلية صورية في مركز إدارة الحزب الفاشستي ببنغازي، مساء يوم الثلاثاء عند الساعة الخامسة والربع في ١٥ من سبتمبر ١٩٣١م، وبعد ساعة تحديدًا صدر منطوق الحكم بالإعدام شنقًا حتى المَوت.

عندما تُرجم له الحُكْم، قال الشيخ: «إن الحكم إلَّا لله.. لا حكمكم المزيف.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

الإعدام

في صباح اليوم التالى للمحاكمة الأربعاء (١٦ سبتمبر ١٩٣١م= غُرَّة جمادى الأولى ١٣٥٠ هـ)، اتخذت جميع التدابير اللازمة بمركز سلوق لتنفيذ الحُكم بإحضار جميع أقسام الجيش والميليشيا والطيران، وأُحضر ٢٠ ألفًا من الأهالي وجميع المعتقلين السياسيين خصيصًا من أماكن مختلفة؛ وذلك لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم، وأُحضر الشيخ عمر المختار مُكَبَّل الأيدي، وعلى وجهه ابتسامة الرضا بالقضاء والقدر، وبدأت الطائرات تُحلِّق في السماء فوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعتقلين بأزيزٍ مجلجلٍ؛ حتى لا يتمكَّن عمر المختار من مخاطبتهم.

وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا سُلِّمَ الشيخ إلى الجلاد، وكان وجهه يتهلَّل استبشارًا بالشهادة، وكله ثبات وهدوء، فوُضع حبل المشنقة في عنقه، وقيل عن بعض الناس الذين كانوا على مقربة منه: إنه كان يُؤَذِّن في صوت خافت أذان الصلاة. والبعض قال: إنه تمتم بالآية الكريمة: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. ليجعلها مسك ختام حياته البطولية، وبعد دقائق صَعِدَتْ رُوحه الطاهرة النقيَّة إلى ربِّها تشكو إليه عنت الظالمين وجور المستعمرين.

سبق إعدام الشيخ أوامر شديدة الحزم بتعذيب وضرب كلِّ مَنْ يُبدي الحزن أو يُظهر البكاء عند إعدام عمر المختار، فقد ضُرب جربوع عبد الجليل ضربًا مبرحًا بسبب بكائه عند إعدام عمر المختار، ولكن عَلَتْ أصوات الاحتجاج، ولم تكبحها سياط الإيطاليين، فصرخت فاطمة داروها العبارية وندبت فجيعة الوطن عندما أُعدم الشيخ، ووصفها الطليان «بالمرأة التي كسرت جدار الصمت».

أمَّا المفارقة التاريخية التي أذهلت المراقبين فقد حدثت في سبتمبر ٢٠٠٨م، عندما انحنى رئيس الوزراء الإيطالي برلسكوني -وفي حضور الزعيم الليبي معمر القذافي- أمام ابن عمر المختار معتذرًا عن المرحلة الاستعمارية وما سبَّبته إيطاليا من مآسٍ للشعب الليبي، وهي الصورة التي قُورنت بصورة تاريخية أخرى يظهر فيها عمر المختار مكبَّلًا بالأغلال قُبيل إعدامه.

آخر كلمات الشهيد

كانت آخر كلمات عمر المختار قبل إعدامه: «نحن لا نستسلم.. ننتصر أو نموت.. وهذه ليست النهاية.. بل سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه.. أمَّا أنا.. فإن عمري سيكون أطول من عمر شانقي».

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عز الدين القسام

الاسم الكامل	الشيخ عز الدين عبد القادر بن محمود القسام
تاريخ الميلاد	١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م
مكان الميلاد	بلدة جبلة – سورية
تاريخ الوفاة	١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م
مكان الوفاة	قرية الشيخ زايد – فلسطين
الانتماء	فلسطين العربية
أعداؤه	الاحتلال البريطاني

هو الشيخ المجاهد الشهيد عزُّ الدين القسام، إذا ذكرته تذكَّرت فلسطين، وإذا ذكرت فلسطين ذكرت الأبطال؛ ومنهم عزّ الدين القسام، الذي سطر التاريخ مجدهم، وكتبت الدواوين ترثيهم، وخاضوا معارك تُهزم بها جيوش في مواجهة قتلة الأنبياء اليهود، لقد كان القسام علمًا من أعلام الجهاد يتردَّد اسمه في بلاد فلسطين كلها.

نشأته

وُلِدَ الشيخ عزُّ الدين القسام في (٩ من المحرم ١٣٠٠هـ= ٢٠ من نوفمبر ١٨٨٢م) في بلدة جبلة في محافظة اللاذقية في سورية، كان منذ صغره يميل إلى العزلة والتفكير، وتلقَّى دراسته الابتدائية في كتاتيب بلدته جبلة، ورحل في شبابه إلى مصر؛ حيث درس في الأزهر، وكان من عداد تلاميذ الشيخ محمد عبده والعالم محمد أحمد الطوخي، كما تأثَّر بقادة الحركة النشطة التي كانت تُقاوم المحتلَّ البريطاني بمصر، وفي مصر كان يصنع الحلويات ويبيعها ليعيل نفسه، وكان صديقه عزُّ الدين التنوخي يستحي ويختبئ، فكان يقول له أنَّ المفروض أن يتباهى، وعندما جاء والد عزِّ الدين التنوخي ليسأل عن ابنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعرف خبره، قال له: إن عزَّ الدين القسام علَّمك الحياة. عاد مرَّة في شبابه من السفر إلى جبلة، فطلب منه والده أن يصطحبه ليُسَلِّم على الآغا (السيد أو الآمر أو الرئيس) فرفض بشدَّة، وقال: إن المقيم هو الذي يأتي ليُسَلِّم على القادم.

العودة إلى سورية

لَمَّا عاد إلى بلاده سورية عَمِل مدرِّسًا في جامع السلطان إبراهيم، وأقام مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية في مدينة جبلة، وعندما اشتعلت الثورة ضدَّ الفرنسيين شارك القسامُ في الثورة، فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه وإكرامه بتوليته القضاء فرفض ذلك، وكان جزاؤه أن حَكَمَ عليه الديوانُ السوري العرفي بالإعدام.

قاد أوَّلَ مظاهرة تأييدًا للِّيبيين في مقاومتهم للاحتلال الإيطالي، وكوَّن سريَّة من ٢٥٠ متطوعًا، وقام بحملة لجمع التبرُّعات، وقد جمع المال والسلاح لنجدة المجاهدين في طرابلس الغرب أثناء حملة الإيطاليين عليها.

ثورة جبل صهيون

باع القسام بيته وترك قريته الساحلية، وانتقل إلى قرية الحفة الجبلية ذات الموقع الحصين؛ ليساعد عمر البيطار في ثورة جبل صهيون (١٩١٩-١٩٢٠م)، وقد حَكَم عليه الاحتلال الفرنسي بالإعدام غيابيًّا، وبعد إخفاق الثورة فرَّ الشيخ القسام عام (١٣٣٩هـ= ١٩٢١م) إلى فلسطين مع بعض رفاقه، واتَّخذ مسجد الاستقلال في الحيِّ القديم بحيفا مقرًّا له؛ حيث استوطن فقراء الفلاحين الحيَّ بعد أن نزحوا من قراهم، ونشط القسام بينهم يُحاول تعليمهم، ويُحارب الأُمِّيَّة المنتشرة بينهم، فكان يُعطي دروسًا ليليَّة لهم، ويُكثر من زيارتهم، وقد كان ذلك موضع تقدير الناس وتأييدهم.

رئيس جمعية الشبان المسلمين

التحق القسام بالمدرسة الإسلامية في حيفا، ثم بجمعية الشبان المسلمين هناك، وأصبح رئيسًا لها عام (١٣٤٥هـ= ١٩٢٦م).

كان القسام في تلك الفترة يدعو إلى التحضير والاستعداد للقيام بالجهاد ضدَّ الاستعمار البريطاني، ونشط في الدعوة العامَّة وسط جموع الفلاحين في المساجد الواقعة شمالي فلسطين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في فلسطين

لجأ القسام إلى فلسطين واستقرَّ في قرية الياجور قرب حيفا، ولجأ معه من رفاق الجهاد الشيخ محمد الحنفي، والشيخ علي الحاج عبيد، وإلى سنة (١٣٥٤هـ= ١٩٣٥م) لم يكن سكان حيفا يعرفون عن عزِّ الدين القسام سوى أنه واعظ ديني، ومرشد سوري، ورئيس جمعية الشبان المسلمين في مدينة حيفا، وكان بنظرهم شيخًا محمود السيرة في تقواه وصدقه ووطنيَّته، كما كانت منطقة الشمال تعرفه إمامًا وخطيبًا بارعًا، ومأذونًا شرعيًّا في جامع الاستقلال، وهو الذي سعى في تشييده، وفي عام (١٣٤٨هـ= ١٩٢٩م) أُشيع أن اليهود يُريدون أن يحرقوا مسجد الاستقلال بحيفا، فاقترح بعض الوُجهاء أن يطلبوا المساعدة من الإنجليز؛ لكنَّ الشيخ القسام رفض رفضًا قاطعًا، وقال: «إن دمنا هو الذي يحمي المسلمين ويحمي مساجد المسلمين، وليست دماء المحتلِّين». كان يرفض أيَّ حوار أو معاهدة مع الإنجليز، ويقول: «مَنْ جَرَّبَ المُجَرَّب فهو خائن». فقد جرَّب بعض العرب الإنجليز ضدَّ العثمانيين، وكانت كلُّ وعودهم كذبًا.

كان يقول للناس في خطبه: «هل أنتم مؤمنون؟» ويُجيب نفسه: «لا». ثم يقول للناس: «إن كنتم مؤمنين فلا يقعدنَّ أحدٌ منكم بلا سلاح وجهاد». وفي إحدى خطبه كان يُخبِّئ سلاحًا تحت ثيابه فرفعه وقال: «مَنْ كان منكم يُؤمن بالله واليوم الآخر فليَقْتَنِ مثل هذا». فقُبض عليه وأُدخل مباشرةً إلى السجن، وتظاهر الناس لإخراجه، وأضربوا إضرابًا عامًّا إلى أن تمَّ الإفراج عنه، كان يُركِّز على أن الإسراف في زخرفة المساجد حرام، وأن علينا أن نشتري سلاحًا بدل أن نشتري الثريات الفاخرة، كان يَصِلُ إلى جميع الناس من خلال عمله كمأذون شرعيٍّ وكخطيبٍ، وكان يختلف كثيرًا مع الشيوخ لأنهم كانوا لا يهتمُّون سوى بأمور العبادة من صلاة وصوم؛ بينما كان اليهود يُخَطِّطُون ويشترون الأراضي، فكان يرى أنه لا فصل بين الدين والسياسة، وأمورُ السياسة كانت واضحةً بعد أن نال اليهود وعد بلفور، كما كان في شجار مع المستعجلين من أبناء تنظيمه، الذين يُريدون الثورة في حين كان القسام يُعِدُّ ويتريَّثُ ليضرب في الوقت المناسب، فلبث سنين وهو يُعِدُّ للثورة.

اتصالات القسام

اتصل القسام بالملك فيصل في سورية طلبًا لمؤازرته في ثورته، فوعده ولم يُثمر وعده عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء، واتصل بالحاج أمين الحسيني -مفتي فلسطين الأكبر- وطلب منه أن يُهَيِّئَ الثورة في منطقته، فأجابه بأنه يرى أن تُحَلَّ قضية فلسطين بالطرق السلمية عن طريق المفاوضات، واتصل مع الأمير راشد بن خزاعي الفريحات من شرق الأردن للمؤازرة، وليُهَيِّئَ الثورة ضدَّ الانتداب البريطاني وأعوانه في شرق الأردن، وقد قَدَّم الأمير الخزاعي إمدادًا مباشرًا وقويًّا للشيخ القسام بالمال والسلاح، فضلًا عن توفير الحماية للثوار الفلسطينيين في جبال عجلون الحصينة من فترة لأخرى، هذا الذي استدعى من الأمير راشد وقبيلته ومعظم عشائر الشمال الأردني المواجهة المباشرة مع النظام الأردني؛ وخاصَّة مع الملك عبد الله الأول والانتداب البريطاني، الذي حاول تصفية الأمير الخزاعي بقصف مواقعه، وقَتْلِ كثيرٍ من الثوَّار الأردنيين الموالين للخزاعي في ذلك الوقت؛ وهذا ما اضطره بعدها إلى مغادرة الأراضي الأردنية إلى السعودية عام ١٩٣٧م، واندلعت على إثر لجوئه ثورةٌ في جبال عجلون، امتدَّت بعدها إلى نطاق واسع في إمارة شرق الأردن.

جهاده

كشفت القوَّات البريطانية أمر القسام في (١٨ من شعبان ١٣٥٤هـ= ١٥ من نوفمبر ١٩٣٥م)، فتحصَّن الشيخ عزُّ الدين هو وخمسة عشر فردًا من أتباعه، فلحقت به القوَّات البريطانية في (١٩ من نوفمبر ١٩٣٥م) فطوَّقتهم وقطعت الاتصال بينهم وبين القرى المجاورة.

علم الشعب لأوَّل مرَّة أن الشيخ القسام كان قد اعتصم مع إخوانه في أحراش قرية يعبد، وكانوا مسلَّحين ولا يهابون خطر المجابهة مع قوَّات الانتداب البريطاني ولا عواقبها، إلَّا أنَّ قوَّات الأمن كانت قد أعدَّت قوَّة هائلة تفوق عدد الثوار بمئات المرَّات، وكانت كقطيع كبير من الجيش مصمِّمَة على القضاء على الشيخ عزِّ الدين وأتباعه، وأحاطت القوَّات بالمنطقة منذ فجر يوم (٢٣ من شعبان ١٣٥٤هـ= ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥م)، ووُضِعَت الشرطة العربية في الخطوط الهجومية الثلاثة الأولى ثم القوات البريطانية، وقبل بدء المعركة نادى أحد أفراد الشرطة العربية الثائرين طالبًا منهم الاستسلام، فردَّ عليه القسام صائحًا: «إننا لن نستسلم، إننا في موقف الجهاد في سبيل الله». ثم التفت إلى رفاقه وقال: «موتوا شهداء في سبيل الله خيرٌ لنا من الاستسلام للكفرة الفجرة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استشهاده

قامت معركة غيرُ متكافئة بين قوات الاحتلال ورجال المقاومة دامت حوالي ساعتين؛ كان الرصاص خلالها يصمُّ الآذان، والطائرات المحلِّقة على ارتفاع قليل تكشف للمهاجمين موقع الثوار وقوَّتهم، وفي نهاية الساعتين أسفرت المجابهة عن استشهاد القسام ورفاقه؛ يوسف عبد الله الزيباري، وسعيد عطية المصري، ومحمد أبي قاسم خلف، وألقى الأمن القبض على الباقين من الجرحى والمصابين.

اكتشفت قوَّات الأمن عند نهاية المعركة مع الشيخ ذي اللحية البيضاء، والمجندل على التراب بملابسه الدينية مصحفًا وأربعة عشر جنيهًا ومسدسًا كبيرًا، وكان الشيخ نمر السعدي ما زال حيًّا جريحًا؛ حيث استطاع صحفي عربي أن ينقل عن لسانه أول الحقائق الخفية عن عصبة القسام، وكانت هذه الحقيقة دليلًا على أن المجابهة المسلحة هذه كانت بقرار بدء الثورة منهم جميعًا.

كانت العناوين البارزة في الصحف بعد المعركة «معركة هائلة بين عصبة الثائرين والبوليس»، و«حادث مريع هزَّ فلسطين من أقصاها إلى أقصاها». انطلقت بعد المعركة العديد من الثورات المؤازرة للمقاومة الفلسطينية في العالم العربي، وكان منها ثورة عجلون في الأردن في عام ١٩٣٧م.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد الكريم الخطابي

الاسم الكامل	محمد بن عبد الكريم الخطابي
اللقب	الأمير عبد الكريم الخطابي
تاريخ الميلاد	١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م
مكان الميلاد	أغادير - المغرب
تاريخ الوفاة	١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م
مكان الوفاة	القاهرة - مصر
الانتماء	جمهورية الريف المغربية
أعداؤه	الاحتلال الفرنسي - الإسباني

الأمير عبد الكريم الخطابي قائد وطني، وزعيم المقاومة المغربية في الشمال الإفريقي خلال الفترة من عام ١٩١٩م إلى عام ١٩٢٩م، وكان قائد حرب الريف الشهيرة، وهو قيادي بارز ضدَّ الاحتلال الفرنسي - الإسباني للمغرب.

نشأته

وُلِدَ محمد بن عبد الكريم الخطابي في بلدة أغادير بالمغرب الأقصى سنة (١٣٠٠هـ= ١٨٨٢م)، ونشأ في أسرة كريمة تحت كنف والده، الذي كان يتزعَّم قبيلة بني ورياغل، تلقى تعليمه في جامعة القرويين؛ حيث درس العلوم الشرعية واللغوية، وتولَّى منصب القضاء الشرعي في مدينة مَلِيلَة.

الحرب العالمية الأولى

تقاسمت إسبانيا وفرنسا النفوذ في المغرب، التي كانت تُعاني من ضعف وانقسام وصراع داخلي، واستعانة بالقوى الخارجية، وترتَّب على هذا التقسيم أن صار القسم الشمالي من مَرَّاكُش خاضعًا للسيطرة الإسبانية، وهذا الجزء ينقسم بدوره إلى قسم شرقي يُعرف ببلاد الريف، وغربي يُعرف بالجبالة، وتمتدُّ بلاد الريف بمحاذاة الساحل لمسافة تبلغ ١٢٠ ميلًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتمتدُّ عرضًا لمسافة ٢٥ ميلًا، وتسكنها قبائل ينتمي معظمها إلى أصل بربري، تأتي في مقدمتها قبيلة بني ورياغل، التي ينتمي إليها الأمير الخطابي.

انخرط عبد الكريم الخطابي في النظام الحكومي الإسباني، وعُيِّن كبير قضاة مَلِيلَة في عام (١٣٣٢هـ= ١٩١٤م)، وأثناء الحرب العالمية الأولى عاقبت السلطات الإسبانية عبد الكريم لأنشطته المناهضة للاستعمار بتهمة التآمر مع القنصل الألماني د/ ڤالتر زشلن، وسُجن في شفشاون من عام ١٩١٦م إلى عام ١٩١٧م، وبنهاية الحرب استعاد عبد الكريم منصبه لفترة قصيرة، إلَّا أنه خوفًا من تسليمه للفرنسيين لنيل عقابه منهم، سرعان ما عاد إلى بلدته أغادير في يناير (١٩١٩م= ١٣٣٧هـ)، وقد أزعجه ظهور العملاء الإسبان في منطقة بني ورياغل، وصمَّم على القتال للاستقلال، وكان ثمة سبب آخر للاستفزاز؛ وهو فقدانه راتبه واستبعاد السلطات الإسبانية له من كونسورتيوم[1] غير رسمي لحقِّ التنقيب عن المعادن، وفي العام التالي بدأ عبد الكريم مع والده وأخيه حربَ التمرُّد ضد الإسبان، وقد أصبح هدفه آنذاك توحيد كل قبائل الريف في جمهورية الريف المستقلَّة.

حرب الريف

كان الأمير الخطابي في التاسعة والثلاثين حين تولَّى مقاليد الأمور في منطقة الريف، وقد حَنَّكَتْهُ التجارِب وأصقلته الأيام، ووَحَّد هدفه، فاستكمل ما كان أبوه قد عزم عليه من مواصلة الجهاد، وإخراج الإسبانيين من البلاد.

وفي تلك الأثناء كان الجنرال سلفستر قائد قطاع مَلِيلَة يزحف نحو بلاد الريف؛ لِيُحْكِمَ السيطرة عليها، ونجح في بادئ الأمر في الاستيلاء على بعض المناطق، وحاول الأمير عبد الكريم الخطابي أن يُحَذِّرَ الجنرال سلفستر من مغبَّة الاستمرار في التقدُّم، والدخول في مناطق لا تعترف بالحماية الإسبانية الأجنبية، لكنَّ الجنرال المغرور لم يأبه لكلام الأمير، واستمرَّ في التقدُّم ممنيًا نفسه باحتلال بلاد الريف.

---

(١) كونسورتيوم: هو ائتلاف أو اتحاد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت قوَّات الجنرال الإسباني تتألَّف من أربعة وعشرين ألف جندي؛ مُجَهَّزين بالأسلحة والمدفعية، ولم تُصادف هذه القوَّات في زحفها في بلاد الريف أيَّ مقاومة، واعتقد الجنرال أن الأمر سهلًا، وأعماه غرورُه عن رجال عبد الكريم الخطابي الذين يعملون على استدراج قوَّاته داخل المناطق الجبلية المرتفعة، واستمرَّت القوات الإسبانية في التقدُّم وتحقيق انتصارات صغيرة؛ حتى احتلت مدينة أنوال في (٧ من رمضان ١٣٣٩هـ= ١٥ من مايو ١٩٢١م).

بعد ذلك بدأ رجال عبد الكريم الخطابي هجومهم على كل المواقع التي احتلَّها الإسبانيون، وحاصروا هذه المواقع حصارًا شديدًا، وفشل الجنرال في ردِّ الهجوم، أو مساعدة المواقع المحاصَرَة، وأصبحت قوَّاته الرئيسيَّة -التي جمعها في «أنوال»- مُهَدَّدة، بعد أن حاصرها وطوَّقها رجال الريف، وحين حاول الانسحاب بقوَّاته اصطدم بقوَّات الخطابي في (١٦ من ذي القعدة ١٣٣٩هـ= ٢٢ من يوليو ١٩٢١م) في معركة حاسمة عُرفت بمعركة أنوال، وكانت الهزيمة الساحقة للقوات الإسبانية؛ حيث أُبيد معظم الجيش المحتلّ، وأقرَّ الإسبان بأنهم خسروا في تلك المعركة ١٥ ألف قتيل يتقدَّمهم الجنرال سلفستر، ووقع في الأسر ٥٧٠ أسيرًا، وهذا غير الغنائم من الأسلحة التي وقعت في أيدي المجاهدين.

ما إن انتشر خبر انتصار الخطابي ورجاله في معركة أنوال، حتى هبَّت قبائل الريف تُطارد الإسبان أينما وُجدوا، ولم يمضِ أسبوعٌ إلَّا وقد انتصر الريف عليهم، وأصبح وجود الإسبان مقتصرًا على مدينة تطوان وبعض الحصون في منطقة الجبالة.

من الثورة إلى بناء الدولة

بسط الأمير الخطابي سلطته على بلاد الريف بعد جلاء الإسبان عنها، واتَّجه إلى تأسيس دولة مُنَظَّمة دون أن يتنكَّر لسلطان مَرَّاكُش، أو يتطلَّع إلى عرشه؛ بدليل أنه منع أنصاره من الدعاء له في خطبة الجمعة. وأعلن الخطابي أن أهداف حكومته تتمثَّل في عدم الاعتراف بالحماية الفرنسية على المغرب، وجلاء الإسبان من المناطق التي احتلُّوها، وإقامة علاقة طَيِّبَة مع جميع الدول، والاستعانة بالخبراء الأوربيين في بناء الدولة، وقام بتحويل رجاله المقاتِلين إلى جيش نظامي على النسق الحديث، وعَمِل على تنظيم الإدارة المدنية، وقام بشقِّ الطرق، ومدِّ سلوك البرق والهاتف، وأرسل وفودًا إلى العواصم العربية للحصول على تأييدها، وطلب من بريطانيا وفرنسا والفاتيكان الاعتراف بدولته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

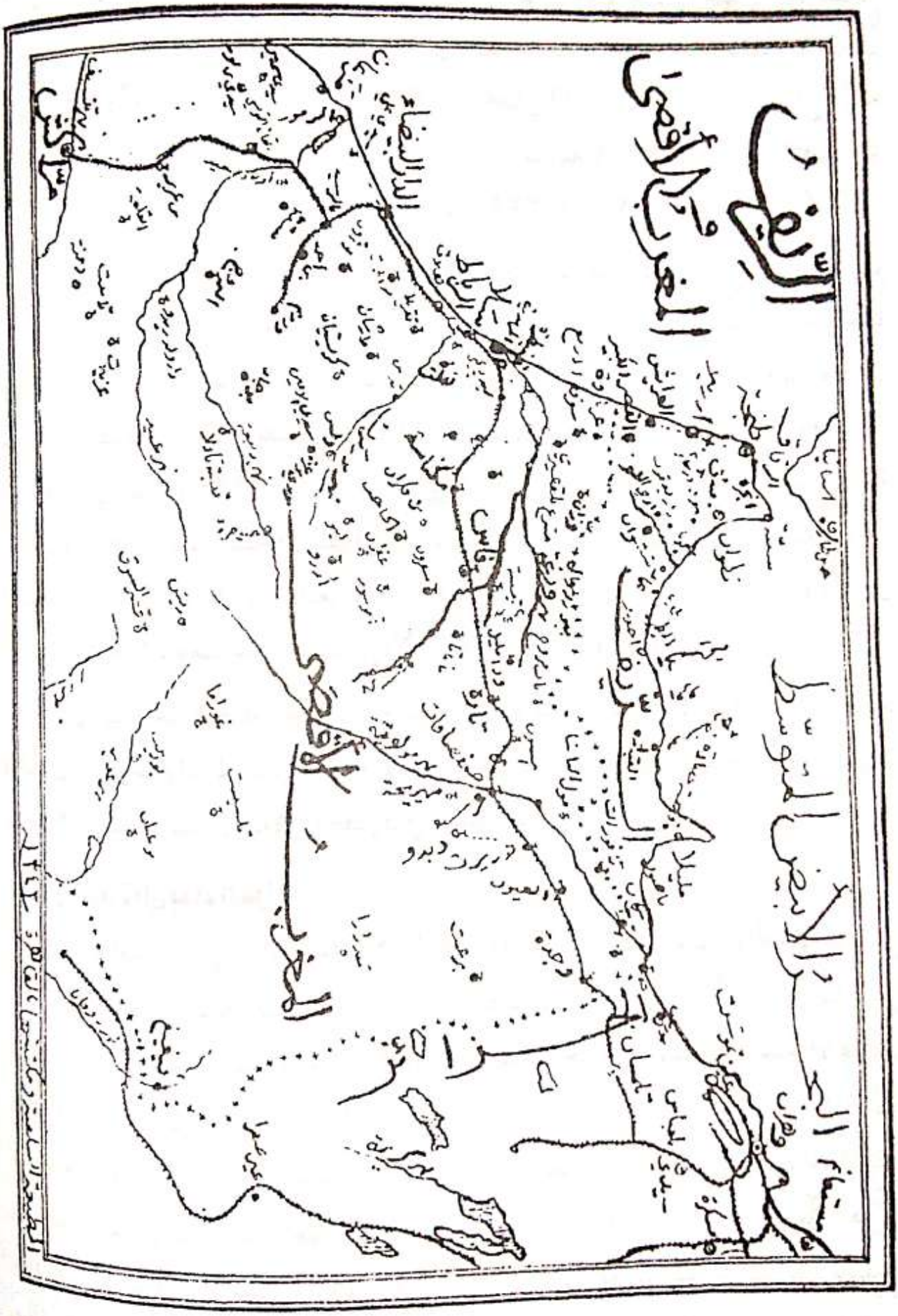
المغرب الأقصى
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
الدار البيضاء
الرباط
فاس
مراكش
طنجة
سبتة
تلمسان
وهران
بجاية
قسنطينة
تونس
بنزرت
سوسة
صفاقس
قابس
جربة
طرابلس
غدامس
غات
برقة
بنغازي
سرت
مرسى الحجاج
الإسكندرية

وفوق ذلك كله دعا إلى وضع دستور تلتزم به الحكومة، وتمَّ تشكيل مجلس عامٍّ عُرف باسم الجمعية الوطنية، كان أوَّل قراراته إعلان الاستقلال الوطني، وتأسيس حكومة دستورية لقيادة البلاد.

صدى الهزيمة في إسبانيا

كان من أثر هذه الهزيمة المدوية للإسبان أن قام انقلاب عسكري في إسبانيا بقيادة بريمودي ريفيرا سنة (١٣٤٢هـ= ١٩٢٣م)، لكن هذا لم يُغَيِّر من حقيقة الأوضاع بالنسبة للمغرب، فلم تُعلن الحكومة الجديدة إنهاء احتلالها للمغرب؛ هذا الذي دعا الأمير الخطابي إلى مواصلة الجهاد ضدَّها؛ فقام بهجوم سنة (١٣٤٢هـ= ١٩٢٤م) على مدينة تطوان، لكنها لم تسقط في يده على رغم من وصول جنوده إلى ضواحيها، واضطرت القوات الإسبانية إلى الانسحاب من المناطق الداخلية، والتمركز في مواقع حصينة على الساحل، كما أنها أخلت مواقعها في إقليم الجبالة في أواخر سنة (١٣٤٣هـ= ١٩٢٤م) بعد أن ثبت لها عجزها عن الاحتفاظ بهذا الإقليم أمام هجمات الأمير الخطابي.

سياسة فرنسا مع الخطابي

فُوجئ الفرنسيون بانتصار الخطابي على الإسبان، وكانوا يتمنَّوْنَ غير ذلك، كما فُجعوا بانسحاب القوات الإسبانية من إقليم الجبالة كله؛ لذا قرَّرُوا التدخُّل في القتال ضدَّ الخطابي ولمصلحة الإسبان، وكانت فرنسا تخشى من أن يكون نجاح الخطابي في ثورته عاملًا مشجِّعًا للثورات في شمال إفريقيا ضدَّها، كما أن قيام جمهورية قويَّة في الريف يدفع المغاربة إلى الثورة على الفرنسيين ورفض الحماية الفرنسية.

واستعدَّت فرنسا لمحاربة الخطابي بزيادة قوَّاتها الموجودة في مَرَّاكُش، وبدأت تبحث عن مبرِّر للتدخُّل في منطقة الريف، فحاولوا إثارة الأمير الخطابي أكثر من مرَّة بالتدخُّل في منطقته، وكان الخطابي يلتزم الصمت أمام هذه الاستفزازات؛ حتى لا يُحاربَ في جبهتين، ويكتفي باستنكار العدوان على الأراضي التابعة له، ثم قام الفرنسيون بتشجيع رجال الطرق الصوفية على إثارة بعض القلاقل والاضطرابات في دولة الريف، فلمَّا تصدَّى لهم الأمير الخطابي تدخَّلت فرنسا بحجة حماية أنصارها، واندلع القتال بين الخطابي والفرنسيين في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(رمضان ١٣٤٣هـ= أبريل ١٩٢٥م)، وفُوجئ الفرنسيون بالتنظيم الجيد الذي عليه قوَّات الأمير الخطابي، وببسالتهم في القتال، فاضطروا إلى التزام موقف الدفاع طيلة أربعة أشهر، وأُصيبت بعض مواقعهم العسكرية بخسائر فادحة.

استسلام الأمير عبد الكريم الخطابي

لم يَعُدْ أمام الدولتين الكبيرتين (فرنسا وإسبانيا) سوى أن يجتمعا على حرب الأمير الخطابي، وأعدَّتا لهذا الأمر عُدَّته بالإمدادات الهائلة لقوَّاتهما في المغرب، والإنزال البحري في مكانٍ قرب خليج الحسيمات؛ الذي يمتدُّ في قلب بلاد الريف، وأصبح على الأمير الخطابي أن يُواجه هذه الحشود الضخمة بقوَّاته التي أنهكها التعب والقتال المستمرُّ، فضلًا عن قلَّة المؤن التي أصبحت تُهَدِّدها.

وبالإضافة إلى ذلك لجأت فرنسا إلى دعم موقفها في القتال، فأغرت السلطان المغربي بأن يُعلن أن الخطابي أحد العصاة الخارجين على سلطته الشرعية؛ ففعل السلطان ما أُمر به، كما قامت بتحريض بعض قبائل المجاهدين على الاستسلام، فنجحت في ذلك.

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت الخسائرُ تتوالى على الخطابي في المعارك التي يخوضها، وتمكَّن الإسبان بصعوبة من احتلال مدينة أغادير عاصمة الأمير الخطابي، ثم تمكَّنت القوات الإسبانية والفرنسية من الاستيلاء على حصن ترجست، الذي اتخذه الأمير مقرًّا له بعد سقوط أغادير في (١١ من ذي القعدة ١٣٤٤هـ= ٢٣ من مايو ١٩٢٦م).

واضطر الأمير عبد الكريم الخطابي إلى تسليم نفسه إلى السلطات الفرنسية باعتباره أسير حرب؛ وذلك بعد أن شعر بعدم جدوى المقاومة، وأن القبائل قد أُنهكت، ولم تَعُدْ مستعدَّة لمواصلة القتال، وقد قامت فرنسا بنفي الأمير المجاهد إلى جزيرة نائية في المحيط الهندي.

وفي تلك الجزيرة عاش الأمير المجاهد مع أسرته وبعض أتباعه أكثر من عشرين عامًا، قضاها في الصلاة وقراءة القرآن، وفشلت محاولاته لأن يرحل إلى أية دولة عربية أو إسلامية.

الإقامة بالقاهرة

وفي سنة (١٣٦٧هـ= ١٩٤٧م) قرَّرت فرنسا نقله إليها على متن سفينة، فلمَّا وصلت إلى ميناء بورسعيد تمكَّن بعض شباب المغرب المقيمين في مصر من زيارته على متن السفينة، ورجَوْهُ أن يتقدَّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باللجوء إلى مصر ليُواصل مسيرة الجهاد من أجل تحرير المغرب، فوافق على هذا الرأي شريطة أن تُوافق الحكومة المصرية على طلبه، كما لاقاه وفد من جماعة الإخوان المسلمين مُرَحِّبين به.

وتمَّت الموافقة على طلبه على الرغم من احتجاج السفير الفرنسي في مصر، وبدأ الخطابي عهدًا جديدًا من النضال الوطني من أجل تحرير بلاده، وأسَّس مع أبناء المغرب العربي لجنة أطلقوا عليها «لجنة تحرير المغرب العربي»، تولَّى هو رئاستها في (٢٥ من المحرم ١٣٦٧هـ= ٩ من ديسمبر ١٩٤٧م).

وفي أثناء إقامته توطدت الصلة بينه وبين الإمام الشهيد حسن البنا، وتكرَّرت اللقاءات بينهما في اجتماعات عامَّة وخاصَّة؛ ولما استشهد الإمام البنا، كتب الأمير عبد الكريم الخطابي: «ويح مصر! وإخوتي أهل مصر! مما يستقبلون جزاء ما اقترفوا، فقد سفكوا دم وليٍّ من أولياء الله، تُرى أين يكون الأولياء إن لم يكن منهم؟! بل في غُرَّتِهم حسن البنا، الذي لم يكن في المسلمين مثله».

وفاته

ظلَّ الأمير عبد الكريم الخطابي مقيمًا في القاهرة، يُتابع نشاط المجاهدين من أبناء المغرب العربي المقيمين في القاهرة، ويمدُّهم بنصائحه وإرشاداته، حتى لقي رَبَّه في (غرة رمضان ١٣٨٢هـ= ٦ من فبراير ١٩٦٣م).

من أقواله

قال عبد الكريم الخطابي: «إذا تناهى إلى أسماعكم أن الاستعمار أسرني أو قتلني أو بعثر جسمي كما يُبَعثر تراب هذه الأرض، فاعلموا أنني حيٌّ وسأعود من جهة الشرق».

وتروي ابنة المجاهد السيدة عائشة الخطابي كلمة عظيمة قالها والدها رحمه الله قبل تحقيق النصر في معركة أنوال الخالدة؛ قال عبد الكريم الخطابي: «أنا لا أُريد أن أكون أميرًا ولا حاكمًا، وإنما أُريد أن أكون حرًّا في بلدي، ولا أطيق مَنْ سلب حريتي أو كرامتي».

أمَّا بعد الانتصار، فقال في اجتماع مع رجال الريف الذين توافدوا عليه بأعداد غفيرة يُريدون إعلانه سلطانًا: «لا أُريدها سلطنة ولا إمارة ولا جمهورية ولا محمية، وإنما أُريدها عدالة اجتماعية، ونظامًا عادلًا يستمدُّ رُوحه من تراثنا».

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائد العظيم، الذي أرسى قواعد القيادة الفذَّة، فصنع بها أُمَّة هي من خير الأمم، وصنع بهذه القيادة -أيضًا- رجالًا لا نظير لهم في الأمم؛ بل لقد انقطعت أرحام النساء أن تلد أمثالهم.

وبعد..

فإنه لم تجحد أُمَّة من الأمم قادتها العسكريين، كما جحدت الأُمَّة العربية والإسلامية قادتها العسكريين؛ فقد لاقى القادة العرب والمسلمون عقوقًا وجحودًا من أُمَّتهم بشكل منقطع النظير بين سائر الأمم الأخرى؛ والسبب أن الاستعمار الأوربي جاء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، فوجد الجوَّ مناسبًا لطمس أسماء القادة العرب والمسلمين من مناهج التدريس في المعاهد والجامعات، وإبراز القادة الأجانب في تلك المناهج، فتخرَّج التلاميذ والطلاب في تلك المؤسَّسات التعليمية وهم جيل الاستعمار القديم، يجهلون حتى مجرَّد أسماء قادتهم، الذين فتحوا بلادهم، وحملوا إليها الإسلام دينًا والعربية لغةً؛ لأنهم شُغِلُوا عن قادتهم العظماء بقادة الاستعمار القديم، فأصبحوا يعرفون عن نابليون بونابرت -مثلًا - كلَّ شيء، ويجهلون عن خالد بن الوليد كلَّ شيء!

ولم تقتصر الجهود الاستعمارية على طمس أسماء القادة العرب المسلمين وسيرة حياتهم على المؤسسات التعليمية المدنية، بل شملت المؤسَّسات العسكرية العربية والإسلامية أيضًا، بل كانت الجهود الاستعمارية في المؤسَّسات التعليمية العسكرية أدهى وأَمَرَّ، وأكثر إمعانًا في التخريب ممَّا كانت عليه في المؤسَّسات التعليمية المدنية؛ فقد كان يُدَرَّس في المؤسَّسات التعليمية العسكرية العربية الإسلامية في مادَّة تاريخ الحرب سِيَر قادة الاستعمار الأجنبي، الذين قادوا الحملات العسكرية لاكتساح البلاد العربية والإسلامية واستعبادها وإذلالها، والاستحواذ على خيراتها، فكان يُدرَّس في الكلية العسكرية العراقية الملكية للطلاب الذين سيُصبحون ضُبَّاطًا بعد تخرُّجهم في تلك الكليات، معارك استعمار العراق في الحملة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى؛ وذلك بأسلوب يبهر الطلاب العسكريين بمزايا القادة البريطانيين الأجانب، وبعقيدتهم العسكرية الأجنبية في القتال!

لقد حاولتُ قدر الإمكان كتابة سِيرة أشهر القادة العسكريين المسلمين، أصحاب أكثر الأعمال عسكرية ومدنية في التاريخ الإسلامي في هذا الكتاب، مع العلم أن هناك العشرات من القادة المسلمين الذين لم أذكرهم؛ أمثال حسَّان بن النعمان، وعبد الرحمن الغافقي، والسمح بن مالك، وعبد العزيز بن موسى.. وغيرهم، ولكنني سوف أذكرهم -إن شاء الله- في كتابي القادم عن تاريخ العسكرية العربية الإسلامية.

إن كتابتي لسيرة قادتنا كي يعرف كلُّ عربي مسلم القائد الذي فتح بلده، وهذا أضعف الإيمان، ولعلَّ سيرة قادتنا الباهرة تُطَهِّر عقول الذين بُهروا بالقادة الأجانب، ولعلَّ شباب العرب والمسلمين يقتدون بسيرهم الغنية بالرجولة والشجاعة والإقدام والتضحية والفداء، ويقتفون آثارهم الفذَّة ليصلوا إلى النتائج نفسها التي حَقَّقها أولئك القادة العظام، ولعلَّ العرب والمسلمين -أيضًا- يُوقنون أنَّ قادتهم أعظم من القادة الأجانب، وأكثر كفاية واقتدارًا، وأنَّ ما غرسه المستعمر في نفوسهم من تفوُّق الأجنبي ما هو إلاَّ حديث خرافة بعيد عن الواقع والحقِّ، وأنَّ العرب والمسلمين أُمَّة لا تقلُّ شأنًا عن سائر الأمم، وبإمكانها أن تأخذ مكانتها المرموقة بين الأمم الأخرى.

أرجو أن أكون قد أبرزت في كتابي هذا كلَّ هذه الدروس؛ كي تنفع كلَّ عربي ومسلم؛ حتى تكون لهم فائدة تُعِينُهم على معرفة الطريق الصحيح لبداية استعادة المجد الغائب والأرضي المحتلَّة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وأسأل الله العلي العظيم ربَّ العرش الكريم أن يتقبَّل منِّي هذا الجهد قبولًا حسنًا، وأن يُبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرَّب بها إليه؛ كي أكون رفيق النبي ﷺ والصحابة والشهداء في الفردوس الأعلى إن شاء الله.

* * *

telegram:mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

١- الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، للدكتور/ حسن أحمد محمود.

٢- الأندلس من الفتح إلى السقوط، للداعية الدكتور/ راغب السرجاني.

٣- البداية والنهاية، لابن كثير.

٤- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي.

٥- الدرر في اختصار المغازي والسير، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري.

٦- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي.

٧- السيرة النبوية، لابن هشام.

٨- العسكرية العربية الإسلامية، للّواء الركن/ محمود شيت خطاب تغمده.

٩- عيون الأثر في المغازي والسير، لابن سيد الناس.

١٠- الفتوح الإسلامية عبر العصور، لعبد العزيز إبراهيم العمري.

١١- فتوح الشام، لأبي عبد الله بن عمر الواقدي.

١٢- قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، للدكتور/ راغب السرجاني.

١٣- قصة الحروب الصليبية، للدكتور/ راغب السرجاني.

١٤- الكامل في التاريخ، لابن الأثير.

١٥- كيف دخل التتر بلاد المسلمين؟ لسليمان بن حمد العودة.

١٦- موسوعة الفتوحات الإسلامية، لمحمود شاكر.

١٧- موسوعة معارك العرب، للدكتور: صالح زهر الدين.

١٨- موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.

١٩- موقع قصة الإسلام الإلكتروني.

٢٠- موقع إسلام أون لاين.

٢١- قسم البحوث والدراسات، الجزيرة نت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

تقديم : د.راغب السرجاني ٥
مقدمة ٧
الفصل الأول: قادة الفتح ١١
- خالد بن الوليد ١٣
- عمرو بن العاص ٢٢
- سعد بن أبي وقاص ٢٩
- عقبة بن نافع ٣٦
- قتيبة بن مسلم الباهلي ٤٢
- محمد بن القاسم الثقفي ٤٦
- موسى بن نصير ٥٠
- طارق بن زياد ٥٦
- أسد بن الفرات ٦١
- محمود بن سُبُكْتِكِين ٦٧
- ألب أرسلان ٧٤
- عماد الدين زنكي ٧٨
- صلاح الدين الأيوبي ٨٥
- شهاب الدين الغوري ٩٢
- قطز ١٠١
- بيبرس ١٠٩
- المنصور قلاوون ١١٩
- عثمان بن أرطغرل ١٢٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أورخان بن عثمان ١٣١
- مراد الأول ١٣٧
- بايزيد الأول ١٤٣
- مراد الثاني ١٥٠
- محمد الفاتح ١٥٧
- خير الدين بربروس ١٦٥
- سليمان القانوني ١٧٠
- عثمان بن فودي ١٧٧

الفصل الثاني: قادة الدفاع ١٨٥

- يوسف بن تاشفين ١٨٧
- منصور أشورما ١٩٢
- الإمام شامل ١٩٦
- عبد القادر الجزائري ٢٠٣
- يوسف العظمة ٢١٠

الفصل الثالث: قادة المقاومة ٢١٥

- محمد كُريم ٢١٧
- عمر المختار ٢٢١
- عز الدين القسام ٢٣٠
- عبد الكريم الخطابي ٢٣٥

الخاتمة ٢٤٢

المصادر ٢٤٤

الفهرس ٢٤٥

* * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن..

اشتر إصدارات شركة أقلام

١) أسوة للعالمين (من هو محمد ﷺ)	:	د. راغب السرجاني
٢) قصة أردوجان	:	د. راغب السرجاني
٣) مستقبل النصارى في الدولة الإسلامية	:	د. راغب السرجاني
٤) فن التعامل النبوي مع غير المسلمين	:	د. راغب السرجاني
٥) وخلق الإنسان ضعيفًا	:	د. راغب السرجاني
٦) الحج والعمرة.. أحكام وخبرات	:	د. راغب السرجاني
٧) الشيعة.. نضال أم ضلال؟	:	د. راغب السرجاني
٨) قصة تونس.. من البداية إلى ثورة ٢٠١١م	:	د. راغب السرجاني
٩) أسلاك شائكة	:	د. راغب السرجاني
١٠) الفتنة الطائفية في مصر.. الجذور، الواقع، المستقبل	:	د. راغب السرجاني
١١) رمضان الأخير	:	د. راغب السرجاني
١٢) كيف تختار رئيس الجمهورية	:	د. راغب السرجاني
١٣) نقطة ومن أول السطر	:	د. راغب السرجاني
١٤) رسائل من قلب الحدث	:	د. راغب السرجاني
١٥) أنت والصومال	:	د. راغب السرجاني
١٦) قصة العلمانية	:	د. راغب السرجاني
١٧) عندما عاهد الرسول ﷺ	:	د. راغب السرجاني
١٨) ابنك.. المشكلة والحل	:	إسلام عبد التواب
١٩) أيام لا تنسى.. صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي	:	تامر بدر
٢٠) قادة لا تنسى	:	تامر بدر
٢١) حزبك إيه؟	:	مصطفى الأنصاري

اتصل يصلك المنتج أينما كنت

أقلام
نشر . توزيع . ترجمة (ش.م.م)
القاهرة: م: 01116500111
أو عبر موقعنا الإلكتروني
www.aqlamonline.net

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

telegram:mbooks90

إلى هؤلاء أهدي هذا الكتاب

إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم كي تقف هذه الأمة في مكانها الصحيح وكي تؤدي دورها الصحيح..

إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم كي يحرروا أراضى المسلمين المحتلة..

إلى الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله كي يصل الإسلام إلينا..

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته..

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين..

إلى صلاح الدين الذي وحد المسلمين وقاد الجيوش ودرب وسلح وحرر الأقصى من الصليبيين..

إلى كل من يريد تحرير بيت المقدس من اليهود..

إليهم وحدهم أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قصة الإسلام
www.IslamStory.com

أقلام
نشر . توزيع . ترجمة (ش.م.م)
www.aqlamonline.net

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner